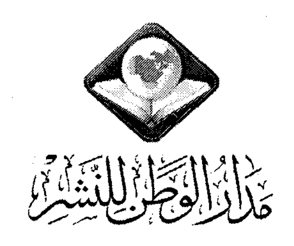
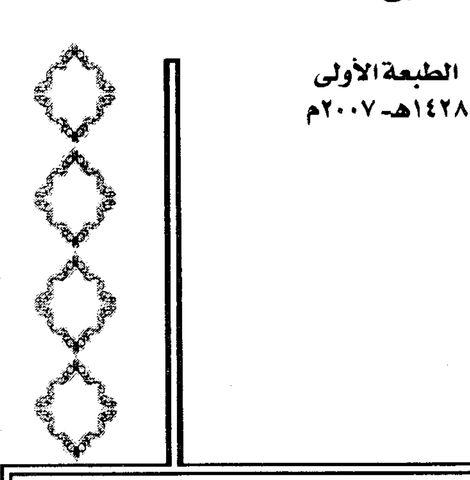


تأليف
د. بدر بن ناصر البدر

الأستاذ المشارك بقسم القرآن وعلومه
كلية أصول الدين – جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية



بسم الله الرحمن الرحيم



الطبعة الأولى
١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م



الرياض . الملز
الدائري الشرقي مخرج ١٥
٢ كم غرب أسواق المجد

هاتف: ٤٧٩٢٠٤٢ (٥ خطوط) فاكس: ٤٧٢٣٩٤١ . ص ب: ٣٣١٠ رمز بريدي: ١١٤٧١
فرع السويدي: هاتف: ٤٢٦٧١٧٧، فاكس: ٤٢٦٧٣٧٧
منطقة الرياض: ٠٥٠٣٢٦٩٣١٦
المنطقة الغربية: ٠٥٠٤١٤٣١٩٨
المنطقة الشرقية: ٠٥٠٣١٩٣٢٦٨
المنطقة الشمالية والقصيم: ٠٥٠٤١٣٠٧٢٧
التوزيع الخيري للمنطقتين الشرقية والجنوبية: ٠٥٠٨٣٩٩٨٥٧
التوزيع الخيري لباقي مناطق المملكة: ٠٥٠٦٤٣٦٨٠٤
التسويق للجهات الحكومية والمكتبات الخارجية والمعارض: ٠١٤٧٣٨١٧٢، ٠٥٠١٧٣٧٧٣٩

البريد الإلكتروني: **pop@dar-alwatan.com**
موقعنا على الإنترنت: **www.madar-alwatan.com**

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله رب العالمين إله الأولين والآخرين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد الأمين المبعوث رحمة للعالمين وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فقد أنزل الله عزَّ وجلَّ كتابه القرآن الكريم فضلاً منه ومنَّةً على هذه الأمة، كما قال تعالى: ﴿ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [آل عمران: ١٦٤]، وقال عزَّ وجلَّ: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۝٥٧ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ [يونس: ٥٧ – ٥٨].

فكان الواجب على الأمة تجاهه الإيمان به والعناية بتلاوته وحفظه، والفقه بأحكامه والعلم بتفسيره، وفهم آياته والتفكر في مدلولاته والوقوف على هدايته، والعمل به والسير على نهجه والتحاكم إليه، والتمسك به والدعوة إليه، وكل هذا داخل في التأثر به، الذي دعا إليه وأمر به ورغَّب فيه وحثَّ عليه ربُّنا جلَّ وعلا ورسولُه عليه الصلاة والسلام.

وإن من توفيق الله لعبده أن يعينه على ذلك ويحبِّبه إليه، وفيه سعادته وفلاحه في الدنيا والآخرة، قدوته خير المتأثرين بالقرآن العاملين به، أرق الناس قلبًا وأسرعهم دمعة وأشدهم خشية لله تعالى، نبينا وحبيبنا محمد ﷺ، وقد سار على نهجه في هذا وغيره صحابته الأخيار أعمق الأمة علمًا وأقومها هديًا وأشدها تمسكًا بالسنة رضي الله عنهم أجمعين، ثم تبعهم على هذا الهدي النبوي التابعون ومَنْ بعدهم بإحسان رحم الله الجميع.

وقد جاء هذا البحث (**التأثر بالقرآن والعمل به - أسبابه ومظاهره**) مبينًا أهمية هذا الموضوع ومسيس الحاجة إلى دراسته والبحث فيه، مع الدلالة على أسباب تحقيقه والحذر من موانع ذلك، والحديث عن مظاهر هذا التأثر وحسناته المباركة وآثاره الطيبة على أهله من الإنس والجن.

وقد اجتهدت في الاستدلال بحال نبينا وقدوتنا ﷺ وسلفنا الصالح رحمهم الله تعالى في جميع مباحثه، لترتبط الأمة بماضيها وتكون موصولة بسلفها، وهي بأمس الحاجة في هذا الزمن - الذي كثرت فيه فتن الشبهات والشهوات - أن ترى كيف تحقق لسلفها الصالح التأثر بالقرآن بجميع معانيه وجزئياته، وما ترتب على ذلك من خير وبركة، واستقامة وهداية، وعز ونصر وتمكين.

ولم أقف على دراسات سابقة في هذا الموضوع على وجه الخصوص إلا ما ذكره أحد الباحثين، وهو كتاب (**هداية الإنسان إلى الاستغناء بالقرآن**) جمع يوسف بن حسن بن عبد الهادي المشهور بالمبرد، المتوفى سنة ٩٠٩هـ

ولم أقف عليه، أما مادة هذا البحث فمبثوثة في مصادر كثيرة متنوعة، أثبتها في ختام هذا البحث.

وقد سرت في كتابة البحث حسب الخطة التالية:

- المقدمة.
- المبحث الأول: الحث على تدبر القرآن والتأثر به، والتحذير من الإعراض عنه.
- المبحث الثاني: الإخلاص في التأثر بالقرآن والعمل به.
- المبحث الثالث: أسباب التأثر بالقرآن.
- المبحث الرابع: موانع التأثر بالقرآن.
- المبحث الخامس: التحذير من الابتداع ومخالفة السنة في التأثر بالقرآن.
- المبحث السادس: مظاهر التأثر بالقرآن.
- المبحث السابع: ثمار التأثر بالقرآن الكريم وحسناته وآثاره.
- المبحث الثامن: تأثر الجن بالقرآن.
- الخاتمة.
- ثبت المصادر والمراجع.
- فهرس الموضوعات.

وقد التزمت في كتابته ما يلي:

١ - عزوت الآيات إلى سورها، ذاكرًا اسم السورة ورقم الآية.

٢ - خرَّجت الأحاديث، مكتفيًا بالصحيحين أو بأحدهما إن كان الحديث فيهما، فإن لم يكن خرَّجته باختصار من غيرهما.

٣ - لم أترجم للأعلام الوارد ذكرهم في البحث، خشية الإطالة.

٤ - عزوت الأقوال إلى أصحابها ووثقتها من كتب أصحابها، فإن لم أستطع وثقتها من المصادر والمراجع الأخرى.

٥ - ذكرت تفاصيل المصادر والمراجع في ثبت مستقل في آخر البحث.

وبكل حال فإنني لا أدعي الإحاطة بكتابتي في هذا الموضوع، ولا شمول البحث فيه، لما يعتريني من النقص والقصور، ثم لتشعب الموضوع وسعته.

أسأله تبارك وتعالى أن يجعلنا من أهل القرآن الذين هم أهله وخاصته، وأن يمنحنا الفقه في الدين وأن يرزقنا اتباع سنة سيد الأولين والآخرين. صلى الله عليه وعلى آله وصحبه أجمعين.

المبحث الأول

الحث على تدبر القرآن والتأثر به، والتحذير من الإعراض عنه

* **أمر الله عزَّ وجلَّ بتدبر القرآن والعمل به وحث عليه ورغب فيه**، قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢]، وقال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ [محمد: ٢٤]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤].

* **كما أثنى عزَّ وجلَّ على عباده المؤمنين المتأثرين بآياته**: فقال سبحانه: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾﴾ [الزمر: ٢٣]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: ٢]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٥١].

* **وحذَّر جل وعلا من الإعراض عن آي كتابه**، مبينًا تعالى آثار ذلك الإعراض والصدود بجميع أشكاله وصوره، فلا أحد أعظم ظلمًا منه، يقول تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ

يَدَاهُ﴾ [الكهف: ٥٧].

وقد علَّق الشنقيطي على هذه الآية وذكر الآيات المتعلقة بهذا المعنى فقال رحمه الله: (ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة أنه لا أحد أظلم، أي: أكثر ظلمًا لنفسه ممن ذُكِّر، أي: وعظ بآيات ربه، وهي هذا القرآن العظيم ﴿فَأَعْرَضَ عَنْهَا﴾ أي: ولّى وصد عنها.. وما ذكره في هذه الآية الكريمة من أن الإعراض عن التذكرة بآيات الله من أعظم الظلم قد زاد عليه في مواضع أخر بيان أشياء من النتائج السيئة والعواقب الوخيمة الناشئة عن الإعراض عن التذكرة، فمن نتائجه السيئة ما ذكره هنا من أنَّ صاحبه من أعظم الناس ظلمًا، ومن نتائجه السيئة جعل الأكنة على القلوب حتى لا تفقه الحق وعدم الاهتداء أبدًا، كما قال هنا مبينًا بعض ما ينشأ عنه من العواقب السيئة ﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۖ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓاْ إِذًا أَبَدًا﴾ [الكهف: ٥٧].

* ومنها: **انتقام الله جل وعلا من المعرض عن التذكرة** كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ ۚ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾ [السجدة: ٢٢].

* ومنها: **كون المعرض كالحمار**، كما قال تعالى: ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ۝٤٩ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ﴾ [المدثر: ٤٩ - ٥٠].

* ومنها: **الإنذار بصاعقة مثل صاعقة عاد وثمود** كما قال تعالى: ﴿فَإِنْ

أَعۡرَضُواْ فَقُلۡ أَنذَرۡتُكُمۡ صَٰعِقَةً مِّثۡلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴾ [فصلت: ١٣].

* ومنها **المعيشة الضنك والعمى**، كما قال تعالى: ﴿ وَمَنۡ أَعۡرَضَ عَن ذِكۡرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحۡشُرُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَعۡمَىٰ ﴾[طه: ١٢٤].

* ومنها: **سلكه العذاب الصعد**، كما قال تعالى: ﴿ وَمَن يُعۡرِضۡ عَن ذِكۡرِ رَبِّهِۦ يَسۡلُكۡهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴾ [الجن: ١٧].

* ومنها: **تقييض القرناء من الشياطين** كما قال تعالى: ﴿ وَمَن يَعۡشُ عَن ذِكۡرِ ٱلرَّحۡمَٰنِ نُقَيِّضۡ لَهُۥ شَيۡطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴾ [الزخرف: ٢٦].

إلى غير ذلك من النتائج السيئة والعواقب الوخيمة الناشئة عن الإعراض عن التذكير بآيات الله جل وعلا[1].

وقد كان لسلفنا الصالح رحمهم الله تعالى عناية بالغة بكتاب الله عزَّ وجلَّ وتعظيم له واحتفاء به، وفرح واغتباط لمن وفق لحفظه وتلاوته والقيام على خدمته، ومن ذلك حثهم على تدبره وتأمل آياته وفهمها والتفكر فيها، والوقوف على هداياتها ودلالاتها، كيما يكون التأثر بها، رقة في القلوب وتعظيمًا لله عزَّ وجلَّ وخشية منه وإجلالاً له، استجابة لأمره وحذرًا من نهيه ومسارعة في مراضيه ومسابقة في وجوه البر والإحسان التي أمر بها ورغب فيها، وقوفًا عند حدوده وعملاً به وتحاكمًا إليه وسيرًا على نهجه وطريقه.

ومما روي عنهم في الحث على التأثر بالقرآن والعمل به قول عبدالله

---

(١) أضواء البيان (٤/ ١٥٤ – ١٥٦).

ابن مسعود ﷺ: (لا تنثروه نثر الدقل، ولا تهذُّوه هذَّ الشعر، قفوا عند عجائبه وحركوا به القلوب، ولا يكن هم أحدكم آخر السورة)[١]، وقال أيضًا: (أنزل القرآن ليعملوا به فاتخذوا دراسته عملاً، إن أحدهم ليقرأ القرآن من فاتحته إلى خاتمته ما يسقط منه حرفًا، وقد أسقط العمل به)[٢].

وقال أبو الدرداء ﷺ: (إياكم والهذاذين بالقرآن، الذين يهذون القرآن ويسرعون بقراءته، فإنما مثل ذلك كمثل الأكمة، لا أمسكت ماء ولا أنبتت كلأ)[٣].

وعن علي بن أبي طالب ﷺ قال: (ألا إن الفقيه كل الفقه الذي لا يقنط الناس من رحمة الله، ولا يؤمنهم من عذاب الله، ولا يرخص لهم في معاصي الله، ولا يدع القرآن رغبة عنه إلى غيره، ولا خير في قراءة لا تدبر فيها)[٤].

ثم حكى حال الصحابة في تأثرهم بالقرآن، حين أحيوا ليلهم بتلاوته وتلذذوا بمناجاته سبحانه مع الخشوع والبكاء حيث يقول: (لقد رأيت أصحاب رسول الله ﷺ فما أرى اليوم شيئًا يشبههم، لقد كانوا يصبحون شعثًا صفرًا غبرًا، بين أعينهم أمثال ركب المعزى، قد باتوا لله سجدًا وقيامًا،

---

(١) أخلاق حملة القرآن (١٩)، شعب الإيمان (١/ ٣٤٤).

(٢) إحياء علوم الدين (١/ ٣٢٤).

(٣) شعب الإيمان (٢/ ٥٤١) برقم(٢٦٥١)، المرشد الوجيز (٢٠٨).

(٤) حلية الأولياء (١/ ٧٧)، مختصر قيام الليل (١٤٨).

يتلون كتاب الله، يراوحون بين جباههم وأقدامهم، فإذا أصبحوا فذكروا الله ماداوا كما تميد الشجرة في يوم الريح، وهملت أعينهم حتى تبل ثيابهم، والله لكأن القوم باتوا غافلين)[1].

ومثله روي عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: (كنا صدر هذه الأمة وكان الرجل من خيار أصحاب رسول الله ﷺ ما معه إلا السورة من القرآن أو شبه ذلك، وكان القرآن ثقيلاً عليهم ورزقوا العمل به، وإن آخر هذه الأمة يخفف عليهم القرآن حتى يقرأه الصبي والأعجمي فلا يعملون به)[2]، وقال أيضًا: (لقد عشنا دهرًا طويلاً وأحدنا يؤتى الإيمان قبل القرآن، فتنزل السورة على محمد ﷺ فيتعلم حلالها وحرامها وآمرها وزاجرها وما ينبغي أن يقف عنده منها، ثم لقد رأيت رجالاً يؤتى أحدهم القرآن قبل الإيمان، فيقرأ ما بين فاتحة الكتاب إلى خاتمته لا يدري ما آمره ولا زاجره، وما ينبغي أن يقف عنده منه، ينثره نثر الدقل)[3].

وبهذا كانوا يرشدون من سألهم ويعلمونه الصواب مع كتاب الله عزَّ وجلَّ، فعن أبي جمرة الضبعي قال: (قلت لابن عباس: إني سريع القراءة، إني أقرأ القرآن في ثلاث، فقال: لأن أقرأ البقرة في ليلة فأتدبرها وأرتلها أحب إلي من أن أقرأ كما تقول)، وفي رواية قال: (لأن أقرأ البقرة في ليلة وأتفكر

---

(١) حلية الأولياء (١/ ٧٦).

(٢) أخلاق حملة القرآن (٤٩).

(٣) الطبقات الكبرى (٣/ ١٢٠)، المستدرك (١/ ٩١)، المعجم الأوسط (١/ ١٦٥)، وقال الهيثمي: رجاله رجال الصحيح، مجمع الزوائد (١/ ١٦٥).

فيها أحب إلي من أن أقرأ القرآن هذرمة)[١].

وعن أبي الزاهرية أن رجلاً أتى بابنه أبا الدرداء ﷺ فقال: (يا أبا الدرداء إن ابني هذا قد جمع القرآن، فقال: اللهم غفرًا، إنما جمع القرآن من سمع له وأطاع)[٢]، وهذا من أبي الدرداء ﷺ إرشاد إلى الأكمل وتنبيه إلى الواجب، وإلا فإن تلاوة القرآن وحفظه مرغب فيه، مأجور عليه صاحبه، وعن عبيد المكتب قال: (قلت لمجاهد: رجل قرأ البقرة وآل عمران، ورجل قرأ البقرة، قيامهما واحد، وركوعهما واحد، وسجودهما واحد، وجلوسهما واحد، أيهما أفضل؟ فقال: الذي قرأ البقرة، ثم قرأ: (﴿ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴾ [الإسراء: ١٠٦][٣].

ومثله ما روي عن محمد بن كعب القرظي قال: (لأن أقرأ في ليلة حتى أصبح (﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴾ و﴿ ٱلْقَارِعَةُ ﴾ لا أزيد عليهما، وأتردد فيهما وأتفكر أحب إلي من أن أهدر القرآن هدرًا)، أو قال (أنثره نثرًا)[٤].

كما كانوا يتواصون به ويمحضون النصيحة فيه، ويتعاونون على تحقيقه والقيام به، هكذا كان هديهم ومنهجهم؛ يقول الإمام الأوزاعي (كان يقال: خمس كان عليها أصحاب رسول الله ﷺ والتابعون بإحسان، لزوم

(١) فضائل القرآن لأبي عبيد (٧٤)، أخلاق حملة القرآن (٨٢)، الدر المنثور (٦/ ٢٧٧).

(٢) فضائل القرآن لأبي عبيد (٦٢)، المرشد الوجيز (١٩٤).

(٣) فضائل القرآن لأبي عبيد (٧٥)، أخلاق حملة القرآن (٨٣).

(٤) حلية الأولياء (٣/ ٢١٤)، المصنف لابن أبي شيبة (١٠/ ٥٢٦).

الجماعة واتباع السنة وعمارة المسجد وتلاوة القرآن والجهاد في سبيل الله)[١].

وقال عبد الله بن عون (ثلاث أرضاها لنفسي ولإخواني، أن ينظر هذا الرجل المسلم القرآن فيتعلمه ويقرأه ويتدبره وينظر فيه، والثانية: أن ينظر ذاك الأثر والسنة فيسأل عنه ويتبعه جهده، والثالثة: أن يدع الناس إلا من خير)[٢].

ويرثي الحسن البصري حال بعض قراء زمانه الذين لم يتدبروا القرآن ولم يتأثروا به، فلا يُرى عليهم في خلق ولا عمل، حيث يقول: (إن هذا القرآن قرأه عبيد وصبيان لا علم لهم بتأويله، وما تدبر آياته إلا باتباعه، وما هو بحفظ حروفه وإضاعة حدوده، حتى إن أحدهم ليقول: لقد قرأت القرآن كله فما أسقطت منه حرفًا، وقد والله أسقطه كله، ما يُرى القرآن له في خلق ولا عمل، حتى إن أحدهم ليقول: إني لأقرأ السورة في نفس، والله ما هؤلاء بالقراء ولا العلماء ولا الحكماء ولا الورعة، متى كانت القراء تقول مثل هذا، لا كثَّر الله في الناس مثل هؤلاء)[٣]، وحكى حال المتأثرين حقًّا ممن سلف بقوله: (إنكم اتخذتم قراءة القرآن مراحل، وجعلتم الليل جملاً، فأنتم تركبونه تقطعون به مراحله، وإن من كان قبلكم رأوه رسائل من ربهم،

---

(١) حلية الأولياء (٦/ ١٤٢)، شعب الإيمان (٣/ ٧٩)، أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (١/ ٦٤)، التمهيد (٢١/ ٢٨٢).

(٢) حلية الأولياء (٣/ ٤١)، السنة للمروزي (١/ ٣٣).

(٣) أخلاق حملة القرآن (٥٠)، الزهد لابن المبارك (٢٧٤)، مختصر قيام الليل (٧٢)، المرشد الوجيز (٢٠٥).

فكانوا يتدبرونها بالليل وينفذونها بالنهار)(١)، وقال أيضًا: (والله ما أصبح اليوم عبد يتلو القرآن يؤمن به إلا كثر حزنه وقل فرحه وكثر بكاؤه وقل ضحكه، وكثر نصبه وشغله، وقلت راحته وبطالته)(٢).

وكان مالك بن دينار يقول (ما زرع القرآن في قلوبكم يا أهل القرآن؟ إن القرآن ربيع المؤمن كما أن الغيث ربيع الأرض)(٣).

وقال وهيب بن الورد: (نظرنا في هذه الأحاديث والمواعظ فلم نجد شيئًا أرق للقلوب ولا أشد استجلابًا للحزن من قراءة القرآن لمن تدبره)(٤).

وقد أبان ابن القيم أهمية التدبر والحاجة إليه وأثره في إصلاح الظاهر والباطن بقوله (فتبارك الذي جعل كلامه حياة للقلوب وشفاء لما في الصدور، وبالجملة فلا شيء أنفع للقلب من قراءة القرآن بالتدبر والتفكر، فإنه جامع لجميع منازل السائرين وأحوال العاملين ومقامات العارفين، وهو الذي يورث المحبة والشوق والخوف والرجاء والإنابة والتوكل والرضا والتفويض والشكر والصبر وسائر الأحوال التي بها حياة القلب وكماله، وكذلك يزجر عن جميع الصفات والأفعال المذمومة التي بها فساد القلب وهلاكه.

فلو علم الناس ما في قراءة القرآن بالتدبر لاشتغلوا بها عن كل ما سواها، فإذا قرأه بتفكر حتى إذا مر بآية وهو محتاج إليها في شفاء قلبه كررها

---

(١) المحرر الوجيز (١/ ١٢)، إحياء علوم الدين (١/ ٣٢٤).

(٢) حلية الأولياء (٢/ ١٣٣)، إحياء علوم الدين (١/ ٣٣٧).

(٣) حلية الأولياء (٢/ ٣٥٩).

(٤) حلية الأولياء (٨/ ١٤٢).

ولو مائة مرة ولو ليلة، فقراءة آية بتفكر وتفهم خير من قراءة ختمة بغير تدبر وتفهم، وأنفع للقلب وأدعى إلى حصول الإيمان وذوق حلاوة القرآن)[١]، وقال الإمام الآجري بعد أن ذكر قوله تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾ [النساء: ٨٢]، وقوله تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾ [محمد: ٢٤]: (ألا ترون رحمكم الله إلى مولاكم الكريم كيف يحث خلقه على أن يتدبروا كلامه، ومن تدبر كلامه عرف الرب عز وجل وعرف عظيم سلطانه وقدرته، وعرف عظيم تفضله على المؤمنين، وعرف ما عليه من فرض عبادته، فألزم نفسه الواجب، فحذر مما حذره مولاه الكريم، ورغب فيما رغبه فيه، ومن كانت هذه صفته عند تلاوته للقرآن وعند استماعه من غيره كان القرآن له شفاء، فاستغنى بلا مال وعزَّ بلا عشيرة، وأنس بما يستوحش منه غيره، وكان همه عند تلاوته السورة متى أتعظ بما أتلوه؟ ولم يكن مراده متى أختم السورة؟ وإنما مراده متى أعقل من الله الخطاب؟ متى أزدجر؟ متى أعتبر؟ لأن تلاوته للقرآن عبادة، والعبادة لا تكون بغفلة)[٢].

إن من حرم فهم القرآن وتدبر آياته فقد حرم لذته والانتفاع به، قال الإمام الزركشي: (ومن لم يكن له علم وفهم وتقوى وتدبر لم يدرك من لذة القرآن شيئًا)[٣].

---

(١) مفتاح دار السعادة (١/ ١٨١).

(٢) أخلاق حملة القرآن (١٨/ ١٩).

(٣) البرهان في علوم القرآن (٢/ ١٥٥).

المبحث الثاني

الإخلاص في التأثر بالقرآن والعمل به

فالإخلاص أساس صحة الأعمال والعبادات، وهو أحد شرطي قبول العمل، والآخر المتابعة، قال تعالى: ﴿ فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا ﴾ [الكهف: ١١٠]، فيجب على من أقبل على قراءة القرآن والاستماع له أن يخلص قصده لله في طلب تدبره وتفهمه والعمل به، ولن ينتفع قارئ القرآن بما يقرأ حتى يخلص النية فيه لله تعالى، يقول تعالى: ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ ﴾ [البينة: ٥]، وعن عمر بن الخطاب ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **"إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى"** الحديث[١].

وفي تعريف الإخلاص وبيان علاماته رُويت أقوال عن بعض أهل العلم، منها:

قول حذيفة المرعشي: (الإخلاص استواء أفعال العبد في الظاهر والباطن)، وقال الفضيل بن عياض: (ترك العمل لأجل الناس رياء، والعمل لأجل الناس شرك، والإخلاص أن يعافيك الله منهما).

وعن سهل التستري قال: (نظر الأكياس في تفسير الإخلاص فلم يجدوا غير هذا، أن تكون حركته وسكونه في سره وعلانيته لله تعالى وحده،

---

(١) رواه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ (١/ ٩) برقم(١)، ومسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب إنما الأعمال بالنية (١٣/ ٥٣)، عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

لا يمازجه شيء، لا نفس ولا هوى ولا دنيا).

وعن السري قال: (لا تعمل للناس شيئًا ولا تترك لهم شيئًا، ولا تغط لهم شيئًا ولا تكشف لهم شيئًا).

وقال ذو النون: (ثلاث من علامات الإخلاص، استواء المدح والذم من العامة، ونسيان رؤية العمل في الأعمال، واقتضاء ثواب الأعمال في الآخرة)(١).

فلا يكون قصده التعالي أو الشهرة أو المماراة أو التوصل إلى عَرَضٍ من مال أو ارتفاع على أقرانه أو ثناء الناس، قال تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْأَخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْأَخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾ [الشورى: ٢٠]، وقال تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا﴾ [الإسراء: ١٨]، وقال ﷺ: **"من تعلم علمًا مما يُبتغى به وجه الله تعالى لا يتعلمه إلا ليصيب به عرضًا من أعراض الدنيا لم يجد عرف الجنة يوم القيامة"**(٢).

وقال ﷺ: **"اقرءوا القرآن قبل أن يأتي قوم يقيمونه إقامة القدح يتعجلونه ولا يتأجلونه"**(٣)، المعنى: يتعجلون أجره إما بمال أو بسمعة أو نحوها.

---

(١) ينظر لهذه الأقوال وغيرها: التبيان في آداب حملة القرآن (٢٤ – ٢٥).

(٢) رواه أحمد في مسنده (٢/ ٣٣٨)، وأبوداود، كتاب العلم، باب في طلب العلم لغير الله (٣/ ٣٢٣) برقم(٣٦٦٤)، وابن ماجه، المقدمة، باب الانتفاع بالعلم والعمل به (١/ ٤٨) برقم(٢٥٢)، وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه.

(٣) رواه أحمد في مسنده (٣/ ٣٥٧، ٣٩٧)، وأبوداود، كتاب الصلاة، باب ما يجزئ الأمي والأعجمي من القراءة (١/ ٢٢٠) برقم(٨٣٠) عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما.

ومن أقوال السلف في الحث على الإخلاص والتحذير من ضده حال قراءة القرآن والعمل به قول عمر الفاروق ﷺ (لقد أتى علينا حينٌ وما نرى أن أحدًا يتعلم القرآن يريد به إلا الله، فلما كان هاهنا بأخرى خشيت أن رجالاً يتعلمونه يريدون به الناس وما عندهم، فأريدوا الله بقراءتكم وأعمالكم)(١).

وعن الحسن البصري أنه قيل لعبد الله بن مسعود ﷺ في رجل قال: (قرأت البارحة كذا وكذا، فقال: حظه من قراءته كلامه، أو قال: ذلك حظه من قراءته)(٢).

ولما قال رجل لتميم الداري: (كم جزءًا تقرأ القرآن؟ غضب وقال: لعلك من الذين يقرأ أحدهم القرآن في ليلة، ثم يصبح فيقول: قرأت القرآن الليلة، فوالذي نفسي بيده لأن أصلي أربع ركعات نافلة أحب إلي من أن أقرأ القرآن في ليلة، ثم أصبح فأقول: قرأت القرآن الليلة)(٣).

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: (لو أن حملة القرآن أخذوه بحقه وما ينبغي له لأحبهم الله، ولكن طلبوا به الدنيا فأبغضهم الله وهانوا على الناس)(٤).

فإذا تسرب شيء من ذلك إلى نية القارئ أو السامع فليبادر بالتوبة والإنابة، وليبتدئ الإخلاص وليكن على حذر؛ لأن أول من تُسعَّر بهم النار

(١) أخلاق حملة القرآن (٤٦)، شعب الإيمان (٢/ ٥٣١)، برقم(٢٦١٩).

(٢) فضائل القرآن لأبي عبيد (٢٣٠).

(٣) فضائل القرآن لأبي عبيد (٢٢٩)، صفة الصفوة (١/ ٧٣٩).

(٤) الجامع لأحكام القرآن (١/ ٢٠).

ثلاثة منهم: "**رجل تعلم القرآن وعلمه وقرأ القرآن فأتي به فعرفه نعمه فعرفها، قال: ما عملت فيها؟، تعلمت العلم وعلمته، وقرأت فيك القرآن، قال: كذبت، ولكن تعلمت العلم ليقال: هو عالم، وقرأت القرآن ليقال: هو قارئ، فقد قيل، ثم أمر به، فسحب على وجهه حتى ألقي في النار**..." الحديث[1].

إن أهم ما يُوصى به الراجي بركة القرآن ونفعه الإخلاص وإخفاء العمل والتأثر به وبخاصة البكاء عند تلاوته أو سماعه، وهكذا كان سلفنا الصالح رحمهم الله، يحكي حالهم الحسن البصري بقوله: (إن كان الرجل ليجلس المجلس فتجيئه العبرة - أي الدمعة - فيرددها، فإذا خشي أن تسبقه قام)[2]. وقال أيضًا: (إن الله يعلم القلب التقي والدعاء الخفي، إن كان الرجل قد جمع القرآن - أي: حفظه وقرأه - وما يشعر به جاره، وإن كان الرجل لقد فقه الفقه الكثير ولا يشعر به الناس، وإن كان الرجل ليصلي الصلاة الطويلة وعنده الزور - جمع زائر - وما يشعر به، ولقد أدركنا أقوامًا ما كان على الأرض من عمل يقدرون على أن يعملوه في السر فيكون علانية أبدًا، ولقد كان المسلمون يجتهدون في الدعاء وما يسمع لهم صوت، إن كان إلا همسًا بينهم وبين ربهم، وذلك أن الله تعالى يقول: ﴿ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ﴾ [الأعراف: ٥٥]، وقد أثنى الله على زكريا فقال: ﴿ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً

---

(١) رواه مسلم، كتاب الإمارة، باب من قاتل للرياء والسمعة استحق النار (١٣/ ٥٠)، عن أبي هريرة ﷺ.

(٢) الزهد لابن أبي عاصم (١/ ٢٦٢).

خَفِيًّا﴾ [مريم: ٣]، وبين دعوة السر ودعوة العلانية سبعون ضعفًا)[١]، ولما قيل له: ما عقوبة العالم؟ قال: (موت القلب، قيل: وما موت القلب؟ قال: طلب الدنيا بعمل الآخرة)[٢].

ويحكي تلك الحال عنهم أبو التياح يزيد بن حميد الضبعي بقوله: (أدركت أبي ومشيخة الحي إذا صام أحدهم ادهن ولبس صالح ثيابه، ولقد أدركت الرجل يقرأ عشرين سنة ما يعلم به جيرانه)[٣].

ويحكي حالهم أيضًا محمد بن واسع فيقول: (لقد أدركت رجالاً، كان الرجل يكون رأسه مع رأس امرأته على وسادة واحدة، قد بلّ ما تحت خده من دموعه لا تشعر به امرأته، ولقد أدركت رجالاً يقوم أحدهم في الصف فتسيل دموعه على خده ولا يشعر به الذي إلى جانبه)[٤].

وكان رحمه الله من أولئك، يقول أبو الطيب موسى بن بشار (صحبت محمد بن واسع من مكة إلى البصرة، فكان يصلي الليل في المحمل جالسًا يومئ برأسه إيماء، وكان يأمر الحادي يكون خلفه يرفع صوته حتى لا يفطن له)[٥].

---

(١) تفسير الطبري (١٠/ ٢٤٨)، الزهد لابن المبارك (١٤٠)، الدر المنثور (٣/ ٩٢).

(٢) الزهد لابن المبارك (١/ ٥٣٢)، شعب الإيمان (٢/ ٢٩٦).

(٣) حلية الأولياء (٣/ ٨٢)، شعب الإيمان (٥/ ٣٥٢)، مسند ابن الجعد (١/ ٢١٤).

(٤) حلية الأولياء (٢/ ٣٤٧).

(٥) حلية الأولياء (٢/ ٣٤٦).

ومن صور إخلاصهم ما ذكره سفيان قال: (أخبرتني أمة الربيع بن خثيم قالت: كان عمل الربيع كله سرًّا، إن كان ليجيء الرجل وقد نشر المصحف فيغطيه بثوبه، وكان رحمه الله يبكي حتى تبل لحيته دموعه، ويقول: أدركنا أقوامًا كنا في جنبهم لصوصًا)(١).

وأيضًا ما رواه عاصم بن بهدلة قال: (كان أبو وائل – شقيق بن سلمة – إذا صلى في بيته ينشج نشيجًا، لو جعلت له الدنيا على أن يفعله وأحد يراه ما فعله)(٢).

ومن ذلك قول محمد بن خالد الضبي: (لم يكن يُدرى كيف يقرأ خيثمة بن عبد الرحمن القرآن حتى مرض، فجاءته امرأته فجلست بين يديه فبكت، فقال لها: ما يبكيك؟ الموت لابد منه، فقالت له امرأته: الرجال بعدك علي حرام، فقال لها خيثمة: ما كل هذا أردت منك، إنما كنت أخاف رجلاً واحدًا، وهو أخي محمد بن عبد الرحمن، وهو رجل فاسق يتناول الشراب، فكرهت أن يشرب في بيتي الشراب، بعد إذ القرآن يتلى فيه في كل ثلاث)(٣)، فعلم بذلك أنه كان يختم القرآن كل ثلاث ليال.

وكان عمرو بن قيس الملائي: (إذا بكى حول وجهه إلى الحائط، ويقول لأصحابه: إن هذا لزكام)(٤).

---

(١) حلية الأولياء (٢/ ١٠٧ – ١٠٨).

(٢) حلية الأولياء (٤/ ١٠١)، الزهد لابن أبي عاصم (١/ ٣٥٨).

(٣) حلية الأولياء (٤/ ١١٥)، صفة الصفوة (٣/ ٩٤).

(٤) حلية الأولياء (٥/ ١٠٣).

ومن ذلك أيضًا ما جاء في سيرة أيوب السختياني (من أنه كان يقوم من الليل ما كتب له فيخفي ذلك، فإذا كان عند الصبح رفع صوته كأنه قام تلك الساعة).

وعن حماد بن زيد قال: (كان أيوب في مجلس فجاءته عبرة، فجعل يمتخط ويقول: ما أشد الزكام)، وغلبه البكاء مرة فقال (الشيخ إذا كبر مج) أي: لا يستطيع حبس ريقه، ومن بُعده عن الشهرة وهروبه منها ما رواه شعبة عنه بقوله: (ربما ذهبت مع أيوب لحاجة، فلا يدعني أمشي معه، ويخرج من هاهنا وهاهنا، لكي لا يفطن له)، وكان يقول: (ذُكرت ولا أحب أن أذكر)[1].

ومن أمثلة هروب أئمة سلفنا الصالح من الشهرة وحرصهم على عدم صرف أنظار الناس إليهم، ما كان عليه الإمام أحمد، يقول عبيد القارئ: (كان أحمد إذا رأيته تعلم أنه لا يظهر النسك، رأيت عليه نعلاً لا يشبه نعال القراء، ورأيت عليه إزارًا وجبة برد مخططة)[2] أي: لم يكن بزي القراء.

ومن صور إخلاصهم العمل لله عزَّ وجلَّ ما رواه عاصم بن أبي بكر ابن عبد العزيز بن مروان قال (وفدت على سليمان بن عبد الملك، فنزلت على عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز وهو عزب، فكنت معه في بيته فصلينا

---

(١) ينظر لما سبق سير أعلام النبلاء (٦/ ١٧ – ٢٢)، صفة الصفوة (٣/ ٢٩٢ – ٢٩٥).

(٢) سير أعلام النبلاء (١١/ ٢٠٧).

العشاء وأوى كل رجل منا إلى فراشه، ثم قام عبد الملك إلى المصباح فأطفأه وأنا أنظر إليه، ثم قام يصلي حتى ذهب بي النوم، فاستيقظت وإذا هو في هذه الآية ﴿ أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ ﴾ [الشعراء: ٢٠٥ – ٢٠٧]. فبكى ثم رجع إليها، فإذا فرغ منها فعل مثل ذلك، حتى قلت: سيقتله البكاء، فلما رأيت ذلك قلت: لا إله إلا الله والحمد لله، كالمستيقظ من النوم لأقطع ذلك عنه، فلما سمعني سكت فلم أسمع له حسًّا)[١].

وعن الأعمش قال: (كنت عند إبراهيم – النخعي – وهو يقرأ في المصحف، فاستأذن عليه رجل فغطى المصحف، وقال: لا يراني هذا أني أقرأ فيه كل ساعة)[٢].

لذا فقد حذر أهل العلم من الرياء وطلب السمعة والشهرة وصرف الأنظار إليه، وبخاصة مع القرآن الكريم، يقول أيوب السختياني: (ما صدق عبد قط فأحب الشهرة)[٣].

ويقول الآجري في وصف مَن هذه حاله: (ليس له خشوع فيظهر على جوارحه، إذا درس القرآن أو درسه عليه غيره همته متى يقطع، ليس همته متى يفهم، لا يتفكر عند التلاوة بضروب أمثال القرآن، ولا يقف عند

(١) المنتظم لابن الجوزي (٧/ ٥٩).

(٢) حلية الأولياء (٤/ ٢٢٠)، مصنف ابن أبي شيبة (١٠/ ٥٣٢).

(٣) حلية الأولياء (٣/ ٦).

الوعد والوعيد، يأخذ نفسه برضى المخلوقين، ولا يبالي بسخط رب العالمين، يحب أن يعرف بكثرة الدرس، ويظهر ختمه للقرآن ليحظى عندهم، قد فتنه حسن ثناء الجهلة من جهله، يفرح بمدح الباطل وأعماله أعمال أهل الجهل، ومن كانت هذه صفته فقد تعرض لسخط مولاه الكريم)[1].

ولا شك أن تحقيق الإخلاص يحتاج إلى مجاهدة ومصابرة، يقول سفيان بن عيينة: (اثنتان أنا أعالجهما منذ ثلاثين سنة، ترك الطمع فيما بيني وبين الناس، وإخلاص العمل لله عزَّ وجلَّ)[2].

* * *

(١) أخلاق حملة القرآن (٤٤ – ٤٥).

(٢) حلية الأولياء (٧/ ٢٧١).

المبحث الثالث

أسباب التأثر بالقرآن

بين ربنا عزَّ وجل الصنف الذي ينتفع بالقرآن ويتأثر به، فقال سبحانه: ﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الذاريات: ٥٥]، والذكرى هي الوحي والقرآن، كما قال تعالى: ﴿ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الأعراف: ٢]، وقال تعالى: ﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [هود: ١٢٠]، فالقرآن لا ينتفع به من جميع الوجوه إلا المؤمن الذي استكمل شروط التأثر به، وابتعد عن الموانع والصوارف التي تحول بينه وبين ذلك، ومن فقد شرطًا من هذه الشروط أو حصل له مانع لم ينتفع بالقرآن.

وقد جاء في القرآن والسنة ذكر تلك الشروط والحث على استيفائها وتحقيقها، وبيان الموانع والتحذير من الوقوع فيها، وفي كلام سلفنا الصالح رحمهم الله تعالى وأحوالهم بيان ذلك وتطبيقه، فمن تلك الشروط:

أولاً: الإيمان بالله تعالى وتعظيمه ومحبته:

فمتى آمن العبد بربه وعظمه أحبه ورجاه وخاف منه، ولا أدل على ذلك من تعظيمه القرآن الكريم ومحبته، القائم على الإيمان به، واعتقاد أنه لا نجاح ولا فلاح إلا في التمسك به والسير على نهجه والتزام طريقه، يقول عبد الله بن مسعود رضي الله عنه (لا يسأل عبد نفسه إلا القرآن، فإن كان يحب القرآن

فإنه يحب الله ورسوله)(١)، وفي رواية قال: (من كان يحب أن يعلم أنه يحب الله عزَّ وجلَّ فليعرض نفسه على القرآن، فمن أحب القرآن فهو يحب الله عزَّ وجلَّ، فإنما القرآن كلام الله عزَّ وجلَّ)(٢).

وقال سفيان بن عيينة: (لا تبلغوا ذروة هذا الأمر حتى لا يكون شيء أحب إليكم من الله عزَّ وجلَّ، فمن أحب القرآن فقد أحب الله عزَّ وجلَّ)(٣).

وقال سهل بن عبد الله: (حب الله عزَّ وجلَّ حب القرآن، وحب رسول الله ﷺ العمل بسنته)(٤).

وكان عكرمة بن أبي جهل رضي الله عنه إذا نشر المصحف غشي عليه ويقول: (هو كلام ربي، هو كلام ربي)(٥).

وهذا الإيمان هو الذي دفع الصحابة ومن تبعهم بإحسان - رحمه الله الجميع - لتحقيق العمل بالقرآن والتأثر به، وإلى هذا أشار ابن عمر رضي الله عنهما حاكيًا حال الصحابة رضي الله عنهم بقوله (لقد عشنا دهرًا طويلاً وأحدنا يؤتى الإيمان قبل القرآن، فتنزل السورة على محمد ﷺ، فيتعلم حلالها

---

(١) فضائل القرآن لأبي عبيد (٢١)، سنن سعيد بن منصور (١/ ١٠)، الزهد لابن المبارك (١/ ٣٨٨)، المعجم الكبير (٩/ ١٣٢) شعب الإيمان (٢/ ٣٥٣).

(٢) الزهد لابن المبارك (١/ ١٣)، السنة لعبد الله بن الإمام أحمد (١/ ١٤٨).

(٣) استنشاق نسيم الأنس (٦٩).

(٤) الجامع لأحكام القرآن (٤/ ٦٠)، فيض القدير (٢/ ٦٦).

(٥) سنن الدارمي (٢/ ٥٣٢)، المستدرك (٣/ ٢٧١)، المعجم الكبير (١٧/ ٣٧١)، السنة لعبد الله (١/ ١٤١).

وحرامها وآمرها وزاجرها وما ينبغي أن يقف عنده منها، ثم لقد رأيت رجالاً يؤتى أحدهم القرآن قبل الإيمان، فيقرأ ما بين فاتحة الكتاب إلى خاتمته، لا يدري ما آمره ولا زاجره، ولا ما ينبغي أن يقف عنده منه، ينثره نثر الدقل).

ونقل ذلك عنهم تلاميذهم، يقول أبو عبد الرحمن عبد الله بن حبيب السلمي: (حدثنا الذين كانوا يقرئوننا القرآن كعثمان بن عفان وعبد الله بن مسعود وغيرهما رضي الله عنهم أنهم كانوا إذا تعلموا من رسول الله ﷺ عشر آيات لم يجاوزوها حتى يتعلموا ما فيها من العلم والعمل، قالوا: فتعلمنا القرآن والعلم والعمل جميعًا)[1].

فما تلذذ المتلذذون وما تنعم المتنعمون بمثل ما يتنعم به متدبرو القرآن، فلذة المحبين بكلام محبوبهم، فهو غذاء قلوبهم وغاية مطلوبهم، ولا يتأتى هذا إلا بالاعتقاد السليم تجاه القرآن، اعتقاد السلف الصالح رحمهم الله تعالى، وهو أن القرآن الكريم كلام الله تعالى منزل غير مخلوق، وأنه سور وآيات وحروف وكلمات، متلو مسموع مكتوب، وأي اعتقاد باطل غير هذا فإنه يحرم صاحبه الانتفاع بالقرآن، ومن أمثلة تلك الاعتقادات الباطلة اعتقاد أن القرآن عبارة عن كلام الله أو حكاية أو أنه مخلوق، أو غير ذلك من ترهات أهل الكلام الذين أبعدهم الله بضلالهم عن فهم القرآن وتدبره، قال الإمام الغزالي: (فتعظيم الكلام تعظيم المتكلم، ولن تحضره عظمة

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية (١٣/ ٣٣١).

المتكلم ما لم يتفكر في صفاته وجلاله وأفعاله، فإذا حضر بباله العرش والكرسي والسموات والأرض وما بينهما من الجن والإنس والدواب والأشجار، علم أن الخالق لجميعها والقادر عليها والرازق لها واحد، وأن الكل في قبضة قدرته، مترددون بين فضله ورحمته وبين نقمته وسطوته، إن أنعم فبفضله وإن عاقب فبعدله، وأنه الذي يقول: هؤلاء إلى الجنة ولا أبالي وهؤلاء إلى النار ولا أبالي، وهذا غاية العظمة والتعالي، فبالتفكر في أمثال هذا يحضر تعظيم المتكلم ثم تعظيم الكلام)[1].

وقال ابن قدامة: (ينبغي لتالي القرآن العظيم أن ينظر كيف لطف الله تعالى بخلقه في إيصال معاني كلامه إلى أفهامهم، وأن يعلم أن ما يقرؤه ليس من كلام البشر، وأن يستحضر عظمة المتكلم سبحانه ويتدبر كلامه)[2].

ثانيًا: حياة القلب وطهارته وحضوره:

القلب الحي بالإيمان المتعلق بالله سبحانه الطاهر من علائق الدنيا وشهواتها، الحاضر الذي لم يشغله شاغل أو يصرفه صارف هو المنتفع بالقرآن المتأثر به حقًّا، وهو المحل القابل للبشارة والنذارة، يعقل ويتدبر، يعي ويتعظ بآيات الله حين يتلوها أو تتلى عليه، كما قال تعالى: ﴿ وَمَا عَلَّمْنَـٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾ [يس: ٦٩ - ٧٠].

---

(١) إحياء علوم الدين (١/ ٣٣٢).

(٢) مختصر منهاج القاصدين (٥٣).

قال قتادة في الآية: (حي القلب حي البصر)، وقال الضحاك في الآية (عاقلاً)[1].

وكقوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ [ق: ٣٧]، قال مجاهد في قوله ﴿ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ ﴾: (لا يحدث نفسه بغيره، ﴿ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ قال: شاهد القلب)[2]، وقال محمد بن كعب في الآية (يستمع وقلبه شاهد، لا يكون قلبه في مكان آخر)[3]، ولذلك لما قيل لبعضهم (إذا قرأت القرآن تحدث نفسك بشيء،فقال:أي شيء أحب إلي من القرآن حتى أحدث به نفسي)[4].

وقد أبان ابن القيم ما دلت عليه الآية بقوله: (إذا أردت الانتفاع بالقرآن فاجمع قلبك عند تلاوته وسماعه وألق سمعك، واحضر حضور من يخاطبه به من تكلم به سبحانه منه إليه، فإنه خطاب منه لك على لسان رسوله عليه الصلاة والسلام، قال تعالى: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ ، وذلك أن تمام التأثير لما كان موقوفًا على مؤثر مقتض ومحل قابل وشرط لحصول الأثر وانتفاء المانع الذي يمنع منه، تضمنت الآية بيان ذلك كله، فإذا حصل المؤثر وهو القرآن، والمحل

(١) ينظر لهما: تفسير الطبري (١٩/ ٤٨١)، الدر المنثور (١٢/ ٣٧٥).

(٢) تفسير الطبري (٢١/ ٤٦٣)، الدر المنثور (١٣/ ٦٥٣ - ٦٥٤).

(٣) حلية الأولياء (٣/ ٢١٦).

(٤) إحياء علوم الدين (١/ ٢٠٢).

القابل وهو القلب الحي، ووجد الشرط وهو الإصغاء، وانتفى المانع وهو اشتغال القلب وذهوله عن معنى الخطاب وانصرافه عنه إلى شيء آخر حصل الأثر، وهو الانتفاع والتذكر)[1].

وقال في موضع آخر: والناس ثلاثة:

رجل قلبه ميت، فذلك الذي لا قلب له، فهذا ليست هذه الآية ذكرى في حقه.

الثاني: رجل له قلب حي مستعد، لكنه غير مستمع للآيات المتلوة، التي يخبر بها الله عن الآيات المشهودة إما لعدم ورودها، أو لوصولها إليه ولكن قلبه مشغول عنها بغيرها، فهو غائب القلب ليس حاضرًا، فهذا أيضًا لا تحصل له الذكرى مع استعداده ووجود قلبه.

الثالث: رجل حي القلب مستعد، تليت عليه الآيات، فأصغى بسمعه وألقى السمع وأحضر قلبه، ولم يشغله بغير فهم ما يسمعه، فهو شاهد القلب ملق السمع، فهذا القسم هو الذي ينتفع بالآيات المتلوة والمشهودة)[2].

ولن يتم ما سبق حتى يتم تطهير القلب من علائق الدنيا وتفريغه من شهواتها، كما قال عثمان ﷺ (لو طهرت قلوبنا ما شبعنا من كلام الله عزَّ وجلَّ)[3]، وهذا الأمر ناشئ عن الذي قبله من تعظيم الله عزَّ وجلَّ

---

(١) الفوائد (٣).

(٢) مدارج السالكين (١/ ٤٤٢).

(٣) الزهد لأحمد (١٨٨).

وإجلاله وخشيته ومحبته بكل القلب، فإن المعظم للكلام الذي يتلوه يستبشر به ويستأنس ولا يغفل عنه، ففي كلام الله عزَّ وجلَّ ما يأنس به القلب وينشرح به الصدر وتزكو به النفس وتصلح به الحال الخاصة والعامة، إن كان التالي أو السامع أهلاً لذلك، ويصف الزركشي هذه الأهلية بقوله: (إذا كان العبد مصغيًا إلى كلام ربه، ملقي السمع، وهو شهيد القلب لمعاني صفات مخاطبه، ناظرًا إلى قدرته، تاركًا للمعهود من علمه ومعقوله، متبرئًا من حوله وقوته، معظمًا للمتكلم، مفتقرًا إلى التفهم، بحال مستقيم وقلب سليم وقوة علم، وتمكن سمع لفهم الخطاب، وشهادة غيب الجواب، بدعاء وتضرع وابتئاس وتمسكن، وانتظار للفتح عليه من عند الفتاح العليم)(١).

ثالثًا: حسن الاستماع والإنصات:

حيث جاء الأمر به في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ [ق: ٣٧]، فقوله: ﴿ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ ﴾ أي: أرسله كيما يحصل له الاستماع، كما قال تعالى: ﴿ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ ﴾ [الحاقة: ١٢]، وقد بيَّن جل وعلا أن القرآن شفاء ورحمة لمن تأثر به وانتفع، قال تعالى: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾ [الإسراء: ٨٢].

وفي موضع آخر من القرآن بيَّن تعالى كيفية نيل هذه الرحمة فقال: ﴿ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [الأعراف: ٢٠٤]،

---

(١) البرهان في علوم القرآن (٢/ ١٨١).

فالاستماع والإنصات هو السبيل لنيل الرحمة بالقرآن، وهو الذي يضمن للمؤمن الانتفاع به، فيجتنب الضحك واللغط واللغو والحديث حال القراءة حتى لا ينشغل عنها.

وهذا ما اعتنى به سلفنا الصالح، فقد كان عبد الله بن عمر رضي الله عنهما إذا قرأ القرآن لم يتكلم حتى يفرغ منه[(١)]، وكان عثمان بن زائدة إذا قرئ عليه القرآن غطى وجهه بثوبه، يتأول قول الله تعالى: ﴿ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [الأعراف: ٢٠٤][(٢)]، فيكره أن يشغل بصره وشيئًا من جوارحه عن سماع القرآن.

وقد جاء في سبب نزول الآية ما روي عن قتادة قال: (كانوا يتكلمون في الصلاة أول ما أمروا بها، كان الرجل يجيء وهم في الصلاة فيقول لصاحبه كم صليتم؟ فيقول كذا وكذا، فأنزل الله هذه الآية ﴿ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ ﴾ فأمروا بالاستماع والإنصات، علم أن الإنصات هو أحرى أن يستمع العبد ويعيه ويحفظه، علم أن لن يفقهوا حتى ينصتوا، والإنصات باللسان والاستماع بالأذنين)[(٣)].

قال النووي: (ويجتنب أيضًا ما يقع فيه بعض الغافلين حال القراءة

---

(١) رواه البخاري، كتاب التفسير، باب تفسير قوله تعالى: ﴿ نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ ﴾ (٨/ ١٨٩)، برقم(٤٥٢٦).

(٢) الدر المنثور (٣/ ٢٨٦).

(٣) تفسير الطبري (١٠/ ٦٦٢)، الدر المنثور (٣/ ٢٨٦).

من العبث باليد ونحوها، فإنه يناجي ربه، ومن ذلك النظر إلى ما يلهي ويشغل الذهن ويشوش الفكر فيجتنبه القارئ)[1]، وقال القرطبي (ومنها: -أي من الآداب التي تلزم القارئ - يستحب إذا أخذ في سورة لم يشتغل عنها حتى يفرغ منها إلا من ضرورة، وكذلك إذا أخذ في القراءة لم يقطعها ساعة فساعة، ولا يخللها بكلام الآدميين من غير ضرورة، فإن فيه استخفافًا بالقرآن، كما لو قطع مكالمة أحد فيحدث غيره ممن هو دونه، فإن فيه استخفافًا بذلك، ولأن في اتباع القرآن بعضه بعضًا بالقراءة من البهجة ما يظهر عند الاتباع ويخفى عند التقطيع، وفي التقطيع سلب زينة قراءة القرآن، فلذلك كان مكروهًا.

ومنها: ينبغي أن يخلو بقراءته حتى لا يقطع عليه أحد بكلام فيخلطه بجوابه، لأنه إذا فعل ذلك زال عنه سلطان الاستعاذة التي استعاذ بها في البدء، وقال يحيى بن معاذ الرازي: (أشتهي من الدنيا شيئين: بيتًا خاليًا، ومصحفًا جيد الخط أقرأ فيه القرآن)[2].

وفي معنى الاستماع يقول وهب بن منبه: (من أدب الاستماع سكون الجوارح وغض البصر والإصغاء بالسمع، وحضور العقل والعزم على العمل، وذلك هو الاستماع كما يحب الله تعالى، وهو أن يكف العبد جوارحه ولا يشغلها فيشتغل قلبه عما يسمع، ويغض طرفه فلا يلهو قلبه بما يرى،

(١) التبيان في آداب حملة القرآن (٧٢ – ٧٣).

(٢) التذكار في أفضل الأذكار (١٧٧ - ١٧٨).

ويحصر عقله فلا يحدث نفسه بشيء سوى ما يستمع إليه، ويعزم على أن يفهم فيعمل بما يفهم)[١].

وقال سفيان بن عيينة: (أول العلم الاستماع ثم الفهم ثم الحفظ ثم العمل ثم النشر)[٢].

يقول محمد رشيد رضا: (والاستماع أبلغ من السمع لأنه إنما يكون بقصد ونية وتوجيه الحاسة إلى الكلام لإدراكه، والسمع ما يحصل ولو بغير قصد، والإنصات السكوت لأجل الاستماع حتى لا يكون شاغلاً عن الإحاطة بكل ما يقرأ، فمن استمع وأنصت كان جديرًا بأن يفهم ويتدبر، وهو الذي يرجى أن يرحم)[٣]، وفي الجمع بين الفعلين: ﴿ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ ﴾ زيادة تأكيد وبيان، يقول ابن عاشور (والاستماع الإصغاء، وصيغة الافتعال دالة على المبالغة في الفعل، والإنصات الاستماع من ترك الكلام فهذا مؤكد.. مع زيادة معنى، وذلك مقابل قولهم ﴿ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ ﴾ ، فالاستماع والإنصات المأمور بهما هما المؤديان بالسامع إلى النظر والاستدلال والاهتداء بما يحتوي عليه القرآن من الدلالة على صدق الرسول ﷺ، المفضي إلى الإيمان به، ولما جاء به من إصلاح النفوس، فالأمر بالاستماع مقصود به التبليغ واستدعاء النظر والعمل بما فيه،

---

(١) الجامع لأحكام القرآن (١١/ ١٧٦).

(٢) حلية الأولياء (٧/ ٢٧٤)، شعب الإيمان (٢/ ٢٨٩)، الجامع لأحكام القرآن (١١/ ١٧٦).

(٣) تفسير المنار (٩/ ٥٥٢).

فالاستماع والإنصات مراتب بحسب مراتب المستمعين)[1].

ولما كان حسن الفهم والاتباع ينال بحسن الاستماع بعد توفيق الله وهدايته قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴾ [الزمر: ١٨]، وقال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا۟ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴾ [الفرقان: ٧٣]، وهذا بخلاف ما حكى الله عزَّ وجلَّ عن موقف الكفار من القرآن في مواضع، منها:

* **الأول**: قوله تعالى: ﴿ كِتَـٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَـٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٣ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴾ [فصلت: ٣- ٤]، وجاء بيان هذا وتفسيره في قوله تعالى: ﴿ ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ۝١ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ۝٢ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ ﴾ [الأنبياء: ١ – ٣]، فوسائل الانتفاع بالقرآن مفقودة في حقهم، ومن ذلك عدم الاستماع والإنصات له.

* **الثاني**: استكبارهم عن قبول الحق وأنفتهم منه، واعترافهم على أنفسهم بذلك، إذ لا قلب يعقل ولا أذن تسمع، قال تعالى: ﴿ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ ﴾ [فصلت: ٥]، قال ابن القيم في تفسير الآية: (فالحجاب يمنع من رؤية الحق،

---

(١) تفسير التحرير والتنوير (٩/ ٢٣٩).

والأكنة تمنع من فهمه، والوقر يمنع من سماعه)»[1]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ﴾ [الكهف: ٥٧]، فالقلب عليه غطاء والأذن فيها صمم، بل ﴿ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ ﴾، وما ذاك إلا ليصلوا بالنبي ﷺ إلى مرحلة اليأس منهم، حتى يكف عن دعوتهم وتلاوة القرآن عليهم.

* الثالث: ذكر الله عزَّ وجلَّ أصلاً من أصول الكفار الفاسدة التي وضعوها لأنفسهم وتواصوا فيما بينهم على تطبيقها، قال تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴾ [فصلت: ٢٦]، تواصوا فيما بينهم على عدم سماع القرآن، حفاظًا على باطلهم، لعلمهم أن أول الانتفاع بالقرآن إنما يكون بطريق سماعه والإنصات له، ولما علموا أن غيرهم سيسمع القرآن ويهتدي به تواصوا بأمر آخر، وهو قوله ﴿ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ ﴾، أي: حتى لا تعطوا فرصة لمن أراد أن يدخل في الدين ويهتدي إلى صراط الله المستقيم أن يستمع القرآن.

* الرابع: في بيان حال الكافر عند سماعه القرآن وإعراضه عنه واستكباره، يقول تعالى: ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِيٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [لقمان: ٧]، ويقول عزَّ وجلَّ: ﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ۝٧ يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا

---

(١) التفسير القيم (٣٤٧).

فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٨﴾ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا ﴾ [الجاثية: ٧ - ٩]، وهكذا كان حال الكفار المعاندين مع أنبيائهم، يقول تعالى حكاية عن نوح عليه السلام: ﴿ وَإِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا ﴾ [نوح: ٧].

وصنيع الكفار هذا سيندمون عليه أشد الندم في الآخرة، بيّن ذلك ربنا تبارك وتعالى بقوله: ﴿ وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [الملك: ٦]، إلى قوله ﴿ كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ ﴿٩﴾ وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾ فَٱعْتَرَفُوا۟ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ [الملك: ٨ - ١١]، فهذا بيان عاقبة أصلهم الفاسد الذي وضعوه لأنفسهم وتواصوا على التزامه، وهو عدم سماع كلام الله عزَّ وجلَّ، وقد سماه تعالى ذنبًا: ﴿ فَٱعْتَرَفُوا۟ بِذَنۢبِهِمْ ﴾.

وأي ذنب أعظم من إعراضهم عن آيات الله وتواصيهم بعدم سماع كلام الله تعالى، قال عزَّ وجلَّ: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ ۚ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴾ [السجدة: ٢٢]، فسماع القرآن بإصغاء وإنصات بداية الانتفاع والاستجابة، قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ ﴾ [الأنعام: ٣٦].

قال الطبري: (يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ لا يكبرن عليك

إعراض هؤلاء المعرضين عنك وعن الاستجابة لدعائك، إذا دعوتهم إلى توحيد ربهم والإقرار بنبوتك، فإنه لا يستجيب لدعائك إلى ما تدعوه إليه من ذلك إلا الذين فتح الله أسماعهم للإصغاء إلى الحق وسهل لهم اتباع الرشد، دون من ختم الله على سمعه، فلا يفقه من دعائك إياه إلى الله وإلى اتباع الحق إلا ما تفقه الأنعام من أصوات رعاتها، فهم كما وصفهم به الله تعالى ﴿ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة: ١٧١].

ثم روى عن قتادة قوله: ﴿ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ ﴾ قال: (هذا مثل المؤمن سمع كتاب الله فانتفع به وأخذ به وعقله، ﴿ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ ﴾ [الأنعام: ٣٩]، وهذا مثل الكافر أصم أبكم، لا يبصر هدى ولا ينتفع به)[١].

وقال القرطبي: قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ ﴾ (أي: سماع إصغاء وتفهم وإرادة الحق وهم المؤمنون، الذين يقبلون ما يسمعون فينتفعون به ويعملون، قال معناه الحسن ومجاهد)[٢].

وهذا لما أعرض الناس عن سماع القرآن حرموا الانتفاع به.

رابعًا: أن يقدر العبد ويعلم أنه المقصود بكل خطاب في القرآن:

فإن سمع أمرًا أو نهيًا قدر أنه المأمور والمنهي، وإن سمع وعدًا أو

(١) تفسير الطبري (٧/ ١٨٥ – ١٨٦).

(٢) الجامع لأحكام القرآن (٦/ ٤١٨).

وعيدًا قدر مثل ذلك، وإن سمع قصص الأنبياء والأولين علم أن المقصود أخذ العبرة والعظة، كما قال تعالى: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [يوسف: ١١١]، ولهذا كان عبد الله ابن مسعود ﷺ يقول: (إذا سمعت ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ فأرعها سمعك، فإنه خير يأمر به أو شر ينهى عنه)[١].

وروي عن بعض السلف قوله: (هذا القرآن رسائل أتتنا من قبل ربنا عزَّ وجلَّ بعهوده، نتدبرها في الصلوات، ونقف عليها في الخلوات، وننفذها في الطاعات والسنن المتبعات)[٢].

وقد أبان العلماء كيفية الوقوف على معاني القرآن والإفادة منه، يقول ابن قدامة: (وينبغي لتالي القرآن أن يعلم أنه مقصود بخطاب القرآن ووعيده، وأن القصص لَـمْ يُرد بها السمر بل العبر، فلينتبه لذلك، فحينئذ يتلو تلاوة عبد كاتَبَه سيدُه بمقصود، وليتأمل الكتاب ويعمل بمقتضاه... وينبغي أن يتبرأ من حوله وقوته، وأن لا يلتفت إلى نفسه بعين الرضى والتزكية، فإن من رأى نفسه بصورة التقصير كان ذلك سبب قربه)[٣].

---

(١) فضائل القرآن لأبي عبيد (٣١)، مسند أحمد (١/ ١٥٨)، الزهد لابن المبارك (١/ ١٣)، حلية الأولياء (١/ ١٣٠).

(٢) إحياء علوم الدين (١/ ٣٣٦).

(٣) مختصر منهاج القاصدين (٥٤).

وقال الغزالي: (ووجه إحضار الحزن أن يتأمل ما فيه من التهديد والوعيد والمواثيق والعهود، ثم يتأمل تقصيره في أوامره وزواجره، فيحزن لا محالة ويبكي، فإن لم يحضره حزن ولا بكاء كما يحضر أرباب القلوب الصافية فليبك على فقد الحزن والبكاء، فإن ذلك من أعظم المصائب)(١).

وقال أيضًا: (فتأثر العبد بالتلاوة أن يصير بصفة الآية المتلوة، فعند الوعيد وتقييد المغفرة بالشروط يتضاءل من خيفته كأنه يكاد يموت، وعند التوسع ووعد المغفرة يستبشر كأنه يطير من الفرح، وعند ذكر الله وصفاته وأسمائه يتطأطأ خضوعًا لجلاله واستشعارًا لعظمته، وعند ذكر الكفار ما يستحيل على الله عزَّ وجلَّ كذكرهم لله عزَّ وجلَّ ولدًا وصاحبة يغض صوته وينكسر في باطنه حياء قبح مقالتهم، وعند وصف الجنة ينبعث بباطنه شوقًا إليها، وعند وصف النار ترتعد فرائصه خوفًا منها)(٢).

وقال السيوطي في تفسير قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ [محمد: ٢٤].

(وصفة ذلك أن يشغل قلبه بالتفكر في معنى ما يلفظ به، فيعرض معنى كل آية، ويتأمل الأوامر والنواهي، ويعتقد قبول ذلك، فإن كان مما قصر عنه فيما مضى اعتذر واستغفر، وإذا مر بآية رحمة استبشر وسأل، أو عذاب أشفق وتعوذ، أو تنزيه نزه وعظم، أو دعاء تضرع وطلب)(٣).

---

(١) إحياء علوم الدين (١/ ٣٢٧).

(٢) إحياء علوم الدين (١/ ٣٣٧).

(٣) الإتقان (١/ ٣٠٠).

وعلى هذا فلا تقصر الآيات على قوم مضوا أو على أحوال خاصة انتهت، يقول ابن القيم بعد أن ذكر دلالة قوله تعالى: ﴿ قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [سبأ: ٢٢] على قطع أصول الشرك: (فكفى بهذه الآية نورًا وبرهانًا ونجاة وتجريدًا للتوحيد، وقطعًا لأصول الشرك ومواده لمن عقلها، والقرآن مملوء من أمثالها ونظائرها، ولكن أكثر الناس لا يشعرون بدخول الواقع تحته، وتضمنه له، ويظنونه في نوع وفي قوم قد خلوا من قبل ولم يعقبوا وارثًا، وهذا هو الذي يحول بين القلب وبين فهم القرآن)[١].

خامسًا: تحسين الصوت حال القراءة وترتيلها :

إن لحسن الصوت بتلاوة القرآن والعناية بترتيله تأثيره في النفوس، فتقبل عليه ولا تمل سماعه، كما أنه معين على التأثر والبكاء، وسبب للخشية ورقة القلب، ومعين على التدبر والتأمل في الآيات والنظر في معانيها والوقوف على هداياتها ودلالاتها، يقول الحافظ ابن حجر: (ولا شك أن النفوس تميل إلى سماع القرآن بالترنم أكثر من ميلها لمن لم يترنم، لأن للتطريب تأثيرًا في رقة القلب وإجراء الدمع،... والذي يتحصل من الأدلة أن حسن الصوت بالقرآن مطلوب، فإن لم يكن حسنًا فليحسِّنْه ما استطاع)[٢].

ومن أمثلة تأثير حسن صوت قارئ القرآن على الآخرين وإقبال

---

(١) مدارج السالكين (١/ ٣٤٣).

(٢) فتح الباري (٩/ ٧٢).

قلوبهم عليه وإنصاتهم له ما كان لجبير بن مطعم ﷺ حين سمع قراءة النبي ﷺ وكان أحسن الناس صوتًا حين كان يتلو سورة الطور، حتى بلغ قوله: ﴿ أَمْ خُلِقُواْ مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴾ [الطور: ٣٦] الآيات، قال جبير: (كاد قلبي أن يطير، وذلك أول ما وقر الإيمان في قلبي)(١)، وحق له أن يتأثر بقراءته التي يقول عنها البراء بن عازب ﷺ: (سمعت رسول الله ﷺ يقرأ في العشاء بـ ﴿ وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ﴾ فما سمعت أحدًا أحسن صوتًا منه أو قراءة) متفق عليه(٢).

ومن أمثلة ذلك في سير سلفنا الصالح ما جاء في سيرة الإمام المقريء يحيى بن وثاب الكوفي، فقد كان حسن الصوت بالقرآن، لا يسمعه أحد إلا أنصت له، متأثرًا بقراءته متدبرًا فيها، يقول الأعمش: (كان يحيى بن وثاب من أحسن الناس قراءة، ربما اشتهيت أن أقبل رأسه من حسن قراءته، وكان إذا قرأ لا تسمع في المسجد حركة، كأن ليس في المسجد أحد)(٣).

ومن ذلك ما جاء في سيرة داود الطائي، تقول إحدى نساء جيرانه: (كان بيننا وبين داود الطائي جدار قصير، فكنت أسمع حنينه عامة الليل لا

---

(١) رواه البخاري، كتاب التفسير، باب تفسير سورة الطور (٨/ ٦٠٣) برقم(٤٨٥٤) واللفظ له، ومسلم: كتاب الصلاة، باب القراءة في المغرب (٤/ ١٨٠).

(٢) رواه البخاري: كتاب الأذان، باب القراءة في العشاء (٢/ ٢٥١) برقم ٧٦٩، ومسلم: كتاب الصلاة، باب القراءة في العشاء (٤/ ١٨١).

(٣) سير أعلام النبلاء (٤/ ٣٨١)، معرفة القراء الكبار (٣٤).

يهدأ، ولربما ترنم في السحر بشيء من القرآن، فأرى أن جميع نعيم الدنيا جمع في ترنمه تلك الساعة)(١).

ولا شك أن قراءة القرآن آخر الليل مع الترتيل والتدبر لها شأن عظيم في التأثر بآيه والاسترواح إليها وعدم الملل منها، في هدأة الناس وسكون الأصوات، وصدق الله القائل: ﴿ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ هِيَ أَشَدُّ وَطۡـٔٗا وَأَقۡوَمُ قِيلاً ﴾ [المزمل: ٦]، قال أبو سليمان عبد الرحمن بن أحمد الداراني: (لأهلُ الطاعة في ليلهم ألذُّ من أهل اللهو بلهوهم)(٢).

ولأهمية ترتيل القرآن وتحسين الصوت حال تلاوته جاء الأمر بذلك والترغيب فيه والثناء على المعتنين به، قال تعالى: ﴿ وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلاً ﴾ [المزمل: ٤].

وعن عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: (يقال لصاحب القرآن: اقرأ ورتل كما كنت ترتل في الدنيا، فإن منزلتك عند آخر آية تقرؤها) رواه أحمد وأبوداود والترمذي(٣).

وعن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: (الماهر بالقرآن مع

---

(١) حلية الأولياء (٧/ ٣٥٦)، سير أعلام النبلاء (٧/ ٤٢٤).

(٢) صفة الصفوة (٤/ ٢٢٨).

(٣) رواه أحمد في مسنده (٢/ ١٩٢)، وأبوداود: كتاب الصلاة، باب استحباب الترتيل في القراءة (٢/ ٧٣)، برقم(١٤٦)، والترمذي: كتاب فضائل القرآن، باب رقم(١٨، ٥/ ١٧٧) برقم(٢٩١٤) وقال: حديث حسن صحيح.

السفرة الكرام البررة)[1]، قال النووي (الماهر: الحاذق الكامل الحافظ، الذي لا يتوقف ولا يشق عليه القراءة بجودة حفظه وإتقانه)[2].

وقال الحافظ ابن حجر (الماهر أي: الحاذق، والمراد هنا: جودة التلاوة مع حسن الحفظ)[3].

ويدل لهذا أيضًا ما ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة ﷺ قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: **"ما أذن الله لشيء ما أذن لنبي حسن الصوت يتغنى بالقرآن يجهر به"**[4].

وعن فضالة بن عبيد ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **"لله أشد أذنًا إلى الرجل حسن الصوت بالقرآن يجهر به من صاحب القينة إلى قينته"** رواه أحمد وابن ماجه[5]، قال الحافظ ابن كثير (ومعناه: أن الله تعالى ما استمع لشيء كاستماعه لقراءة نبي يجهر بقراءته ويحسنها، وذلك أنه يجتمع في قراءة

---

(١) رواه مسلم: كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضيلة حافظ القرآن (٦/ ٨٤).

(٢) شرح النووي على صحيح مسلم (٦/ ٨٤).

(٣) فتح الباري (١٣/ ٥١٨).

(٤) رواه البخاري: كتاب فضائل القرآن، باب من لم يتغن بالقرآن (٩/ ٦٨) برقم ٥٠٢٤)، ومسلم: كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب استحباب تحسين الصوت بالقرآن (٦/ ٧٩)، واللفظ له.

(٥) رواه أحمد في مسنده (٦/ ٢٠)، وابن ماجه، أبواب إقامة الصلاة، باب في حسن الصوت بالقرآن (١/ ٢٤٣)، برقم(١٣٣٤)، قال البوصيري في الزوائد (إسناده حسن) (١/ ٢٤١)، وقال ابن كثير في فضائل القرآن (سنده جيد) ٧٣.

الأنبياء طيب الصوت لكمال خلقهم وتمام الخشية، وذلك هو الغاية من ذلك، وهو سبحانه يسمع أصوات العباد كلهم برهم وفاجرهم)[(١)].

وفي الأمر أيضًا بتزيين الصوت وتحسينه حال التلاوة يقول عليه الصلاة والسلام: "**زينوا القرآن بأصواتكم**" رواه أبوداود والنسائي وغيرهما عن البراء بن عازب ﷺ[(٢)]، قال المناوي: (وفي أدائه بحسن الصوت وجودة الأداء بعث للقلوب على استماعه وتدبره والإصغاء إليه)[(٣)].

ومن أدلة فضل التحزن والخشوع بلا تكلف حال التلاوة ما رواه جابر ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: "**إن من أحسن الناس صوتًا بالقرآن الذي إذا سمعتموه يقرأ حسبتموه يخشى الله**" رواه ابن ماجه[(٤)].

وقد اعتنى الصحابة ومن بعدهم بترتيل القرآن وتحسين الصوت حال تلاوته والتزامه والوصية به والثناء على المعتنين به والاستماع منهم بلا تعسف ولا تكلف، علمًا منهم بأن ذلك معين على التدبر والتأثر والانتفاع

---

(١) فضائل القرآن (٧٣).

(٢) رواه أحمد في المسند (٤/ ٢٨٣)، وأبو عبيد في فضائل القرآن ص(٧٦)، وأبوداود في سننه: كتاب الصلاة، باب استحباب الترتيل في القراءة (٢/ ٧٤) برقم(١٤٦٨)، والنسائي في سننه: كتاب الافتتاح، باب تزيين القرآن بالصوت (٢/ ١٧٩)، وابن ماجه في سننه، باب ما جاء في قيام شهر رمضان، باب في حسن الصوت بالقرآن (١/ ٢٢٤)، برقم (١٣٤٢)، وصححه الألباني.

(٣) فيض القدير (٤/ ٦٨).

(٤) رواه الآجري في أخلاق حملة القرآن (٧٩)، وابن ماجه في سننه: أبواب إقامة الصلاة، باب في حسن الصوت بالقرآن (١/ ٢٢٤)، برقم(١١٠١)، وصححه الألباني بمجموع طرقه.

بآي الذكر الحكيم، يقول الإمام النووي: (أجمع العلماء رضي الله عنهم من السلف والخلف من الصحابة والتابعين ومن بعدهم من علماء الأمصار أئمة المسلمين على استحباب تحسين الصوت بالقرآن، وأقوالهم وأفعالهم مشهورة غاية الشهرة، فنحن مستغنون عن نقل شيء من أفرادها، ودلائل هذا من حديث رسول الله ﷺ مستفيضة عند العامة والخاصة)[١].

فقد كان عمر بن الخطاب ﷺ إذا جلس مع أصحابه طلب من أبي موسى الأشعري ﷺ وكان ممن أوتي حسن الصوت بالقراءة أن يقرأ عليهم، فيقول: (ذكرنا يا أبا موسى، فيقرأ عنده)[٢]، ولما قدم على معاوية رضي الله عنهما في دمشق ونزل في بعض دورها، خرج معاوية من الليل يستمع لقراءته[٣].

ومن الأئمة القراء الذين وهبهم الله حسن الصوت مع عنايتهم بترتيل القرآن علقمة بن قيس النخعي، وكان ابن مسعود ﷺ يجله ويقدره لأجل ذلك، يقول علقمة: (كنت رجلاً قد أعطاني الله حسن الصوت بالقرآن، وكان ابن مسعود يرسل إلي فأقرأ عليه، فإذا فرغت من قراءتي قال: زدنا فداك أبي وأمي)[٤].

قال النووي: (اعلم أن جماعات من السلف كانوا يطلبون من

---

(١) التبيان (٨٧ – ٨٨).

(٢) فضائل القرآن لأبي عبيد (٧٩)، حلية الأولياء (١/ ٢٥٨)، الطبقات الكبرى (٤/ ١٠٩).

(٣) سير أعلام النبلاء (٢/ ٣٨٢).

(٤) حلية الأولياء (٢/ ٩٩).

أصحاب القراءة بالأصوات الحسنة أن يقرؤوا وهم يستمعون، وهذا متفق على استحبابه، وهو عادة الأخيار والمتعبدين وعباد الله الصالحين، وهو سنة ثابتة عن رسول الله ﷺ، فقد صح عن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: قال لي رسول الله ﷺ: "**اقرأ علي القرآن**"، فقلت: يا رسول الله! أقرأ عليك وعليك أنزل؟ قال: "**إني أحب أن أسمعه من غيري**"، فقرأت عليه سورة النساء حتى إذا جئت إلى هذه الآية: ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴾ [النساء: ٤١]، قال: "**حسبك الآن**"، فالتفت فإذا عيناه تذرفان) رواه البخاري ومسلم[١] والآثار في هذا كثيرة ومعروفة)[٢].

ومن ذلك ما رواه عبد الرحمن بن السائب بن أبي نهيك المخزومي قال: (قدم علينا سعد بن أبي وقاص ﷺ وقد كف بصره، فأتيته مسلّمًا وانتسبني فانتسبت له، فقال: مرحبًا يا ابن أخي، بلغني أنك حسن الصوت بالقرآن، سمعت رسول الله ﷺ يقول: "**إن هذا القرآن نزل بحزن، فإذا قرأتموه فابكوا، فإن لم تبكوا فتباكوا، وتغنوا به، فمن لم يتغن به فليس منا**")[٣].

ومن ذلك ما رواه طلق بن حبيب العنزي قال: (أحسن الناس صوتًا

---

(١) رواه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل القرآن، باب البكاء عند قراءة القرآن (٩/ ٩٨)، برقم(٥٠٥٥)، ومسلم في صحيحه، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضل استماع القرآن (٦/ ٨٧).

(٢) التبيان: ٩٠ – ٩١.

(٣) رواه الآجري في أخلاق حملة القرآن (٨٠)، وابن ماجه في سننه: أبواب إقامة الصلاة، باب في حسن الصوت بالقرآن (١/ ٢٤٢ – ٢٤٣) برقم(١٣٣١)، وهو حديث ضعيف كما في مصباح الزجاجة للبوصيري (١/ ٢٤٠)، وأصله في الصحيحين من حديث أبي هريرة ﷺ.

بالقرآن الذي إذا قرأ رأيت أنه يخشى الله عزَّ وجلَّ[١].

وكان رحمه الله تعالى ممن امتثل هذا واعتنى به، فجمع بين ذلك وبين الوصية به والدعوة إليه، يقول طاووس بن كيسان اليماني: (ما رأيت أحدًا أحسن صوتًا منه، وكان ممن يخشى الله تعالى)[٢] وكان طاووس يقول: (أحسن الناس صوتًا بالقرآن أخشاهم لله تعالى)[٣]، وبهذا كان الثناء على بشر بن صالح المري، يقول ابن الأعرابي (كان الغالب على صالح كثرة الذكر والقراءة بالتحزين)[٤]. وقال ابن حبان: (كان من أحزن أهل البصرة صوتًا وأرقهم قراءة)[٥].

وقراءة القرآن بحزن معينة على التدبر والتأثر بما يقرأ قولاً وعملاً، وممن اشتهر بذلك الإمام عاصم بن بهدلة بن أبي النجود، فقد كثر عليه الثناء بذلك، قال مسلمة بن عاصم: (كان عاصم ذا أدب ونسك وفصاحة وصوت حسن)[٦].

وفي هذا المقام لابد من التنبيه على أن حسن الصوت نعمة من الله سبحانه، فكان لزامًا على من وهبت له أن يتقي الله عزَّ وجلَّ في ذلك، وأن

---

(١) حلية الأولياء (٣/ ٦٣).
(٢) سير أعلام النبلاء (٤/ ٦٠١).
(٣) فضائل القرآن لأبي عبيد (٨٠).
(٤) سير أعلام النبلاء (٨/ ٤٧).
(٥) المجروحين (١/ ٣٦٨).
(٦) سير أعلام النبلاء (٥/ ٢٥٩)، معرفة القراء الكبار (٥٣).

يقوم بحقها ويرعاها ويخلص لله فيها، يقول الإمام الآجري: (ينبغي لمن رزقه الله حسن الصوت بالقرآن أن يعلم بأن الله قد خصه بخير عظيم، فليعرف قدر ما خصه الله به، وليقرأ لله لا للمخلوقين، وليحذر من الميل إلى أن يستمع منه ليحظى به عند السامعين، رغبة في الدنيا والميل إلى حسن الثناء والجاه من أبناء الدنيا... فمن مالت نفسه إلى ما نهيته عنه خفت أن يكون حسن صوته فتنة عليه، وإنما ينفعه حسن صوته إذا خشي الله عزَّ وجلَّ في السر والعلانية، وكان مراده أن يستمع منه القرآن لينتبه أهل الغفلة من غفلتهم، فيرغبوا فيما رغبهم الله عزَّ وجلَّ وينتهوا عما نهاهم، فمن كانت هذه صفته انتفع بحسن صوته وانتفع به الناس)[1].

وفي مقابل الحث على ترتيل القرآن وتحسين الصوت حال تلاوته والعناية بذلك والوصية به والثناء على من اعتنى به، فقد حذر السلف من قراءة القرآن بالألحان المطربة والخروج بالقراءة إلى الطرق المبتدعة والأصوات المنغمة المحدثة، والتكلف في إخراج الحروف ونحو ذلك، فعن أنس بن مالك ﷺ أنه سمع رجلاً يقرأ بهذه الألحان التي أحدث الناس فأنكر ذلك ونهى عنه[2].

وقيل لورقاء بن إياس (كان سعيد بن جبير يصنع كما يصنع هؤلاء الأئمة اليوم، يطربون ويرددون؟ قال: معاذ الله، إلا أنه كان إذا مر على مثل هذه

(١) أخلاق حملة القرآن (٧٩)

(٢) فضائل القرآن لأبي عبيد (٨١)، فضائل القرآن لابن كثير (٨٠).

الآية ﴿إِذِ ٱلۡأَغۡلَٰلُ فِيٓ أَعۡنَٰقِهِمۡ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسۡحَبُونَ﴾ [غافر: ٧١]، مدَّها شيئًا[١].

وروي عن سعيد بن المسيب أنه سمع عمر بن عبد العزيز يؤم بالناس فطرب في قراءته، فأرسل إليه سعيد يقول: (أصلحك الله، إن الأئمة لا تقرأ هكذا، فترك عمر بعدُ التطريبَ)[٢].

وسئل مالك عن الألحان في الصلاة فقال: (لا يعجبني، إنما هو غناء يتمتعون به، أو قال: يتغنون به ليأخذوا عليه الدراهم)[٣].

قال الحافظ ابن كثير: (والغرض أن المطلوب شرعًا إنما هو التحسين بالصوت الباعث على تدبر القرآن وتفهمه، والخشوع والخضوع والانقياد للطاعة، فأما الأصوات بالنغمات المحدثة المركبة على الأوزان والأوضاع الملهية والقانون الموسيقائي فالقرآن ينزه عن هذا، ويجل ويعظم أن يسلك في أدائه هذا المذهب)[٤].

وقال الماوردي: (القراءة بالألحان الموضوعة إن أخرجت لفظ القرآن عن صيغته بإدخال حركات فيه أو إخراج حركات منه، أو قصر ممدود أو مد مقصور، أو تمطيط يخل به بعض اللفظ ويلتبس المعنى فهو حرام، يفسق به القارئ، ويأثم به المستمع، لأنه عدل به عن نهجه القويم إلى الاعوجاج،

---

(١) حلية الأولياء (٤/ ٢٧٣).

(٢) حلية الأولياء (٨/ ١٦٩).

(٣) التذكار (١٦١).

(٤) فضائل القرآن (٧٩).

والله تعالى يقول: ﴿ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ ﴾ [الزمر: ٢٨])[1].

وقال محمد بن أبي بكر المشهور بابن القيم: (وكل من له علم بأحوال السلف يعلم قطعًا أنهم برآء من القراءة بألحان الموسيقى المتكلفة، التي هي إيقاعات وحركات موزونة معدودة محدودة، وأنهم أتقى لله من أن يقرؤوا بها ويسوغوها)[2].

سادسًا: العلم بتفسير القرآن ومعرفة معانيه:

إذ لا بد للتأثر والانتفاع بما يتلوه من القرآن فهمُ معانيه والعلم بأحكامه ومعرفة تفسيره والوقوف على مراد الله منه، وهذا هو منهج النبي ﷺ الذي ربى عليه أصحابه وعلمه الصحابة من بعدهم، وسار عليه من رام الانتفاع بالقرآن والتأثر به، يقول أبو عبد الرحمن عبد الله بن حبيب السلمي: (حدثنا الذين كانوا يقرئوننا القرآن كعثمان بن عفان وعبد الله بن مسعود رضي الله عنهما وغيرهما أنهم كانوا إذا تعلموا من النبي ﷺ عشر آيات لم يجاوزوها حتى يتعلموا ما فيها من العلم والعمل، قالوا: فتعلمنا القرآن والعلم والعمل جميعًا)، وقال أبو وائل شقيق بن سلمة: قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: (كان الرجل منا إذا تعلم عشر آيات لم يجاوزهن حتى يعرف معانيهن والعمل بهن)[3].

---

(١) التبيان (٨٩).

(٢) زاد المعاد (١/ ٤٩٣).

(٣) تفسير الطبري (١/ ٨٠)، تفسير القرآن العظيم لابن كثير (١/ ٨).

لذا فقد جاء الترغيب في مدارسة القرآن وتعلمه ومعرفة معانيه والعلم بأحكامه، فعن أبي هريرة‌ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **"وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله، يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة وحفتهم الملائكة وذكرهم الله فيمن عنده"** رواه مسلم(١)، ومما روي عن السلف في ذلك ما جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦٩].

قال ابن عباس رضي الله عنهما: (المعرفة بالقرآن، ناسخه ومنسوخه، ومحكمه ومتشابهه، ومقدمه ومؤخره، وحلاله وحرامه وأمثاله)(٢). وعن قتادة ومجاهد وأبي العالية قالوا: (القرآن والفقه فيه)(٣)، وعن مجاهد قال: (أحب الخلق إلى الله أعلمهم بما نزل)(٤).

وقد أبان السلف رحمهم الله تعالى ثمرة العلم بتفسير القرآن وفهم آياته، وحذروا من الجهل بها والإعراض عن تعلمها، وأنه لا مساواة بين من اشتغل بتفسير القرآن واعتنى بفهم معانيه ومعرفة أحكامه وبذل الجهد في ذلك، ومن أعرض عن هذا العلم الشريف وزهد في معرفته، وإن كان يقرأ

---

(١) جزء من حديث رواه مسلم، كتاب الذكر والدعاء، باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر (١٧/ ٢١).

(٢) تفسير ابن أبي حاتم (٢/ ٥٣١)، تفسير الطبري (٥/ ٥٧٦).

(٣) تفسير ابن أبي حاتم (٢/ ٥٣١ – ٥٣٢)، تفسير الطبري (٥/ ٥٧٦ – ٥٧٧).

(٤) المحرر الوجيز (١/ ١٥)، الجامع لأحكام القرآن (١/ ٢٦).

القرآن ويحافظ على حزبه منه، يقول إياس بن معاوية المزني: (مثل الذين يقرؤون القرآن وهم لا يعلمون تفسيره كمثل قوم جاءهم كتاب من ملكهم ليلاً وليس عندهم مصباح فتداخلتهم روعة، لا يدرون ما في الكتاب، ومثل الذي يعرف التفسير كمثل رجل جاءهم بمصباح فقرؤوا ما في الكتاب)(١).

وقال سعيد بن جبير: (من قرأ القرآن ثم لم يفسره كان كالأعمى أو كالأعرابي)(٢)، ولهذا يقول القرطبي: (وينبغي له أن يتعلم أحكام القرآن، فيفهم عن الله مراده وما فرض عليه، فينتفع بما يقرأ ويعمل بما يتلو، فما أقبح لحامل القرآن أن يتلو فرائضه وأحكامه عن ظهر قلب وهو لا يفهم ما يتلو، فكيف يعمل بما لا يفهم معناه، وما أقبح أن يسأل عن فقه ما يتلوه ولا يدريه، فما مثل من هذه حالته إلا كمثل الحمار يحمل أسفارًا)(٣).

وكانوا يقدمون العلم بمعاني القرآن والعناية بتفسيره وفهم أوامره ونواهيه والعلم بحلاله وحرامه على غيره من العلوم الأخرى، بل كانوا يقدمونه على الإكثار من حفظه وتلاوته، يحكي حال أصحاب نبينا ﷺ عمر ابن الخطاب ﷺ فيقول: (لقد عشنا دهرًا طويلاً وأحدنا يؤتى الإيمان قبل القرآن، فتنزل السورة على محمد ﷺ، فيتعلم حلالها وحرامها وآمرها

---

(١) ينظر ما سبق.

(٢) تفسير الطبري (١/ ٨١).

(٣) الجامع لأحكام القرآن (١/ ٢١).

وزاجرها، وما ينبغي أن يقف عنده منها، ثم لقد رأيت رجالاً يؤتى أحدهم القرآن قبل الإيمان، فيقرأ ما بين فاتحة الكتاب إلى خاتمته، لا يدري ما آمره ولا زاجره، ولا ما ينبغي أن يقف عنده منه، ينثره نثر الدقل)(١)، لذا فقد روي عنه أنه تعلم البقرة في اثنتي عشرة سنة، فلما ختمها نحر جزورًا شكرًا لله(٢)، وروي أيضًا عن ابنه عبد الله ﷺ أنه مكث على سورة البقرة ثماني سنين يتعلمها، وكان يقول: (كان الفاضل من أصحاب رسول الله ﷺ في صدر هذه الأمة لا يحفظ من القرآن إلا السورة أو نحوها، ورزقوا العمل بالقرآن، وإن آخر هذه الأمة يقرؤون القرآن، منهم الصبي والأعمى ولا يرزقون العمل)(٣).

وصور حرصهم على طلب تفسير القرآن ومعرفة أحكامه وفهم آياته كثيرة، كلها تدل على قناعتهم بأن ذلك العلم وتلك المعرفة سبب رئيس في العمل بالقرآن والانتفاع به، وبهذا كان الثناء عليهم، يقول الشعبي: (ما رأيت قومًا قط أكثر علمًا ولا أعظم حلمًا ولا أكف عن الدنيا من أصحاب عبد الله، ولولا ما سبقهم به الصحابة ما قدمنا عليهم أحدًا)، وفي رواية: (ما رأيت قومًا أعظم أحلامًا ولا أكثر فقهًا ولا أكره لهذه الدنيا من قوم صحبوا عبد الله بن مسعود، ولولا الصحابة ما فضلت عليهم أحدًا)(٤).

---

(١) إحياء علوم الدين (١/ ٥٠٠).

(٢) الجامع لأحكام القرآن (١/ ٤٠).

(٣) الجامع لأحكام القرآن (١/ ٤٠)، الإتقان (٤/ ١٧٦).

(٤) حلية الأولياء (٤/ ١٧٠).

سابعًا: تدبر القرآن عند تلاوته أو سماعه وعدم العجلة عند قراءته طلبًا لختمه:

أخبر سبحانه وتعالى أنه أنزل القرآن ليتدبر ويتأمل في آياته، رجاء التأثر والانتفاع به، قال تعالى: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [ص: ٢٩]. قال الرازي: (فإن من لم يتدبر ولم يتأمل ولم يساعده التوفيق الإلهي لم يقف على هذه الأسرار العجيبة المذكورة في هذا القرآن العظيم)[١].

وأنكر سبحانه على الذين لا يتدبرون القرآن، قال تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾ [النساء: ٨٢].

قال الحافظ ابن كثير: (يقول تعالى آمرًا لهم بتدبر القرآن وناهيًا لهم عن الإعراض عنه وعن تفهم معانيه المحكمة وألفاظه البليغة، ومخبرًا لهم أنه لا اختلاف فيه ولا اضطراب ولا تعارض، لأنه تنزيل من حكيم حميد، فهو حق من حق)[٢].

وقال تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾ [محمد: ٢٤]، قال الإمام السعدي: (يأمر تعالى بتدبر كتابه وهو التأمل في معانيه وتحديق الفكر فيه وفي مبادئه وعواقبه ولوازم ذلك، فإن في تدبر كتاب الله

---

(١) التفسير الكبير (٢٦/ ٢٠٣).

(٢) تفسير القرآن العظيم (١/ ٥٢٩).

مفتاحًا للعلوم والمعارف، وبه يستنتج كل خير، وتستخرج منه جميع العلوم، وبه يزداد الإيمان في القلب وترسخ شجرته، فإنه يُعرف بالرب المعبود وما له من صفات الكمال، وما ينزه عنه من سمات النقص، ويُعرف الطريق الموصلة إليه وصفة أهلها وما لهم عند القدوم عليه، ويعرف العدو الذي هو العدو على الحقيقة، والطريق الموصلة إلى العذاب وصفة أهلها وما لهم عند وجود أسباب العقاب، وكلما ازداد العبد تأملاً فيه ازداد علمًا وعملاً وبصيرة، لذلك أمر الله بذلك وحث عليه وأخبر أنه هو المقصود بإنزال القرآن، كما قال تعالى: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [ص: ٢٩][١].

والقراءة السريعة تمنع من فهم القرآن وتحول بين القارئ وبين تدبر ما يقرأ، ولهذا قال تعالى: ﴿ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴾ [الإسراء: ١٠٦]. قال مجاهد: (على تؤدة)[٢].

وجاء الأمر بالترتيل في قوله تعالى: ﴿ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ﴾ [المزمل: ٤]، وقد فسره السلف كابن عباس ومجاهد وقتادة والحسن بأنه التبيين والترسل حال القراءة، بإبانة حروفه وإعطائها حقها، فلا يهذّه هذًّا ولا يسرده سردًا[٣].

فعن ابن أبي ذئب عن صالح قال: (كنت جارًا لابن عباس رضي الله

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (١٥٤).

(٢) تفسير الطبري (١٥/ ١١٩)، الدرر المنثور (٥/ ٣٤٦).

(٣) تفسير الطبري (٢٩/ ٨٠)، الدر المنثور (٣١٣ - ٣١٤).

عنهما، وكان يتهجد من الليل فيقرأ الآية ثم يسكت قدر ما حدثتك، وذاك طويل ثم يقرأ، قلت: لأي شيء فعل ذلك؟ قال: من أجل التأويل يفكر فيه)(١).

وهكذا كان ترتيله عليه الصلاة والسلام، فقد نعتت أم سلمة رضي الله عنها قراءته عليه الصلاة والسلام بأنها: (قراءة مفسرة، حرفًا حرفًا)(٢).

ووصفت عائشة رضي الله عنها ترتيله فقالت: (لو أراد السامع أن يعد حروفه لعدها، لا كسردكم هذا)(٣).

وفي حديث حفصة رضي الله عنها قالت: (كان النبي ﷺ يقرأ بالسورة حتى تكون أطول من أطول منها)(٤).

وفي بيان سنته عليه الصلاة والسلام حال القراءة روى الإمام أحمد عن عائشة رضي الله عنها: (أنه ذكر لها أن ناسًا يقرؤون القرآن في الليلة مرة أو مرتين، فقالت: أولئك قرؤوا ولم يقرؤوا، كنت أقوم مع رسول الله ﷺ ليلة

---

(١) مختصر قيام الليل (١٤٩).

(٢) رواه أبو عبيد في فضائل القرآن (٧٤)، وأحمد في المسند (٦/ ٢٩٤)، وأبوداود في سننه: كتاب الصلاة، باب استحباب الترتيل في القراءة (٢/ ٧٣ – ٧٤)، برقم(١٤٦٦)، والترمذي في جامعه، كتاب فضائل القرآن، (٥/ ١٨٢)، برقم(٢٩٢٣)، وقال: هذا حديث حسن صحيح غريب.

(٣) الكشاف (٤/ ١٧٥)، تفسير التحرير والتنوير (٢٩/ ٢٦٠).

(٤) جزء من حديث رواه مسلم في صحيحه: كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب جواز النافلة قائمًا وقاعدًا (٦/ ١٣).

التمام، فكان يقرأ سورة البقرة وآل عمران والنساء، فلا يمر بآية فيها تخويف إلا دعا الله واستعاذ، ولا يمر بآية فيها استبشار إلا دعا الله ورغب إليه)(١).

وعن حذيفة بن اليمان ﷺ قال: (صليت مع رسول الله ﷺ ذات ليلة فافتتح البقرة، فقلت يركع عند المائة، ثم مضى فقلت يصلي بها في ركعة، فمضى فقلت: يركع بها ثم افتتح النساء فقرأها، ثم افتتح آل عمران فقرأها، يقرأ مترسلاً، إذا مر بآية فيها تسبيح سبَّح، وإذا مر بسؤال سأل، وإذا مر بتعوذ تعوَّذ) الحديث(٢).

وقد حذر سلفنا الصالح رحمهم الله تعالى من هذّ القرآن والإسراع في تلاوته طلبًا لختمه على عجلة؛ لأنه يفوت تدبره والوقوف على معانيه، ففي الصحيحين أن رجلاً قال لابن مسعود ﷺ: (إني أقرأ المفصل في ركعة واحدة، فقال ابن مسعود: أهذًّ كهذِّ الشعر؟ إن قومًا يقرؤون القرآن لا يجاوز تراقيهم، ولكن إذا وقع في القلب فرسخ فيه نفع)(٣).

وسئل زيد بن ثابت ﷺ كيف ترى في قراءة القرآن في سبع؟ قال:

---

(١) رواه أحمد في مسنده (٦/ ١١٩).

(٢) رواه مسلم في صحيحه: كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب استحباب تطويل القراءة في صلاة الليل (٦/ ٦١ – ٦٢).

(٣) رواه البخاري في صحيحه: كتاب الأذان، باب الجمع بين السورتين في الركعة (٢/ ٢٥٥) برقم(٧٧٥)، ومسلم في صحيحه: كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب ترتيل القرآن واجتناب الهذ (٦/ ١٠٤ – ١٠٥) واللفظ له.

حسن، ولأن أقرأه في نصف شهر أو عشر أحب إلي، وسلني لم ذاك؟ قال: فإني أسألك؟ قال زيد: لكي أتدبره وأقف عليه[1]، وقال الحسن البصري: (يا ابن آدم كيف يرق قلبك وإنما همتك في آخر السورة)[2].

يقول الزركشي: (فحق على كل امرئ مسلم قرأ القرآن أن يرتله، وكمال ترتيله تفخيم ألفاظه والإبانة عن حروفه، والإفصاح لجميعه بالتدبر حتى يصل بكل ما بعده، وأن يسكت بين النفس والنفس حتى يرجع إليه نفسه، وألا يدغم حرفًا في حرف، لأن أقل ما في ذلك أن يسقط من حسناته بعضها، وينبغي للناس أن يرغبوا في تكثير حسناتهم، فهذا الذي وصفت أقل ما يجب من الترتيل، وقيل: أقل الترتيل أن يأتي بما يبين ما يقرأ به، وإن كان مستعجلاً في قراءته، وأكمله أن يتوقف فيها، ما لم يخرجه إلى التمديد والتمطيط، فمن أراد أن يقرأ القرآن بكمال الترتيل فليقرأه على منازله، فإن كان يقرأ تهديدًا لفظ به لفظ المتهدد، وإن كان يقرأ لفظ تعظيم لفظ به على التعظيم، وينبغي أن يشتغل قلبه في التفكر في معنى ما يلفظ بلسانه، فيعرف من كل آية معناها، ولا يجاوزها إلى غيرها حتى يعرف معناها...)[3].

ويقول ابن الجوزي: (وقد لبس على قوة بكثرة التلاوة فهم يهذُّون هذًّا من غير ترتيل ولا تثبت، وهذه حالة ليست بمحمودة، وقد روي عن

---

(١) الموطأ (١/ ٢٠١)، فضائل القرآن لأبي عبيد (٧٥).

(٢) مختصر قيام الليل (١٥٠)، التذكار (٢٠٠).

(٣) البرهان في علوم القرآن (١/ ٤٤٩ – ٤٥٠).

جماعة من السلف أنهم كانوا يقرؤون القرآن في كل يوم أو في كل ركعة، وهذا يكون نادرًا منهم، ومن داوم عليه فإنه وإن كان جائزًا إلا أن الترتيل والتثبت أحب إلى العلماء، وقد قال رسول الله ﷺ **"لا يفقه من قرأ القرآن في أقل من ثلاث"** [(١)،(٢)].

وهكذا كان هدي سلفنا الصالح وحالهم، يقرؤون القرآن بتدبر وتمهل، وترسل وتؤدة، يقفون عند معانيه ويتفهمون آياته، فقرنوا في ذلك بين القول والعمل، والنصيحة والقدوة، والإرشاد والتطبيق، والأمثلة على هذا من سيرهم العطرة كثيرة، منها ما روي عن ابن أبي مليكة قال: (سافرت مع ابن عباس رضي الله عنهما من مكة إلى المدينة، فكان يقوم نصف الليل، فيقرأ القرآن حرفًا حرفًا، ثم يبكي حتى نسمع له نشيجًا)[(٣)].

وقال إسحاق ابن إبراهيم الطبري: (كانت قراءة الفضيل بن عياض حزينة شهية بطيئة مترسلة، كأنه يخاطب إنسانًا، وكان إذا مر بآية فيها ذكر الجنة يردد فيها ويسأل)[(٤)].

---

(١) رواه أحمد في المسند (٢/ ١٦٥، ١٨٩)، وأبوداود في سننه: كتاب الصلاة، باب تحزيب القرآن (٢/ ٥٦) برقم(١٣٩٤)، والترمذي في سننه: كتاب القراءات، باب ١٣ برقم(٢٩٤٩)، وابن ماجه في سننه ما جاء في قيام شهر رمضان، باب في كم يستحب ختم القرآن (١/ ٢٢٥)، برقم(١٣٤٧)، وصححه الألباني.

(٢) تلبيس إبليس (١٧٥).

(٣) مختصر قيام الليل (١٣١).

(٤) حلية الأولياء (٨/ ٨٦)، سير أعلام النبلاء (٨/ ٤٢٧).

ولهذا كان أحمد بن أبي الحواري يقول: (إني لأقرأ القرآن وأنظر في آيه، فيحار عقلي بها، وأعجب من حفاظ القرآن كيف يهنيهم النوم ويسعهم أن يشتغلوا بشيء من الدنيا وهم يتلون كلام الله، أما إنهم لو فهموا ما يتلون وعرفوا حقه وتلذذوا به واستحلوا المناجاة لذهب عنهم النوم فرحًا بما رزقوا ووفِّقوا)(١).

وقد يكرر أحدهم الآية والسورة، وقوفًا عند معانيها وتأملاً في هداياتها ودلالاتها، واقتداء بالنبي ﷺ، فيما رواه أبو ذر ﷺ قال: (قام النبي ﷺ بآية حتى أصبح، يرددها ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [المائدة: ١١٨])(٢)، والمروي عن السلف من هذا كثير، فقد قام تميم الداري ﷺ بآية يرددها حتى أصبح، وهي قوله تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ [الجاثية: ٢١](٣).

يقول القرطبي (كانت هذه الآية تسمى مبكاة العابدين لأنها محكمة) وذكر جملة من الآثار المروية من بكاء السلف عندها(٤)، ويقول عباد بن حمزة:

---

(١) حلية الأولياء (١٠/ ٢٢)، صفة الصفوة (٤/ ٢٣٧).

(٢) رواه النسائي: كتاب الافتتاح، باب ترديد الآية (٢/ ١٧٧)، وابن ماجه: إقامة الصلاة، باب ما جاء في القرآن في صلاة الليل(١/ ٢٢٥) برقم (١٣٥٠)، وحسنه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه.

(٣) فضائل القرآن لأبي عبيد (٦٨)، الجامع لأحكام القرآن (١٦/ ١٦٦).

(٤) الجامع لأحكام القرآن (١٦/ ١٦٦).

(دخلت على أسماء رضي الله عنها وهي تقرأ: ﴿ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴾ [الطور: ٢٧]، فوقفت عندها، فجعلت تعيدها وتدعو، فطال علي ذلك فذهبت إلى السوق، فقضيت حاجتي ثم رجعت وهي تعيدها وتدعو)(١).

وعن سعيد بن جبير أنه ردد قول الله تعالى: ﴿ وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ [البقرة: ٢٨١]، وردد قوله تعالى: ﴿ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ۝٧٠ إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِيٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ ﴾ [غافر: ٧٠ – ٧١]، وروي عنه أنه أحرم بنافلة فاستفتح: ﴿ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ﴾، فلم يزل فيها حتى نادى منادي السحر.

وعن عامر بن عبد قيس أنه قرأ ليلة سورة غافر، فلما انتهى إلى قوله تعالى: ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْأَزِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ ﴾ [غافر: ١٨]، لم يزل يرددها حتى أصبح، وروي عنه أنه قرأ قوله تعالى: ﴿ فَقَالُواْ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا ﴾ [الأنعام: ٢٧]، فجعل يبكي ويرددها حتى أسحر(٢).

وقال محمد بن كعب: (لأن أقرأ ﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴾ و﴿ ٱلْقَارِعَةُ ﴾ أرددهما وأتفكر فيهما أحب من أبيت أهذّ القرآن)(٣).

---

(١) فضائل القرآن لأبي عبيد (٦٩)، مختصر قيام الليل (١٤٩).

(٢) ينظر لما سبق فضائل القرآن لأبي عبيد (٦٩)، مختصر قيام الليل (١٥٠).

(٣) مصنف ابن أبي شيبة (٢/ ٢٥٦، ٦/ ١٤١)، مختصر قيام الليل (١٥٠).

وروي عن الحسن البصري أنه قام ليلة بقوله تعالى: ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾ [إبراهيم: ٣٤] حتى أصبح، فقال: (وإن فيها معتبرًا، ما نرفع طرفًا ولا نرده إلا وقع على نعمة، وما لا نعلمه من نعم الله أكثر)(١)، ولهذا يقول الإمام النووي: (وقد بات جماعة من السلف يتلو الواحد منهم آية واحدة ليلة كاملة أو معظم ليلة، يتدبرها عند القراءة)(٢)، وقال ابن القيم: (هذه كانت عادة السلف يردد أحدهم الآية إلى الصباح)(٣).

ثامنًا: الاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم:

وذلك امتثالاً لأمر الله عزَّ وجلَّ في قوله: ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَـٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴾ [النحل: ٩٨]، فالشيطان يجمع قواه ويبذل ما عنده من الحيل ليصد القارئ عن قراءته أو يمله منها أو يذهب عنه الخشوع والتأثر والانتفاع بها، وهذا منه ليس خاصًا بتلاوة القرآن بل في كل عبادة وطاعة.

لكن الله الرحيم بعباده اللطيف بهم أرشدهم إلى ما يحترزون به من مكائده، ويصونون به أنفسهم من شروره، فلا يخلص إليهم، وذلك

---

(١) مصنف ابن أبي شيبة (١٥١)، التذكار (٢٠١).

(٢) الأذكار (٩٩).

(٣) مفتاح دار السعادة (١/ ١٨٧).

بالاستعاذة بالله عزَّ وجلَّ من شره ووساوسه، وقد ذكر ابن القيم رحمه الله تعالى فوائد الاستعاذة، فمنها قوله: (أن القرآن شفاء لما في الصدور، يذهب ما يلقيه الشيطان فيها من الوساوس والشهوات والإرادات الفاسدة، فهو دواء لما أَمَرَّه فيها الشيطان، فأمر أن يطرد مادة الداء ويخلي منه القلب ليصادف الدواء محلا خاليًا فيتمكن منه ويؤثر فيه، ومنها: أن الشيطان يجلب على القارئ بخيله ورجله حتى يشغله عن المقصود بالقرآن، وهو تدبره وتفهمه ومعرفة ما أراد المتكلم به سبحانه، فيحرص بجهده على أن يحول بين قلبه وبين مقصود القرآن فلا يكمل انتفاع القارئ به، فأمر عند الشروع أن يستعيذ بالله عزَّ وجلَّ منه، ومنها: أن القارئ يناجي الله تعالى بكلامه، والله تعالى أشد أذنًا للقارئ الحسن الصوت بالقرآن من صاحب القينة إلى قينته، والشيطان إنما قراءته الشعر والغناء، فأمر القارئ أن يطرده بالاستعاذة عند مناجاة الله تعالى واستماع الرب قراءته، ومنها: أن الله سبحانه أخبر أنه ما أرسل من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته، والسلف كلهم على أن المعنى: إذا تلا ألقى الشيطان في تلاوته، فإذا كان هذا فعله مع الرسل عليهم السلام فكيف بغيرهم؟ ولهذا يُغلط القارئ تارة ويخلط عليه القراءة ويشوشها عليه فيخبط عليه لسانه، أو يشوش عليه ذهنه وقلبه، فإذا حضر عند القراءة لم يعدم منه القارئ هذا أو هذا، وربما جمعهما له، فكان من أهم الأمور الاستعاذة بالله تعالى منه)[1].

---

(١) إغاثة اللهفان (١/ ٩٢ – ٩٣) بتصرف.

تاسعًا: مراعاة الآداب العامة عند تلاوة القرآن :

كي تكون تلاوة القرآن نافعة وحتى تعطي ثمارها من التدبر والتأثر والاستقامة لابد من امتثال آدابها والالتزام بها ومراعاتها قبيل التلاوة وأثناءها، كالطهارة والسواك واستقبال القبلة والجلسة الحسنة الخاشعة، واختيار الزمان والمكان المناسبين للقراءة وغير ذلك، وقد اعتنى أهل العلم ببيانها والاستدلال عليها، ومنهم من أفردها بالتصنيف كالآجري في كتابه أخلاق حملة القرآن، والنووي في كتابه التبيان في آداب حملة القرآن وغيرهما، وقد استفاد العلماء هذه الآداب من كتاب الله عزَّ وجلَّ وسنة رسوله عليه الصلاة والسلام ودونوها في مصنفاتهم، يستشهدون بامتثال سلفنا الصالح إياها ورعايتها والتحذير من ضدها.

ولا شكَّ أن الالتزام بهذه الآداب معين على التأثر بالقرآن والانتفاع به، ومراعاتها تهيء النفس للإفادة من كلام الله عزَّ وجلَّ، وهي أيضًا دليلٌ واضح على تعظيم كلام الله تعالى وإجلاله، وذلك بداية التأثر والانتفاع.

عاشرًا: الجهر بالقراءة :

لأن الجهر بالقراءة معين على جمع القلب، وفيه منع لشرود الذهن وقطع للصوارف والشواغل عن التأثر بما يقرؤه، وهكذا كان هدي النبي ﷺ.

فعن أم هانئ رضي الله عنها قالت: (كنت أسمع قراءة النبي ﷺ وأنا على عريشي)[1]، وسئل ابن عباس رضي الله عنهما عن قراءة النبي ﷺ بالليل

---

(١) رواه النسائي: كتاب الافتتاح، باب رفع الصوت بالقرآن (٢/ ٣٣١)، برقم(١٠١٢)، وحسّنه الألباني في صحيح النسائي.

فقال: (كان يقرأ في حجرته قراءة لو أراد حافظ أن يحفظها فعل)[١].

وفي الحث على الجهر بالقراءة - ما لم يخش رياء ولا سمعة أو يضايق مصليًا أو نائمًا ونحوهما - ثبت عنه عليه الصلاة والسلام عدة أحاديث، منها ما رواه أحمد عنه ﷺ قال: (**ليس منا من لم يتغن بالقرآن يجهر به**)[٢]، وفي الصحيحين عن أبي هريرة ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "**ما أذن الله لشيء ما أذن لنبي حسن الصوت يتغنى بالقرآن يجهر به**"[٣].

أما إذا خشي تأذي الآخرين برفع صوته بالقراءة والتشويش عليهم منع من ذلك، فقد روى الإمام أحمد وأبو داود أن رسول الله ﷺ خرج على الناس وهم يصلون وقد علت أصواتهم، فقال: "**إن المصلي يناجي ربه، فلينظر بم يناجيه، ولا يجهر بعضكم على بعض بالقرآن**"[٤].

وروى الإمام أحمد عن علي ﷺ قال: (نهى رسول الله ﷺ أن يرفع

---

(١) مختصر قيام الليل (١٣٣)، التذكار (١٣٩).

(٢) رواه أحمد في مسنده (١/ ١٧١)، وأبوداود في سننه: كتاب الصلاة، باب استحباب الترتيل في القراءة (٢/ ٧٥)، برقم(١٤٧١).

(٣) رواه البخاري في صحيحه: كتاب فضائل القرآن، باب من لم يتغن بالقرآن (٩/ ٦٨)، برقم(٥٠٢٤)، ومسلم في صحيحه: كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب استحباب تحسين الصوت بالقرآن (٦/ ٧٩) واللفظ له.

(٤) رواه مالك في الموطأ: كتاب الصلاة، باب العمل في الصلاة (١/ ٨٠)، برقم(٢٩)، وروى نحوه أبوداود في سننه: كتاب الصلاة، باب رفع الصوت بالقراءة في صلاة الليل (٢/ ٣٨) برقم(١٣٣٢).

الرجل صوته بالقرآن في الصلاة قبل العشاء الآخرة وبعدها، يغلط أصحابه)[1]، وهذا مشاهد فإن الذي يرفع صوته بالقراءة يغلط من حوله قراءتهم ويشوش على المصلي الذي بجانبه، فلا يعي ما يقرأ ولا يدري ما صنع في صلاته، والواجب في هذا وغيره المناصحة والتوجيه بأسلوب حسن لا تغليظ معه ولا تنفير، كما هو هدي سلفنا الصالح رحمهم الله تعالى.

فعن سعيد بن جبير: (أن رجلاً كان يصلي قريبًا من ابن عمر يجهر بالقراءة نهارًا، فقال رجل من جلساء ابن عمر: إن هذا الأحمق لا يعقل الصلاة، فأنكر عليه ابن عمر وقال: فلعلك أنت لا تعقل، أتقول لرجل يقرأ القرآن لا يعقل؟ فلما فرغ الرجل من صلاته دعاه ابن عمر فقال: إن القراءة بالنهار تسر)[2]، هكذا يكون التعليم والتوجيه، والاحترام والتقدير لقارئ القرآن، فابن عمر أنكر على جليسه اتهام المصلي بأنه أحمق وهو يقرأ القرآن، وإن كان مخطئًا فقد وجهه ابن عمر وأرشده إلى السنة، وهو الإسرار بالقراءة في صلاة النهار، كل هذا بأسلوب رفيع وحكمة تامة وتعامل حسن.

ومن صور هذا التعليم والتوجيه ما رواه عبد الرزاق عن عبد الكريم الجزري قال: (بعثني أبو عبيدة بن عبد الله بن مسعود إلى رجل يجهر بالقراءة فقال قل له: إن قراءة النهار عجماء)[3] أي: لا يرفع الصوت بها، وعن لقمان

---

(١) رواه مالك في الموطأ (١/ ١٠٤)، وأبو عبيد في فضائل القرآن (٨٢).

(٢) فضائل القرآن لأبي عبيد (٨٣).

(٣) فضائل القرآن لأبي عبيد (٨٣)، مصنف عبد الرزاق (٢/ ٤٩٣)، مصنف ابن أبي شيبة (١/ ٣٢٠)، صحيح ابن خزيمة (٢/ ٣٣٧).

ابن عامر قال: (صلى رجل إلى جنب أبي مسلم الخولاني، فجهر بالقراءة، فلما فرغ أبو مسلم من صلاته قال: يا ابن أخي أفسدت علي وعلى نفسك)، هذا إذا كان بجواره أحد يتأذى من رفعه الصوت بالتلاوة، أما إذا لم يكن أحد فالقارئ مخير، سئل إبراهيم النخعي عن الجهر في قراءة النهار، فقال: (إن لم تؤذ أحدًا فلا بأس بذلك)[1].

أما صلاة الليل والقراءة فيها، فقد كان من هديه عليه الصلاة والسلام الجهر حينًا والإسرار حينًا آخر، روى أبو داود عن عبد الله بن أبي قيس أنه قال: (سألت عائشة رضي الله عنها كيف كانت قراءة رسول الله ﷺ، أيسر القراءة أم يجهر؟ فقالت: كل ذلك قد كان يفعله، ربما أسر وربما جهر، قال: قلت: الحمد لله الذي جعل في الأمر سعة)[2].

وبالجهر كان النبي ﷺ يعرف أصوات القراء الحسنة بتلاوة القرآن ويثني عليهم بذلك، فعن أبي موسى الأشعري ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **"لو رأيتني وأنا أستمع لقراءتك البارحة، لقد أوتيت مزمارًا من مزامير آل داود"** رواه البخاري ومسلم[3]، وعنه ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **"إني لأعرف**

(١) ينظر لهما: فضائل القرآن لأبي عبيد (٨٤).

(٢) رواه أحمد في مسنده (٦/ ٧٣)، والترمذي في سننه: أبواب الصلاة، باب ما جاء في قراءة الليل (٢/ ٣١١)، برقم(٤٤٩).

(٣) رواه مسلم في صحيحه: كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب استحباب تحسين الصوت بالقرآن (٦/ ٨٠)، ورواه البخاري مختصرًا في صحيحه: كتاب فضائل القرآن، باب حسن الصوت بالقراءة للقرآن (٦/ ٩٢) برقم(٥٠٤٨)، قال النووي: (قال العلماء: المراد بالمزمار هنا الصوت الحسن، وكان داود عليه السلام حسن الصوت جدًّا شرح النووي على صحيح مسلم (٦/ ٨٠).

أصوات رفقة الأشعريين بالليل حين يدخلون، وأعرف منازلهم من أصواتهم بالقرآن بالليل، وإن كنت لم أر منازلهم حين نزلوا بالنهار" رواه البخاري ومسلم(١).

وبهذا كان يرشد أصحابه ويعلمهم، يدل لهذا ما رواه أبو قتادة ﷺ أن النبي ﷺ خرج ليلة فإذا أبو بكر ﷺ يصلي يخفض من صوته، ومر على عمر ﷺ وهو يصلي رافعًا صوته، قال: فلما اجتمعا عند النبي ﷺ قال: **"يا أبا بكر مررت بك وأنت تصلي تخفض من صوتك؟"** قال: قد أسمعت من ناجيت يا رسول الله، وقال لعمر: **"مررت بك وأنت تصلي ترفع صوتك؟"** فقال: يا رسول الله أوقظ الوسنان وأطرد الشيطان، فقال النبي ﷺ: **"يا أبا بكر ارفع من صوتك شيئًا"**، وقال لعمر: **"اخفض من صوتك شيئًا"**(٢)، وهكذا فقه الصحابة رضي الله عنهم سنة النبي ﷺ وعملوا بها، فكان أبو هريرة إذا قرأ رفع طورًا وخفض طورًا وذكر أن النبي ﷺ كان يفعل ذلك(٣).

وعن علي ﷺ أنه سمع ضجة ناس في المسجد يقرؤون القرآن، فقال: (طوبى، لهؤلاء كانوا أحب الناس إلى رسول الله ﷺ)(٤).

---

(١) رواه البخاري في صحيحه: كتاب المغازي، باب غزوة خيبر (٧/ ٤٨٥)، برقم(٤٢٣٢)، ومسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل الأشعريين (١٦/ ٦١).

(٢) رواه أبوداود: كتاب الصلاة، باب في رفع الصوت بالقراءة في صلاة الليل (٧/ ٣٧) برقم(١٣٢٩)، وصححه الألباني.

(٣) رواه أبوداود: كتاب الصلاة، باب في رفع الصوت بالقراءة (٢/ ٢٧) برقم (١٣٢٨).

(٤) التبيان (٨٦).

وكان ابن مسعود ﷺ إذا هدأت العيون سمع له دوي كدوي النحل حتى يصبح[١]، وعن علقمة قال: (بت عند عبد الله - يعني ابن مسعود - ذات ليلة، فقالوا: كيف كانت قراءته؟ فقال: كان يسمع أهل الدار)[٢].

وعن أبي الأحوص عوف بن مالك الجُشَمي قال: (إن كان الرجل ليطرق الفسطاط ليلاً فيسمع لهم دويًا كدوي النحل، فما بال هؤلاء يأمنون ما كان أولئك يخافون)[٣].

وعن أبي بكر بن محمود قال: (أتتنا عمرة فباتت عندنا، فقمت من الليل أصلي، فجعلت أخافت بقراءتي، فقالت: يا ابن أختي لم لا تجهر بالقرآن؟ فوالله ما كان يوقظنا بالليل إلا قراءة معاذ القاري، أو قراءة أفلح مولى أبي أيوب ﷺ)، وفي رواية: (وتميم الداري) ﷺ، وروى عن أبيه محمد بن أبي بكر أنه كان يرفع صوته بالقراءة بالليل)[٤].

قال النووي: (وفي إثبات الجهر أحاديث كثيرة، وأما الآثار عن الصحابة والتابعين من أقوالهم وأفعالهم فأكثر من أن تحصر وأشهر من أن تذكر، وهذا كله فيمن لا يخاف رياء ولا إعجابًا، ولا نحوهما من القبائح، ولا يؤذي جماعة بلبس صلاتهم وتخليطها عليهم).

---

(١) مختصر قيام الليل (١٣٤).

(٢) فضائل القرآن لأبي عبيد (٨٥)، مصنف عبد الرزاق (٣/ ٤٩٧).

(٣) فضائل القرآن لأبي عبيد (٦١)، التبيان (٥١).

(٤) فضائل القرآن لأبي عبيد (٨٥)، حلية الأولياء (٢/ ٢١)، مختصر قيام الليل (١٣٤).

وقد نقل عن جماعة من السلف اختيار الإخفاء لخوفهم مما ذكرناه، فعن الأعمش قال: (دخلت على إبراهيم وهو يقرأ في المصحف فاستأذن عليه رجل فغطاه، وقال: لا يرى هذا أني كنت أقرأ كل ساعة)(١)، (٢).

ثم استدل لاختيار هذه الجماعة الإخفاء بحديث عقبة بن عامر ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "**الجاهر بالقرآن كالجاهر بالصدقة، والمسر بالقرآن كالمسر بالصدقة**" رواه أبوداود والترمذي والنسائي(٣).

قال الترمذي: (معنى هذا الحديث: أن الذي يسر بقراءة القرآن أفضل من الذي يجهر بها؛ لأن صدقة السر أفضل عند أهل العلم من صدقة العلانية، وإنما معنى هذا عند أهل العلم لكي يأمن الرجل من العجب، لأن الذي يسر بالعمل لا يُخاف عليه من العجب ما يخاف عليه من علانيته)(٤).

وقد جمع الغزالي بين هذه الأحاديث والآثار مرجحًا الجهر بالقراءة، مبينًا وجه ذلك بقيود، حيث يقول: (فالوجه في الجمع بين هذه الأحاديث: أن الإسرار أبعد عن الرياء والتصنع، فهو أفضل في حق من خاف ذلك على

---

(١) حلية الأولياء (٤/ ٢٢٠)، مصنف ابن أبي شيبة (١٠/ ٥٣٢).

(٢) التبيان (٨٦).

(٣) رواه أبو داود: كتاب الصلاة، باب في رفع الصوت بالقراءة في صلاة الليل (١/ ٣٦٣) برقم(١٣٣٣)، وصححه الألباني، والترمذي: كتاب فضائل القرآن: باب(٢٠) برقم(٢٩١٧) وقال: حديث حسن، والنسائي: كتاب الزكاة، باب المسر بالصدقة (٥/ ٨٠).

(٤) سنن الترمذي (٥/ ١٨٠ – ١٨١).

نفسه، فإن لم يخف ولم يكن في الجهر ما يشوش الوقت على مصلٍّ آخر فالجهر أفضل لأن العمل فيه أكثر، ولأن فائدته أيضًا تتعلق بغيره، فالخير المتعدي أفضل من اللازم، ولأنه يوقظ قلب القارئ ويجمع همه إلى الفكر فيه ويصرف إليه سمعه، ولأنه يطرد النوم في رفع الصوت، ولأنه يزيد في نشاطه للقراءة ويقلل من كسله، ولأنه يرجو بجهره تيقظ نائم، فيكون هو سبب إحيائه، ولأنه قد يراه بطال غافل فينشط بسبب نشاطه ويشتاق إلى الخدمة، فمتى حضره شيء من هذه النيات فالجهر أفضل، وإن اجتمعت هذه النيات تضاعف الأجر، وبكثرة النيات تزكو أعمال الأبرار وتتضاعف أجورهم)[1].

وذكر القرطبي وجهًا آخر في الجمع بين الجهر بقراءة القرآن والإسرار بها فقال: (إن القراءة إذا طالت، فالجمع فيها بين الجهر والمخافتة أعون على الدوام، لأن المسر يمل فيما يسر فيأنس بالجهر، والجاهر يكل، فيستريح بالإسرار، إلا أن من قرأ بالليل جهر بالأكثر، وأسر بالأقل، وإذا قرأ نهارًا أسر بالأكثر وجهر بالأقل، إذ كان النبي ﷺ يسر بالقراءة وربما يسمع الآية والآيتين أحيانًا، ثبت ذلك في صحيح مسلم، من حديث أبي قتادة ﷺ عن النبي ﷺ: (أنه كان يقرأ في الركعتين في الظهر، في كل ركعة بفاتحة الكتاب وسورة، وكان يطول في الأولى ويقصر في الثانية، ويُسمعنا الآية أحيانًا)[2]،

---

(١) إحياء علوم الدين (١/ ٣٢٩).

(٢) رواه مسلم: كتاب الصلاة، باب القراءة في الظهر والعصر، (٤/ ١٧١).

وإذا قرأ بالنهار في بيت أو مسجد أو موضع لا لغو فيه ولم يكن في صلاة رفع صوته بالقراءة، فإذا قرأ بالليل في جمع قد رفعت فيه الأصوات وكان يعلم أنه إن جهر لم ينصت له فلا ينبغي له أن يقرأ إلا سرًّا)(١).

الحادي عشر: معرفة لغة العرب والعلم بقواعدها:

نزل القرآن الكريم بلسان عربي مبين، فالعلم بلغة العرب من حيث غريبها وأساليبها، وقواعدها وسننها في الكلام، وطرائقها وعاداتها في الخطاب والتعبير معين على فهم القرآن ومعرفة معانيه والعلم بأحكامه؛ كيما يكون التأثر والانتفاع به، فكان لزامًا تعلم لغة العرب والعلوم المتصلة بها، وفي الأمر بتعليم العربية والحث على ذلك والتحذير من التهاون بتعلمها والجهل بها وبيان آثاره السيئة روي عن السلف عدة أقوال، منها قول عمر ﷺ: (عليكم بالتفقه في الدين، والتفهم في العربية وحسن العبارة)، وقال أيضًا: (تعلموا إعراب القرآن كما تعلمون حفظه)(٢).

وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: (التفسير على أربعة أوجه: وجه تعرفه العرب من كلامها، وتفسير لا يعذر أحد بجهالته، وتفسير يعلمه العلماء، وتفسير لا يعلمه إلا الله)(٣)، وكان يقول: (الشعر ديوان العرب، فإذا خفي علينا الحرف من القرآن الذي أنزله الله بلغة العرب

---

(١) التذكار (١٤٠ - ١٤١).

(٢) فضائل القرآن لأبي عبيد (٢٠٩)، مصنف ابن أبي شيبة (٦/ ١١٦).

(٣) تفسير الطبري (١/ ٧٠)، مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية (١٣/ ٣٧٥).

رجعنا إلى ديوانها، فالتمسنا معرفة ذلك منه)[١]، وقال مالك رحمه الله تعالى: (لا أوتى برجل غير عالم بلغة العرب يفسر كتاب الله إلا جعلته نكالاً)[٢]، وعن يحيى بن عتيق الطفاوي قال: (قلت للحسن: يا أبا سعيد الرجل يتعلم العربية، يلتمس بها حسن المنطق ويقيم بها قراءته، فقال: حسن يا ابن أخي فتعلمها، فإن الرجل يقرأ الآية فيعيا بوجهها فيهلك فيها)[٣].

وقد ذكر أهل العلم وجوب العناية بمعرفة لغة العرب والغرض من ذلك، يقول الإمام الشافعي: (فعلى كل مسلم أن يتعلم من لسان العرب ما بلغه جهده، حتى يشهد به أن لا إله إلا الله وأن محمدًا عبده ورسوله، ويتلو به كتاب الله، وما ازداد من العلم باللسان الذي جعله الله لسان مَن ختم به نبوته وأنزل به آخر كتبه كان خيرًا له)[٤].

وقال عبد الحق بن غالب بن عطية: (إعراب القرآن أصل في الشريعة، لأن بذلك تقوم معانيه التي هي الشرع)[٥].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: (لا بد في تفسير القرآن والحديث من أن يعرف ما يدل على مراد الله تعالى ورسوله ﷺ من الألفاظ، وكيف يفهم

---

(١) الإتقان (١/ ٣٨٢).

(٢) البرهان (٢/ ١٦٠)، الإتقان (١/ ٥٧٥).

(٣) فضائل القرآن لأبي عبيد (٢٠٩ – ٢١٠)، الإتقان (١/ ١٧٩).

(٤) الرسالة (٤٨ – ٤٩).

(٥) المحرر الوجيز (١/ ١٤).

كلامه، فمعرفة العربية التي خوطبنا بها مما يعين على أن نفقه مراد الله تعالى ورسوله ﷺ بكلامه، وكذلك معرفة دلالة الألفاظ على المعاني)(١).

وقال أيضًا: (ومعلوم أن تعلم العربية وتعليمها فرض على الكفاية، وكان السلف يؤدبون أولادهم على اللحن، فنحن مأمورون أمر إيجاب أو أمر استحباب أن نحفظ القانون العربي ونصلح الألسن المائلة عنه، فيحفظ لنا طريقة فهم الكتاب والسنة والاقتداء بالعرب في خطابها)(٢)، وقال أيضًا (لا بد في تفسير القرآن والحديث من أن يعرف ما يدل عليه مراد الله ورسوله ﷺ من الألفاظ وكيف يفهم كلامه، فمعرفة العربية التي خوطبنا بها مما يعين على أن نفقه مراد الله تعالى ورسوله ﷺ بكلامه، وكذلك معرفة دلالة الألفاظ على المعاني)(٣) ، وقال أبو حيان محمد بن يوسف الأندلسي: (ومع ذلك فاعلم أنه لا يرتقي من علم التفسير ذروته ولا يمتطي منه صهوته إلا من كان متبحرًا في علم اللسان، مترقيًا منه إلى رتبة الإحسان)(٤).

الثاني عشر: صدق الطلب في فهم القرآن والتأثر به :

الصادق في طلب أمر ما يسعى ويجتهد في تحقيق مقصوده ويبذل كل ما في وسعه من أجل تحصيله، ويستعذب المشاق من أجله، وهذا ظاهر

---

(١) الإيمان (١١١).

(٢) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية (٣٢/ ٢٥٢).

(٣) الإيمان (١١١).

(٤) البحر المحيط (١/ ٧).

فيمن رام فهم القرآن وصدق في طلب تدبره والتأثر به، من حيث إقباله على كلام الله عزَّ وجلَّ وتفهم آياته والوقوف على هداياته ودلالاته، بعد إتيانه بالأسباب المعينة على ذلك وتخليه عن الموانع والصوارف التي تحول بينه وبين مراده، قال الزجاج في تفسير قوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ [ق: ٣٧] أي: من صرف قلبه إلى التفهم، ألا ترى أن قوله (صم بكم عمي) أنهم لم يستمعوا استماع متفهم مسترشد، فجعلوا بمنزلة من لم يسمع)[١].

وقد أكد على هذا الأمر سلفنا الصالح، يقول سفيان بن عيينة: (أول العلم الاستماع، ثم الفهم ثم الحفظ ثم العمل ثم النشر، فإذا استمع العبد إلى كتاب الله تعالى وسنة نبيه ﷺ بنية صادقة على ما يحب الله أفهمه كما يحب، وجعل له في قلبه نورًا)[٢]، وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: (من تدبر القرآن طالبًا الهدى منه تبين له طريق الحق)[٣].

فالنية الصالحة والصدق في الطلب مع بذل الجهد والصبر على ذلك وسؤال أهل العلم عما أشكل بداية الانتفاع بالقرآن والتأثر به، ولهذا قال تعالى في أول سورة يوسف: ﴿ لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ﴾ [يوسف: ٧].

---

(١) معاني القرآن وإعرابه(٥/ ٤٨).

(٢) الجامع لأحكام القرآن (١١/ ١٧٦)، وقد سبق مختصرًا.

(٣) العقيدة الواسطية ضمن مجموع الفتاوى (٣/ ١٣٧).

يقول الإمام السعدي: (آيات لكل من سأل عنها، بلسان الحال أو بلسان المقال، فإن السائلين هم الذين ينتفعون بالآيات والعبر، وأما المعرضون فلا ينتفعون بالآيات ولا بالقصص والبينات)(١).

وقال الإمام القرطبي: (وينبغي له أن يتعلم أحكام القرآن، فيفهم عن الله مراده وما فرض عليه، فينتفع بما يقرأ ويعمل بما يتلو، فكيف يعمل بما لا يفهم معناه؟ وما أقبح أن يسأل عن فقه ما يتلوه ولا يدريه، فما مثل من هذه حاله إلا كمثل الحمار يحمل أسفارًا)(٢).

ثم إن صدقه في طلب فهم معاني القرآن ليعمل به دليل على محبته المتكلم بالقرآن وهو الله سبحانه، يقول عبد الله بن مسعود ﷺ: (من سره أن يعلم أنه يحب الله ورسوله فلينظر، فإن كان يحب القرآن فإنه يحب الله ورسوله). وقال أيضًا: (لا يسأل عبد نفسه إلا القرآن، فإن كان يحب القرآن فإنه يحب الله ورسوله)(٣)، وبهذا كان الثناء على من أقبل على القرآن بصدق فعمل به وكان شغله عن غيره، يقول عبد الله بن عبد الرحمن الدارمي (محمد – يعني: البخاري – أكيس خلق الله، إنه عقل عن الله ما أمره به ونهى عنه في كتابه، وعلى لسان نبيه، إذا قرأ محمد القرآن شغل قلبه وبصره وسمعه، وتفكر في أمثاله، وعرف حلاله وحرامه)(٤).

(١) تيسير الكريم الرحمن (٣٤٩).
(٢) الجامع لأحكام القرآن (١/ ٢١).
(٣) ينظر لهما: فضائل القرآن لأبي عبيد (٢١)، المعجم الكبير (٩/ ١٣٢)، شعب الإيمان (٢/ ٣٥٣).
(٤) سير أعلام النبلاء (١٢/ ٤٢٦)، هدي الساري (٤٨٤ – ٤٨٥).

وفي بيان حقيقة الصدق في طلب فهم القرآن والانتفاع به وأثر ذلك على العبد قال أبو عبد الله الحارث بن أسد المحاسبي: (فإذا أحضرت عقلك بجمع همك بنية صادقة، مع أمل ورجاء أن تنال ما قال وتسارع إلى محابه وتجتنب مساخطه وتريده وحده، ولا تريد أن تفهم منه ما تتصنع به عند العباد، فإذا نظر الله عزَّ وجلَّ إليك وأنت كذلك، وعلم ذلك من ضميرك أقبل بلطفه وولي تقويم عقلك بفهم كلامه وما فيه من علم الغيوب ومكنون الوعيد، فحينئذ تكون للقرآن مفهمًا، فتستنطق منه علم ما عميت عليك فيه الحجة، فيوضح الله لك به البرهان ويمدك بالفوائد، ويجلي عنك ظلم الشبه، ويدلك على محجة المهتدين، ويذيقك الحلاوة التي أذاقها أهل التقوى، لأن كلامه ربيع قلوب الأبرار...، فإن طلبت الفهم بالصدق أقبل عليك بالمعونة، تصديق ذلك في كتاب الله عزَّ وجلَّ ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴾ [النحل: ١٢٨]، إلى أن قال: (فإن علم من التالي لكتابه صدق ضمير وعناية حتى يجمع همه للفهم أفهمه، ألا تسمعه يقول ﴿ إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ﴾ [الأنفال: ٧٠]، فإذا أقبلت على الله بصدق نية ورغبة لفهم كتابه، باجتماع هم، متوكلاً عليه أنه هو الذي يفتح لك الفهم، لا على نفسك فيما تطلب ولا بما لزم قلبك من الذكر لم يخيبك من الفهم والعقل إن شاء الله)(١).

(١) فهم القرآن (٣٢٢ – ٣٢٤).

المبحث الرابع

موانع التأثر بالقرآن

إذا كان للتأثر بالقرآن وطلب الانتفاع به أسباب، فإن هناك موانع تحول بين قارئ القرآن وسامعه وبين التأثر والانتفاع به، وقد تكون تلك الموانع ظاهرة واضحة لا تخفى على أحد، وقد يكون بعضها خفيًا لا يُنتبه له، أو يكون صاحبه شديد التعلق بها غافلاً عن آثارها السيئة، كما أن تلك الموانع قد تكون عامة مشتركة بين الناس وقد تكون خاصة بفئام منهم، وبيان ذلك من خلال الحديث عن الموانع التالية:

الأول: قصر الهمة على الحفظ وتحقيق القراءة وتجويد التلاوة دون التدبر والعمل:

فمن الصوارف التي تحول بين القارئ وانتفاعه بما يقرؤه وتأثره بما يتلوه انصراف همته إلى الحفظ وتحقيق الحروف والتكلف في إخراجها والمبالغة في تطبيق التجويد الذي هو زينة القراءة وحليتها، واعتماده على ذلك فقط، قال الغزالي في معرض حديثه عما يحجب فهم القرآن ويحول دون الانتفاع به (أن يكون الهم منصرفًا إلى تحقيق الحروف بإخراجها من مخارجها، وهذا يتولى حفظه شيطان وكل بالقراء ليصرفهم عن فهم معاني كلام الله عزَّ وجلَّ، فلا يزال يحملهم على ترديد الحرف، يخيل إليهم أنه لم يخرج من مخرجه، فهذا يكون تأمله مقصورًا على مخارج الحروف، فأنى تنكشف له المعاني، وأعظم ضحكة للشيطان من كان مطيعًا لمثل هذا

التلبيس)[١]، وقال ابن قدامة موصيًا من طلب الانتفاع بالقرآن (وليتخل التالي من موانع الفهم، مثل أن يخيل الشيطان إليه أنه ما حقق تلاوة الحرف ولا أخرجه من مخرجه، فيكرره التالي، فيصرف همته عن فهم المعنى)[٢].

فالحفظ وإتقان التلاوة وتزيينها بالتجويد مطلوب، لكن لا تجوز المبالغة والتكلف فيه، والانصراف بسببه عن فهم القرآن وتدبره، وقد ذكر الطرطوشي: (أن عمر ﷺ كُتب إليه من العراق أن رجالاً قد جمعوا القرآن، أي: حفظوه، فكتب إليهم أن يفرض لهم في الديوان، فكثر من يطلب القرآن، فكتب إليه من قابل أنه قد جمع القرآن سبعمائة رجل، فقال عمر: إني أخشى أن يسرعوا في القرآن قبل أن يتفقهوا في الدين، فكتب ألا يعطيهم شيئًا، قال مالك: مخافة أن يتأولوه غير تأويله)، ثم قال الطرطوشي: (وهذا هو حال المقرئين في هذا العصر – وقد توفي سنة ٥٢٠هـ–، فإنك تجد أحدهم يروي القرآن بمائة رواية، ويثقف حروفه تثقيف القدح، وهو أجهل الجاهلين بأحكامه، فلو سألته عن حقيقة النية في الوضوء لم يجد جوابًا، وسئل مالك عن صبي ابن سبع سنين جمع القرآن؟ فقال: ما أرى هذا ينبغي، وإنما وجه إنكاره ما تقرر في الصحابة من كراهة التسرع في حفظ القرآن دون التفقه فيه، ومن ذلك حديث مالك عن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: (إنكم في زمان كثير فقهاؤه قليل قراؤه، وسيأتي زمان قليل فقهاؤه كثير

(١) إحياء علوم الدين (١/ ٣٣٥).

(٢) مختصر منهاج القاصدين (٥٣).

قراؤه، تحفظ فيه حروف القرآن وتضيع حدوده، كثير من يسأل قليل من يعطي، يُبَدُّون أهواءهم قبل أعمالهم)[١]، [٢].

ومما روي عن السلف من كراهة التنطع والتكلف في القراءة قول حذيفة ﷺ: (أقرأ الناس للقرآن منافق يقرؤه، لا يترك منه واوًا ولا ألفًا، يلفته بلسانه كما تلفت البقرة الخلا بلسانها، لا يجاوز ترقوته)[٣].

وعن سعيد بن جبير قال: (اقرؤوا القرآن صفاء لله، ولا تنطعوا فيه)[٤]، ولما سأل الخلال الإمام أحمد عمن يفرط في المد والهمز والإشباع ويفحش في الإدغام كره ذلك كراهة شديدة، وقال: (لا يعجبني، فإن كان الرجل يقبل منك فانهه)، وسأله الحسن بن محمد بن الحارث: أتكره أن يتعلم الرجل تلك القراءة؟ فقال: (أكرهه أشد كراهة، إنما هي قراءة محدثة، وكرهها شديدًا حتى غضب)[٥].

قال ابن القيم بعد أن ذكر جملة من أقوال السلف في كراهة هذه القراءة (والمقصود: أن الأئمة كرهوا التنطع والغلو في النطق بالحرف، ومن تأمل هدي رسول الله ﷺ وإقراره أهل كل لسان على قراءتهم تبين له أن

---

(١) الموطأ (١/ ١٧٣)، شعب الإيمان (٤/ ٢٥٨)، برقم(٥٠٠٠)، مجمع الزوائد (١/ ١٢٧).

(٢) الحوادث والبدع (٢٠٦) – ٢٠٧).

(٣) مصنف ابن أبي شيبة (١٠/ ٤٨٨)، فضائل القرآن لأبي عبيد (١١٠).

(٤) مصنف ابن أبي شيبة (١٠/ ٤٨٨)، فضائل القرآن لأبي عبيد (١١٠).

(٥) ينظر لما سبق: إغاثة اللهفان (١/ ١٦١).

التنطع والتشدق والوسوسة في إخراج الحروف ليس من سنته)[١].

وهذه القراءة التي كرهها هؤلاء الأئمة مروية عن حمزة، والصحيح أن هذا التكلف فيها إنما جاء من بعض رواته، وكان رحمه الله تعالى ينكر هذا وينهى عنه، فقد قيل له: (يا أبا عمارة، رأيت رجلاً من أصحابك همز حتى انقطع زره – من التكلف – فقال: لم آمرهم بهذا كله)، وقال أيضًا: (إن لهذا التحقيق حدًّا ينتهي إليه ثم يكون قبيحًا)، وكان يقول لمن يزيد في المد والهمز (لا تفعل، أما علمت أن ما كان فوق البياض فهو برص، وما كان فوق الجعودة فهو قطط، وما كان فوق القراءة فليس بقراءة)[٢].

قال الإمام ابن الجزري: (وأما ما ذكر عن عبد الله بن إدريس وأحمد ابن حنبل من كراهة قراءة حمزة فإن ذلك محمول على قراءة من سمعا منه ناقلاً عن حمزة، وما آفة الأخبار إلا رواتها، قال ابن مجاهد: قال محمد بن الهيثم: والسبب في ذلك أن رجلاً ممن قرأ على سليم حضر مجلس ابن إدريس فقرأ، فسمع ابن إدريس ألفاظًا فيها إفراط في المد والهمز وغير ذلك من التكلف، فكره ذلك ابن إدريس وطعن فيه، قال محمد بن الهيثم: وقد كان حمزة يكره هذا وينهى عنه)[٣].

ويعظم هذا الأمر ويفحش إذا كان في الصلاة، يقول ابن الجوزي

---

(١) إغاثة اللهفان (١/ ١٦٢).

(٢) ينظر لما سبق: غاية النهاية (١/ ٢٦٣).

(٣) غاية النهاية (١/ ٢٦٣).

(وقد لبس إبليس على بعض المصلين في مخارج الحروف، فتراه يقول الحمد الحمد، فيخرج بإعادة الكلمة عن قانون أدب الصلاة، وتارة يلبس عليه في تحقيق التشديد، وتارة في إخراج المغضوب، ولقد رأيت من يقول المغضوب فيخرج بصاقه مع إخراج الضاد لقوة تشديده، وإنما المراد تحقيق الحرف فحسب، وإبليس يخرج هؤلاء بالزيادة عن حد التحقيق ويشغلهم بالمبالغة في الحروف عن فهم التلاوة، وكل هذه الوساوس من إبليس)(١)، ويحكي الإمام الذهبي حال القراء المتنطعين في قراءتهم الذين حرموا أنفسهم بصنيعهم هذا تدبر القرآن والتأثر به فيقول: (فالقراء المجودة فيهم تنطع وتحرير زائد يؤدي إلى أن المجود القارئ يبقى مصروف الهمة إلى مراعاة الحروف والتنطع في تجويدها، بحيث يشغله ذلك عن تدبر معاني كتاب الله تعالى، ويصرفه عن الخشوع في التلاوة لله، ويخليه قوي النفس مزدريًا بحفاظ كتاب الله، فينظر إليهم بعين المقت، وأن المسلمين يلحنون، ورأيت من إذا قرأ قسى القلوب وأبرم النفوس، وبدل كلام الله تعالى)(٢).

وقد يكون تكلفهم في القراءة وتنطعهم في النطق بالحروف مدعاة إلى العجب بالنفس وطلب الثناء من السامعين والإزراء بالآخرين والتنقص منهم، قال الإمام الآجري في بيان أخلاق من قرأ القرآن لا يريد به الله عزَّ وجلَّ: (لا يتأدب بأدب القرآن، ولا يزجر نفسه عند الوعد والوعيد، لاهٍ

---

(١) تلبيس إبليس (١٧٢).

(٢) زغل العلم (٢٥ – ٢٦).

غافل عما يتلو أو يتلى عليه، همته حفظ الحروف، إن أخطأ في حرف ساءه ذلك، لئلا ينقص جاهه عند المخلوقين فتنقص رتبته عندهم، فتراه محزونًا مهمومًا بذلك، وما قد ضيعه فيما بينه وبين الله مما أمر به في القرآن أو نهى عنه غير مكترث به،.. ليس له خشوع فيظهر على جوارحه، إذا درس القرآن أو درسه عليه غيره، همته متى يقطع، ليس همته متى يفهم، لا يتفكر عند التلاوة بضروب أمثال القرآن، ولا يقف عند الوعد والوعيد، يأخذ نفسه برضى المخلوقين ولا يبالي بسخط رب العالمين، يحب أن يعرف بكثرة الدرس ويظهر ختمه للقرآن ليحظى عندهم، قد فتنه حسن ثناء الجهلة، من جهله يفرح بمدح الباطل وأعمالُه أعمالُ أهل الجهل، يتبع هواه فيما تحب نفسه، غير متصفح لما زجره القرآن عنه، إن كان ممن يُقرئ غضب على من قرأ على غيره، إن ذُكر عنده رجل من أهل القرآن بالصلاح كره ذلك، وإن ذكر عنده بمكروه سره ذلك، يسخر بمن دونه، يهمز بمن فوقه، يتتبع عيوب أهل القرآن ليضع منهم ويرفع من نفسه، يتمنى أن يخطئ غيره ويكون هو المصيب)(١).

الثاني: الوقوع في الذنوب والمعاصي:

فالمعاصي والآثام على اختلافها وتنوعها من تزيين الشيطان للعبد، وإذا استمر العبد على ذلك ألف تلك الخطايا والذنوب، وكان مرتعًا للشيطان ومحلاً قابلاً لمؤامراته وحبائله، فأبعده عن القرآن وتدبره والعمل به ليضله كما ضل، قال تعالى: ﴿ ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ ۚ

(١) أخلاق حملة القرآن (٤٤ – ٤٥).

أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [المجادلة: ١٩].

فلابد من التوبة النصوح والأوبة الصادقة إلى الله جل وعلا، والتخلي عن الذنوب والمعاصي وعدم الإصرار عليها، كما قال تعالى في وصف عباده المتقين المسارعين إلى جنة عرضها السماوات والأرض: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٥]، وإقامة العبد على الذنب وإصراره عليه مع ادعاء التوبة يعد هذا منه توبة مغشوشة يغش بها نفسه كما ذكر ذلك الحافظ ابن القيم، وذكر أيضًا قاعدة نافعة في هذا الموضوع بقوله: (قبول المحل لما يوضع فيه مشروط بتفريغه من ضده، وكذلك الجوارح إذا اشتغلت بغير الطاعة لم يمكن شغلها بالطاعة إلا إذا فرغها من ضدها، فكذلك القلب المشغول بمحبة غير الله وإرادته والشوق إليه والأنس به لا يمكن شغله بمحبة الله وإرادته وحبه والشوق إلى لقائه إلا بتفريغه من تعلقه بغيره.. وسر ذلك أن إصغاء القلب كإصغاء الأذن، فإذا أصغى إلى غير حديث الله لم يبق فيه إصغاء ولا فهم لحديثه)[١].

وقد حذَّر سلفنا الصالح رحمهم الله تعالى من الوقوع في الذنوب والمعاصي، والولوج في الخطايا والمآثم، وأبانوا آثارها السيئة ونتائجها الوخيمة على العبد والأمة في الدنيا والآخرة، ومن ذلك حرمان التأثر بالقرآن الكريم والانتفاع به، يقول عبد الله بن مسعود رضي الله عنه (إذا كنت في

---

(١) الفوائد (٢٩).

خلوتك لا تبكي على خطيئتك، ولا تتأثر بتلاوة كتاب ربك فاعلم أنك مسكين قد كبلتك خطيئتك)، وقال أيضًا: (إني لأحسب الرجل ينسى العلم كان تعلمه للخطيئة يعملها)[١].

ومن كلام أهل العلم في التحذير من الذنوب والمعاصي وبيان أثرها في حرمان فهم القرآن والتأثر به قول الحافظ ابن قدامة: (وليتخل التالي من موانع الفهم.. ومن ذلك أن يكون التالي مصرًا على ذنب أو متصفًا بكبر أو مبتلى بهوى مطاع، فإن ذلك سبب ظلمة القلب وصداه، فهو كالجرب على المرآة يمنع من تجلي الحق، فالقلب مثل المرآة والشهوات مثل الصدأ، ومعاني القرآن مثل الصور التي تتراءى في المرآة، والرياضة للقلب بإماطة الشهوات مثل الجلاء للمرآة)[٢]، وقال الزركشي: (واعلم أنه لا يحصل للناظر فهم معاني الوحي حقيقة، ولا يظهر له أسرار العلم من غيب المعرفة وفي قلبه بدعة أو إصرار على ذنب، أو في قلبه كبر أو هوى، أو حب الدنيا، أو يكون غير متحقق الإيمان، أو ضعيف التحقيق، أو معتمدًا على قول مفسر ليس عنده إلا علم بظاهر، أو يكون راجعًا إلى معقوله، وهذه كلها حجب وموانع، وبعضها آكد من بعض)[٣].

لذا فقد عد العلماء التوبة النصوح من الذنوب والمعاصي أول ما يلزم

---

(١) ينظر لهما: سنن الدارمي (١/ ١١٧)، المعجم الكبير (٩/ ١٨٩).

(٢) مختصر منهاج القاصدين (٥٣ – ٥٤).

(٣) البرهان في علوم القرآن (٢/ ١٨٠ – ١٨١).

طالب العلم بالقرآن الراغب في الانتفاع به، يقول ابن جماعة: (الأول: أن يطهر قلبه من كل غش ودنس وغل وحسد وسوء عقيدة وخلق، ليصلح بذلك لقبول العلم وحفظه والاطلاع على دقائق معانيه وحقائق غوامضه، فإن العلم كما قال بعضهم: (صلاة السر وعبادة القلب وقربة الباطن)، وكما لا تصلح الصلاة التي هي عبادة الجوارح الظاهرة إلا بطهارة الظاهر من الحدث والخبث، فكذلك لا يصلح العلم الذي هو عبادة القلب إلا بطهارته من خبث الصفات وحدث مساوئ الأخلاق ورديئها.

وإذا طيب القلب للعلم ظهرت بركته ونما، كالأرض إذا طيبت للزرع نما زرعها وزكا، وفي الحديث: (إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب)[١].

وقال سهل بن عبد الله التستري: (حرام على قلب أن يدخله النور وفيه شيء مما يكره الله عزَّ وجلَّ)[٢].

ومن كلام بعض المعاصرين في ذكر ما يلزم من رام التأثر بالقرآن وطلبه قوله: (تطهير أدوات التلاوة التي يُتعامل مع القرآن من خلالها، وتنظيفها مما علق بها من معاص وذنوب ومنكرات، لأن نظافة وطهارة

---

(١) جزء من حديث رواه البخاري في صحيحه: كتاب الإيمان، باب فضل من استبرأ لدينه (١/ ١٢٦) برقم(٥٢)، ومسلم في صحيحه: كتاب المساقاة، باب أخذ الحلال وترك الشبهات (١١/ ٢٧ – ٢٨)، كلاهما عن النعمان بن بشير ﷺ.

(٢) تذكرة السامع والمتكلم (٦٧).

الوعاء شرط للانتفاع بالمضمون، فكيف يحسن تلاوة القرآن وتدبره وفهمه بعين لوثتها النظرات المحرمة؟ أو بأذن دنستها الأصوات المنكرة ومزامير الشيطان؟ أو بلسان نجسته الغيبة والنميمة والكذب والافتراء والسخرية والاستهزاء؟ وكيف يعي القرآن ويتفاعل معه قلب عليه أكنة وأغطية وحجب وموانع الشبهات والشهوات، والرغبة في المعاصي والمنكرات، والإقبال على الرذائل والمحرمات، وقد أفسدته الأمراض والآفات من الرياء والعجب والتكبر؟ إن القرآن كالمطر، فكما أن المطر لا يؤثر في الجماد والصخر، ولا يتفاعل معه إلا التربة المهيأة، فكذلك القرآن لابد أن ينزل على بيئة صالحة ليتفاعل معها ويؤثر بها ويحيا من خلالها، وهذه البيئة هي الحواس والقلوب التي تقبل عليه)[1].

ومن الذنوب المانعة من التأثر بالقرآن الحائلة دون الانتفاع به الكِبر الذي يمنع من قبول الحق، ويورث العجب بالنفس، فلا تأتمر لآمر ولا تنتصح لناصح، فالكبر غشاوة على عينيه، لا يبصر إلا نفسه ولا يشعر إلا بذاته، قال تعالى: ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ [الأعراف: ١٤٦].

قال سفيان بن عيينة: (أنزع عنهم فهم القرآن)[2]، وقال الفضيل بن عياض (آفة القراء العجب)[3]، وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: (المستسلم لله

(١) مفاتيح للتعامل مع القرآن الكريم (٥٢).

(٢) الدر المنثور (٣/ ٥٦٢).

(٣) سير أعلام النبلاء (٨/ ٤٤٢).

ولغيره مشرك، والممتنع عن الاستسلام له مستكبر)[١].

فالكبر حجاب بين العبد وبين الانتفاع بآيات ربه، لأن المتكبر مطبوع على قلبه، يقول تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴾ [غافر: ٣٥]، فالكبر من أصول الخطايا والذنوب التي بسببها يحرم العبد الانتفاع بالقرآن والتأثر به، يقول ابن القيم: (أصول الخطايا كلها ثلاثة، الكبر وهو الذي أصار إبليس إلى ما أضاره، والحرص وهو الذي أخرج آدم من الجنة، والحسد وهو الذي جرأ أحد ابني آدم على أخيه، فمن وقي شر هذه الثلاثة فقد وقي الشر، فالكفر من الكبر، والمعاصي من الحرص، والبغي والظلم من الحسد)[٢].

ومن الذنوب المانعة من التأثر بالقرآن والانتفاع به الغناء والطرب بجميع صوره وأشكاله، يقول ابن القيم في حديثه عن آثار الغناء: (فمن خواصه: أنه يلهي القلب ويصده عن فهم القرآن وتدبره والعمل بما فيه، فإن القرآن والغناء لا يجتمعان في القلب أبدًا، لما بينهما من التضاد، فإن القرآن ينهى عن اتباع الهوى ويأمر بالعفة ومجانبة شهوات النفوس وأسباب الغي، وينهى عن اتباع خطوات الشيطان، والغناء يأمر بضد ذلك كله ويحسنه، ويهيج النفوس إلى شهوات الغي فيثير كامنها، ويزعج قاطنها ويحركها إلى كل قبيح، فبينما ترى الرجل وعليه سمة الوقار وبهاء العقل

---

(١) العبودية (٤٦).

(٢) الفوائد (٥٨).

وبهجة الإيمان ووقار الإسلام وحلاوة القرآن، فإذا استمع الغناء ومال إليه نقص عقله وقل حياؤه وذهبت مروءته، وفارقه بهاؤه وتخلى عنه وقاره وفرح به شيطانه وثقل عليه قرآنه، وسر المسألة: أنه قرآن الشيطان، فلا يجتمع هو وقرآن الرحمن في قلب أبدًا)[1].

ومما حذَّر منه العلماء الغيبة، المنهي عنها في الكتاب والسنة، فهي مانعة من الانتفاع بالقرآن وحرمان من العمل به، قال الفضيل بن عياض: (يا بني لكل شيء ديباج، وديباج القراءة ترك الغيبة)[2].

وبالجملة فإن الذنوب والمعاصي والغفلة عن الله تعالى مانعة من الانتفاع بالقرآن والتأثر به، وسبب في عمى بصيرة القلب وطمس نوره وسد طرق العلم عنه، قال تعالى: ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ ﴾ [البقرة: ٢٨٢]، فكان لزامًا على المؤمن أن يقلع عن ذنوبه ومعاصيه وأن ينيب إلى ربه ويتوب توبة نصوحًا، كي ينعم بكل خير وفضل في الدنيا والآخرة، ومن ذلك الانتفاع بالقرآن والعمل به.

قال الغزالي: (شَرَط الله عزَّ وجلَّ الإنابة في الفهم والتذكير، فقال تعالى: ﴿ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴾ [ق: ٨]، وقال عزَّ وجلَّ: ﴿ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴾ [غافر: ١٣]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [الرعد: ١٩، الزمر: ٩]، فالذي آثر غرور الدنيا على نعيم الآخرة ليس من ذوي

---

(١) إغاثة اللهفان (١/ ٢٤٨ – ٢٥٠) بتصرف.

(٢) التذكار (٢١٤).

الألباب)[١].

الثالث: اتباع الهوى :

فالهوى يجعل صاحبه يصر على ما هو عليه من الخطأ مهما تبين له الحق، مما يؤدي به إلى ترك العمل بالقرآن والسنة، ولذلك فقد عده جل وعلا إلهًا يعبد من دونه، فقال تعالى: ﴿ أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَـٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ [الفرقان: ٤٣ - ٤٤]، وقال تعالى: ﴿ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَـٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ [الجاثية: ٢٣]، فالهوى يعمي ويصم عن الحق فلا يقبله، وصاحب الهوى في ضلال عن الحق الذي دل عليه القرآن، فلا يعمل به ولا يتبعه، يقول تعالى: ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ [القصص: ٥٠]، بل اتباع الهوى سبب فساد الأمور كلها، يقول تعالى: ﴿ وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ﴾ [المؤمنون: ٧١] الآية، ولذلك فقد عده عليه الصلاة والسلام من المهلكات فقال: (ثلاث مهلكات: شح مطاع، وهوى متبع، وإعجاب المرء بنفسه)[٢].

---

(١) إحياء علوم الدين (١/ ٣٣٥ - ٣٣٦).

(٢) رواه الطبراني في الأوسط (٥/ ٣٢٨) برقم(٥٤٥٢)، وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (١/ ٩١)، وعزاه للطبراني في الأوسط وغيره عن أنس وابن عباس رضي الله عنهما، وحسنه الألباني بمجموع طرقه في صحيح الجامع الصغير (١/ ٥٣٨) برقم(٣٠٣٩)، والسلسلة الصحيحة برقم(١٨٠٢).

لذا فقد حذر سلفنا الصالح رحمهم الله تعالى من اتباع الهوى والانقياد له ومجالسة أهله، مبينين خطر ذلك وضرره على صاحبه، ويدعون إلى اتباع الكتاب والسنة وتحكيمهما في صغير الأمور وكبيرها، يقول علي ﷺ: (أخوف ما أخاف عليكم اثنتان: اتباع الهوى وطول الأمل، أما اتباع الهوى فيصد عن الحق، وأما طول الأمل فينسي الآخرة)(١)، وقال الحسن البصري: (اتهموا أهواءكم ورأيكم على دين الله، وانتصحوا كتاب الله على أنفسكم)(٢).

وقال عبد الرحمن بن عمر: (ذُكر عند عبد الرحمن بن مهدي قوم من أهل البدع واجتهادهم في العبادة، فقال: لا يقبل الله إلا ما كان على الأمر والسنة، ثم قرأ: ﴿ وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَـٰهَا عَلَيْهِمْ ﴾ [الحديد: ٢٧]، فلم يقبل ذلك منهم ووبخهم عليه، ثم قال: الزم الطريق والسنة)، وذكر عنده مرة أصحاب رأي وهوى، فقرأ قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَتَّبِعُوٓاْ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّواْ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيرًا وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴾ [المائدة: ٧٧](٣).

ومن كلام أهل العلم في بيان حقيقة الهوى وأثره في الصد عن اتباع الحق والعمل بالكتاب والسنة قول الشاطبي: (ولذلك سمي أهل البدع أهل الأهواء، لأنهم اتبعوا أهواءهم، فلم يأخذوا الأدلة الشرعية مأخذ الافتقار

---

(١) الزهد لأحمد (١٩٢)، شعب الإيمان (٧/ ٣٧٠)، الزهد لابن أبي عاصم (١٣٠).

(٢) الإبانة لابن بطة(١/ ٣٨٩)، الزهد لأحمد (٣٨٥).

(٣) ينظر لما سبق: حلية الأولياء (١٠/ ٨).

إليها والتعويل عليها حتى يصدروا عنها، بل قدموا أهواءهم واعتمدوا على آرائهم، ثم جعلوا الأدلة الشرعية منظورًا فيها من وراء ذلك)(١).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: (واتباع الأهواء في الديانات أعظم من اتباع الأهواء في الشبهات، فإن الأول حال الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين، كما قال تعالى: ﴿ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ ﴾ [القصص: ٥٠]، ولهذا كان من خرج عن موجب الكتاب والسنة من العلماء والعباد يجعل من أهل الأهواء، كما كان السلف يسمونهم أهل الأهواء، وذلك أن كل من لم يتبع العلم فقد اتبع هواه، والعلم بالدين لا يكون إلا بهدى الله الذي بعث به رسوله ﷺ)(٢).

---

(١) الاعتصام (٢/ ١٧٦).

(٢) مجموع الفتاوى (٢٨/ ١٣٣)، الاستقامة (٢/ ٢٢٤).

المبحث الخامس

التحذير من الابتداع ومخالفة السنة في التأثر بالقرآن

إن فضل السلف على الخلف عظيم، وبخاصة أصحاب نبينا ﷺ ورضي الله عنهم أجمعين، فقد كانوا أعمق هذه الأمة علمًا وأقومها هديًا وأقلها تكلفًا وأسلمها منهجًا، على نور من الله تعالى وهدي من سنة رسول الله عليه الصلاة والسلام، محذرين من البدع مجانبين أهلها ومجالسهم والنظر في كتبهم.

يقول معاذ ﷺ: (إن وراءكم فتنًا يكثر فيها المال ويفتح فيها القرآن، حتى يأخذه المؤمن والمنافق، والرجل والمرأة، والصغير والكبير، والحر والعبد، فيوشك قائل أن يقول: ما للناس لا يتبعوني وقد قرأت القرآن، ما هم بمتبعي حتى أبتدع لهم، فإياكم وما يبتدع، فإن ما ابتدع ضلالة، وأحذركم زيغة الحكيم، فإن الشيطان قد يقول كلمة الضلالة على لسان الحكيم، وإن على الحق نورًا)(١).

وقد أبان الله تعالى لنا حال المتأثرين بكتابه وأثنى عليهم بقوله: ﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴾ [الزمر: ٢٣]، وقال تعالى: ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ ۖ

---
(١) حلية الأولياء (١/ ٢٣٢ – ٢٣٣).

يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّـٰهِدِينَ ﴾ [المائدة: ٨٣]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَـٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ [الأنفال: ٢]، فمن نعتهم الخوف والخشية من الله سبحانه، ورقة القلب وكثرة البكاء، فلا هم يصعقون ولا يصيحون ولا يصرخون، ولا يغشى عليهم ولا يتماوتون ولا يتكلفون التأثر بالقرآن.

قال الحافظ ابن كثير: (قوله تعالى: ﴿ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾ أي: هذه صفة الأبرار عند سماع كلام الجبار، المهيمن العزيز الغفار، لما يفهمون منه من الوعد والوعيد والتخويف والتهديد، تقشعر منه جلودهم من الخشية والخوف، ﴿ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾ لما يرجون ويؤملون من رحمته ولطفه، فهم مخالفون لغيرهم من الفجار، يلزمون الأدب عند سماعها، كما كان الصحابة رضي الله عنهم عند سماع كلام الله تعالى من تلاوة رسول الله ﷺ، تقشعر جلودهم ثم تلين مع قلوبهم إلى ذكر الله، لم يكونوا يتصارخون ولا يتكلفون بما ليس فيهم، بل عندهم من الثبات والسكون والأدب والخشية ما لا يلحقهم أحد في ذلك، ولهذا فازوا بالمدح من الرب الأعلى في الدنيا والآخرة)(١).

وقد أبان سلفنا الصالح حال الصحابة وتابعيهم عند سماع القرآن وتلاوته في التزامهم بما ذكر الله عزَّ وجلَّ، وعابوا من خالف هديهم وابتدع

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٥٠ – ٥١).

أحوالاً في التأثر بالقرآن من الصعق والغشي والصراخ ورفع الأصوات ونحو ذلك، فعن عبد الله بن عروة بن الزبير قال: (قلت لجدتي أسماء: كيف كان أصحاب رسول الله ﷺ إذا سمعوا القرآن؟ قالت: تدمع أعينهم وتقشعر جلودهم كما نعتهم الله، قال قلت: فإن ناسًا هاهنا إذا سمع أحدهم القرآن خر مغشيًا عليه، قالت: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم)(١).

وعن عامر بن عبد الله بن الزبير قال: (جئت أبي، فقال: أين كنت؟ فقلت: وجدت قومًا ما رأيت خيرًا منهم قط، يذكرون الله تعالى فيرعد أحدهم حتى يغشى عليه من خشية الله تعالى فقعدت معهم، فقال: لا تقعد معهم بعدها، فرأى كأنه لم يأخذ ذلك في، فقال: رأيت رسول الله ﷺ يتلو القرآن، ورأيت أبا بكر وعمر يتلوان القرآن فلا يصيبهم هذا، أفتراهم أخشع لله تعالى من أبي بكر وعمر؟ فرأيت أن ذلك كذلك فتركتهم)(٢).

ومرَّ ابن عمر رضي الله عنهما برجل من أهل العراق ساقط والناس حوله، فقال: (ما هذا؟ فقالوا: إذا قرئ عليه القرآن أو سمع الله يُذكر خر من خشية الله، فقال ابن عمر: والله إنا لنخشى الله وما نسقط، ثم قال: إن الشيطان يدخل في جوف أحدهم، ما كان هذا صنيع أصحاب رسول الله ﷺ)(٣)، ولما قيل لعائشة رضي الله عنها: إن قومًا إذا سمعوا القرآن صعقوا، قالت: (إن القرآن أكرم أن ينزف عنه عقول الرجال، ولكنه كما قال الله عزَّ

(١) فضائل القرآن لأبي عبيد (١١١)، التذكار (٢١١ – ٢١٢).

(٢) حلية الأولياء (٣/ ١٦٧)، مجمع الزوائد (١٠/ ٢٢٠).

(٣) فضائل القرآن لأبي عبيد (١١١)، التذكار (٢١٢).

وجلَّ ﴿ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾)[١].

فالصعق والغشيان عند قراءة القرآن أو سماعه من أحوال أهل البدع، تصنعًا وتكلفًا أمام الناس، أو رياء وطلبًا للشهرة والسمعة بين الناس، ولم يكن معروفًا في سلف هذه الأمة، فعن قتادة أنه تلا قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾ الآية، ثم قال: هذا نعت أولياء الله تعالى، نعتهم الله فقال: تقشعر قلوبهم وتبكي أعينهم وتطمئن قلوبهم إلى ذكر الله تعالى، ولم ينعتهم الله تعالى بذهاب عقولهم والغشيان عليهم، إنما هذا في أهل البدع، وإنما هو من الشيطان، ولهذا كانوا يقولون: القرآن أكرم من أن يزيل عقول الرجال)[٢].

وهكذا كان الصحابة في سماع الخطبة والموعظة وتأثرهم بها من النبي ﷺ، والأمثلة على هذا كثيرة، منها حديث العرباض بن سارية ﷺ قال: (وعظنا رسول الله ﷺ موعظة وجلت منها القلوب وذرفت منها العيون) الحديث[٣].

وعن أنس ﷺ قال: (خطب رسول الله ﷺ خطبة ما سمعت مثلها قط،

(١) فضائل القرآن لأبي عبيد (١١٢)، روح المعاني (٢١/ ٧٥)، الاعتصام (١/ ٢٧٦).

(٢) الدر المنثور (٧/ ٢٢١).

(٣) رواه أحمد في مسنده (٤/١٢٦ – ١٢٧)، وأبوداود: كتاب السنة، باب في لزوم السنة (٤/ ٢٠٠) برقم(٤٦٠٧)، والترمذي: كتاب العلم، باب ما جاء في الأخذ بالسنة واجتناب البدع (٥/ ٤٤) برقم(٢٦٧٦)، وقال: حسن صحيح.

فقال: "لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيرًا"، قال: فغطى أصحاب رسول الله ﷺ وجوههم ولهم خنين) متفق عليه، وفي رواية قال أنس: (فجعلت ألتفت يمينًا وشمالاً فإذا كل رجل لافٌّ رأسه في ثوبه يبكي)(١).

قال الإمام القرطبي: (قال علماؤنا رحمة الله عليهم: فهذه أحوال العارفين بالله، الخائفين من سطوته وعقوبته، لا كما تفعله الجهال المبتدعة الطغام من الزعيق والزئير، ومن النهاق الذي يشبه نهاق الحمير، فيقال لمن تعاطى ذلك، وزعم أن ذلك وجد وخشوع، لم تبلغ أن تساوي حال الرسول، ولا حال أصحابه في المعرفة بالله، والخوف منه، والتعظيم لجلاله، ومع ذلك فكانت أحوالهم عند المواعظ الفهم عن الله، والبكاء من الله عزَّ وجلَّ، وكذلك وصف الله عزَّ وجلَّ أحوال أهل المعرفة عند سماع المواعظ وذكره وتلاوة كتابه فقال: ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ ﴾ [المائدة: ٨٣] فهذا وصف حالهم، وحكاية مقالهم، ومن لم يكن كذلك، فليس على هديهم، ولا على طريقهم، فمن كان مستنًا فليستن، ومن تعاطى أحوال المجانين والجنون فهو من أسوئهم حالاً، والجنون فنون)(٢).

ولهذا أنكر السلف بشدة على من خالف السنة في هذا الباب، وابتدع أمورًا ما أنزل الله بها من سلطان، كالصعق والغشي والصياح ورفع

---

(١) رواه البخاري: كتاب الفتن، باب التعوذ من الفتن، (١٣/ ٤٣) برقم(٧٠٨٩)، ومسلم: كتاب الفضائل، باب توقيره عليه الصلاة والسلام (١٥/ ١١١ – ١١٢).
(٢) التذكار (٢١١).

الأصوات، فقد سئل أنس بن مالك عن القوم يُقرأ عليهم القرآن فيصعقون، فقال: (ذلك فعل الخوارج)(١)، وسئل عن هذه الحال محمد بن سيرين فقال: (ميعاد ما بيننا وبينه أن يجلس على حائط ثم يُقرأ عليه القرآن من أوله إلى آخره، فإن وقع فهو كما قال)(٢)، وقال عمرو بن مالك: (بينما نحن يومًا عند أبي الجوزاء - أوس بن عبدالله - يحدثنا إذ خرَّ رجل فاضطرب، فوثب أبو الجوزاء فسعى قبله، فقيل: يا أبا الجوزاء إنه رجل به الموت، فقال: إنما كنت أراه من هؤلاء القفازين، ولو كان منهم لأمرت به وأخرجته من المسجد، إنما ذكرهم الله فقال (**تفيض أعينهم**) و(**تقشعر جلودهم**))(٣).

لكن روي عن بعض السلف أنهم غشي عليهم وصعقوا عند تلاوة القرآن أو سماعه، والجواب عن هذا أن يقال: لابد من التأكد من ثبوته عنهم وصحة إسناده إليهم، ثم إذا صح وثبت فالقدوة نبينا ﷺ وأصحابه، وما روي من هذه الأحوال قليل نادر ولم يكن هو الغالب على حالهم، وإنما حدث لبعضهم لضعف في قلبه وعدم تحمله، بلا تكلف ولا تصنع، والله أعلم بسرائر الأمور وخفيها، لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء وهو السميع العليم.

قال بعض أهل العلم: (وإن كان وقع شيء من ذلك لأحد من السلف فهو نادر، ولم يكن هو الغالب على حالهم، وإنما يقع لهم بدون تكلف ولا تصنع، وربما كان سببه إذا حدث لبعضهم لضعف في قلبه وعدم احتماله)(٤).

---

(١) فضائل القرآن لأبي عبيد (١١٢)، التاريخ الكبير (٢/ ٢٣٤).
(٢) فضائل القرآن لأبي عبيد (١١٢)، حلية الأولياء (٢/ ٢٦٥)، التذكار (٢١٢).
(٣) حلية الأولياء (٣/ ٨٠).
(٤) فضائل القرآن لأبي عبيد (١١٢)، حلية الأولياء (٢/ ٢٦٥)، التذكار (٢١٢).

المبحث السادس

مظاهر التأثر بالقرآن

إن للتأثر بالقرآن الكريم مظاهر وصفات ترى على أهله، من الخشوع ورقة القلب ودمع العين، والانقياد والاتباع، والسمع والطاعة، وصلاح الظاهر والباطن، وحسن الخلق وغير ذلك، يقول جل وعلا في وصف هؤلاء والثناء عليهم: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَـٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ [الأنفال: ٢]، وقال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَـٰبًا مُّتَشَـٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴾ [الزمر: ٢٣].

يقول الزرقاني مبينًا مبلغ تأثير القرآن في الأمة: (إن القرآن بلغ في تأثيره ونجاحه مبلغًا خرق به العادة في كل ما عرف من كتب الله والناس، وخرج عن المعهود في سنن الله من التأثير النافع بالكلام وغير الكلام.. وذلك عن طريق أسلوبه المعجز الذي هز النفوس والمشاعر وملك القلوب والعقول، وكان له من السلطان ما جعل أعداءه منذ نزوله إلى اليوم يخشون بأسه وصولته، ويخافون تأثيره وعمله، أكثر مما يخافون الجيوش الفاتحة والحروب الجائحة، لأن سلطان الجيوش والحروب لا يعدو هياكل الأجسام والأشباح، أما سلطان هذا الكتاب فقد امتد إلى حرائر النفوس وكرائم الأرواح، بما لم يعهد له نظير في أي نهضة من النهضات.

ولقد أشار القرآن نفسه إلى هذا الوجه من وجوه إعجازه، حين سمى الله كتابه روحًا من أمره بقوله: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ﴾ [الشورى: ٥٢]، وحين سماه نورًا بقوله: ﴿ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴾ [المائدة: ١٥]، وحين وصف بالحياة والنور من آمن به في قوله: ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ﴾ [الأنعام: ١٢٢]، وفي قوله: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ﴾ [النحل: ٩٧]، وفي قوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ [الأنفال: ٢٤].

هذا التأثير الخارق أو النجاح الباهر الذي نتحدث فيه أدركه ولا يزال يدركه كل من قرأ القرآن في تدبر وإمعان ونصفة، حاذقًا لأساليبه العربية، ملمًا بظروفه وأسباب نزوله)(١).

ولبيان مظاهر التأثر بالقرآن وتفصيل القول فيها سيكون الحديث عنها في المطالب الآتية:

المطلب الأول: الخشوع ورقة القلب والبكاء:

أبان الله عزَّ وجلَّ حال المتأثرين بآي كتابه ونعتهم بقوله: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ [الأنفال: ٢]، وقال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ

---

(١) مناهل العرفان (٢/ ٤٠٥ – ٤٠٧).

كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴾ [الزمر: ٢٣]، قال قتادة: (هذا نعت أولياء الله، نعتهم الله تعالى، قال: تقشعر جلودهم وتبكي أعينهم، وتطمئن قلوبهم إلى ذكر الله تعالى، ولم ينعتهم الله بذهاب عقولهم والغشيان عليهم، إنما هذا في أهل البدع، وإنما هو من الشيطان)(١)، فما ذكرهم الله في كتابه ونوّه عنهم إلا للتأسي بهم.

وقال تعالى في وصفهم: ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ ﴾ [المائدة: ٨٣] الآية، قال القرطبي: (هذه أحوال العلماء يبكون ولا يُصعقون، ويسألون ولا يصيحون، ويتحازنون ولا يتموَّتون)(٢).

ومدح الله البكائين الذين رقت قلوبهم وخشعت جوارحهم بقوله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴾ [الإسراء: ١٠٧ – ١٠٩]، قال عبد الأعلى التيمي: (من أوتي من العلم ما لا يبكيه فليس بخليق أن يكون أوتي علمًا ينفعه، لأن الله تعالى نعت العلماء فقال: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ﴾ وتلا

---

(١) الدر المنثور (٧/ ٢٢١).

(٢) الجامع لأحكام القرآن (٦/ ٢٥٨).

الآيتين)[١]، وقال تعالى في بيان حال أنبيائه ورسله والصالحين من عباده الذين هداهم واجتباهم ﴿ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّواْ سُجَّدًا وَبُكِيًّا ﴾ [مريم: ٥٨]، وقد روى الأئمة عن عمر بن الخطاب ﷺ أنه قرأ سورة مريم فسجد، ثم قال: (هذا السجود فأين البكاء)[٢].

وخير المتأثرين بالقرآن المنتفعين به نبينا وقدوتنا عليه الصلاة والسلام، أعظم الخلق خشية لله وأرقهم قلبًا وأسرعهم دمعة، يدل لذلك ما رواه عبدالله بن مسعود ﷺ قال: قال لي رسول الله ﷺ: **"اقرأ عليَّ القرآن"**، فقلت: يا رسول الله أقرأ عليك وعليك أنزل؟ قال: **"إني أحب أن أسمعه من غيري"**، فقرأت عليه سورة النساء، حتى إذا جئت إلى هذه الآية: ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴾ [النساء: ٤١]، قال: **"حسبك الآن"**، فالتفت إليه فإذا عيناه تذرفان) رواه البخاري ومسلم[٣].

قال ابن بطال: (إنما بكى ﷺ عند تلاوته هذه الآية لأنه مثل لنفسه أهوال يوم القيامة وشدة الحال الداعية له إلى شهادته لأمته بالتصديق، وسؤاله الشفاعة لأهل الموقف، وهو أمر يحق له طول البكاء)، وقال الحافظ ابن حجر: (والذي يظهر أنه بكى رحمة لأمته، لأنه علم أنه لا بد أن يشهد

---

(١) الزهد لابن المبارك (٤١)، حلية الأولياء (٥/ ٨٨).

(٢) تفسير الطبري (١٦/ ٧٣)، تفسير ابن أبي حاتم (٧/ ٢٤١٢)، الدر المنثور (٥/ ٥٢٥).

(٣) رواه البخاري في صحيحه: كتاب فضائل القرآن، باب البكاء عند قراءة القرآن (٩/ ٩٨)، برقم(٥٠٥٥)، ومسلم في صحيحه: كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضل استماع القرآن (٦/ ٨٧).

عليهم بعملهم، وعملهم قد لا يكون مستقيمًا، فقد يفضي إلى تعذيبهم)[١]، ومن صور تأثره عليه الصلاة والسلام وبكائه ما رواه عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: (قلت لعائشة – رضي الله عنها – أخبرينا بأعجب شيء رأيته من رسول الله ﷺ، فبكت وقالت: كل أمره كان عجبًا، أتاني في ليلتي حتى مس جلده جلدي، ثم قال: "**ذريني أتعبد ربي**" – إلى قولها – فقام وتوضأ ولم يكثر صب الماء، ثم قام يصلي فبكى حتى بل لحيته، ثم سجد فبكى حتى بل الأرض، ثم اضطجع على جنبه فبكى، حتى إذا أتى بلال يؤذنه لصلاة الصبح، قالت فقال: يا رسول الله ما يبكيك وقد غفر الله لك ذنبك ما تقدم وما تأخر؟ فقال: "**ويحك يا بلال، وما يمنعني أن أبكي وقد أنزل علي في هذه الليلة** ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَـٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَـَٔايَـٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾ [آل عمران: ١٩٠] ثم قال: "**ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها**"[٢].

وعن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "**إن من أحسن الناس صوتًا بالقرآن الذي إذا سمعتموه يقرأ حسبتموه يخشى الله**" رواه ابن ماجه[٣].

ولذلك قال الإمام النووي (البكاء عند قراءة القرآن صفة العارفين

(١) ينظر لهما: فتح الباري (٩/ ٩٩).

(٢) ذكره ابن كثير في تفسيره (١/ ٤٤٠) وعزاه لابن مردويه، ورواه البخاري: كتاب التفسير، تفسير سورة آل عمران (٨/ ٢٣٦) برقم(٤٥٧٠ – ٤٥٧١)، ومسلم: كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب صلاة النبي عليه الصلاة والسلام بالليل عن ابن عباس.

(٣) رواه ابن ماجه في سننه: أبواب إقامة الصلاة والسنة فيها، باب في حسن الصوت بالقرآن (١/ ٢٢٤) برقم(١١٠١) وصححه الألباني فيما سبق.

وشعار الصالحين)[١]، وفي الوصية برقة القلب وطلب الحزن حال قراءة القرآن أو سماعه يقول الإمام الآجري رحمه الله تعالى: (فأحب لمن قرأ القرآن أن يتحزن عند قراءته ويتباكى ويخشع قلبه ويتفكر في الوعد ليستجلب بذلك الحزن، ألم تسمع إلى ما نعت الله عزَّ وجلَّ من هو بهذه الصفة وأخبر بفضلهم، فقال عزَّ وجلَّ: ﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾ الآية، ثم ذم أقوامًا استمعوا القرآن فلم تخشع له قلوبهم، فقال عزَّ وجلَّ: ﴿ أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ﴿٥٩﴾ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ﴿٦٠﴾ وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ ﴾ [النجم: ٥٩ – ٦١] يعني: لاهين[٢].

وروي عن الحسن البصري أنه تلا هذه الآيات ثم قال: (والله إن أكيس القوم في هذا الأمر لمن بكى، فأبكوا هذه القلوب، وابكوا هذه الأعمال، فإن الرجل لتبكي عيناه وإنه لقاسي القلب)[٣]، يقول القرطبي (هذه مبالغة في صفتهم ومدح لهم، وحق لكل من توسَّم بالعلم وحصَّل منه شيئًا أن يجري إلى هذه المرتبة، فيخشع عند استماع القرآن ويتواضع ويذل)[٤]، وهذا بخلاف حال أهل الغفلة القاسية قلوبهم، تجدهم عند سماع الآيات لاهين وعنها متشاغلين، ولهذا يقول عبد العزيز بن أبي رواد: (من لم يتعظ بثلاث لم يتعظ،

---

(١) التبيان (٦٨).

(٢) أخلاق حملة القرآن (٨١).

(٣) الزهد لابن المبارك (٤١).

(٤) الجامع لأحكام القرآن (١٠/ ٣٤١).

بالإسلام والقرآن والشيب)[١].

وإذا كان أبو بكر الصديق ﷺ أفضل الأمة بعد رسول الله ﷺ ينعي حاله وحال من لا يبكي عند تلاوة القرآن، لما قدم أهل اليمن في زمنه فسمعوا القرآن جعلوا يبكون، فقال ﷺ: (هكذا كنا، ثم قست القلوب)[٢]، فكيف الحال بمن بعده، مع ما عرف عنه من رقة القلب وكثرة البكاء عند تلاوة القرآن وفي صلاته، دليل ذلك ما في الصحيحين من حديث عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال في مرضه: "**مروا أبا بكر يصلي بالناس**"، قالت عائشة: قلت إن أبا بكر إذا قام مقامك لم يسمع الناس من البكاء، فمر عمر فليصل) الحديث، وفي رواية: (إن أبا بكر رجل أسيف، إذا قام مقامك لم يستطع أن يصلي بالناس).

والأسيف: شديد الحزن رقيق القلب، وفي رواية: (إن أبا بكر رجل رقيق إذا قرأ القرآن لا يملك دمعه، فلو أمرت غير أبي بكر)[٣].

وجاء في سيرته ﷺ أنه ابتنى مسجدًا بفناء داره، وكان يصلي فيه ويقرأ القرآن، فيتقذف عليه نساء المشركين وأبناؤهم وهم يعجبون منه وينظرون

---

(١) حلية الأولياء (٨/ ١٩٤، صفة الصفوة (٢/ ٢٢٩).

(٢) حلية الأولياء (١/ ٣٤)، فضائل القرآن لأبي عبيد (٦٤)، المحرر الوجيز (١/ ١٢).

(٣) ينظر لهذه الروايات ومعنى الأسيف: صحيح البخاري: كتاب الأذان، باب حد المريض يشهد الجماعة (٢/ ١٥٢)، برقم(٦٦٤)، وباب إذا بكى الإمام في الصلاة (٢/ ٢٠٦)، وصحيح مسلم: كتاب الصلاة، باب استخلاف الإمام إذا عرض له عذر (٤/ ١٤٠).

إليه، وكان أبو بكر رجلاً بكاء لا يملك عينيه إذا قرأ القرآن[١].

وهكذا كان الصحابة رضي الله عنهم يتأثرون عند قراءة القرآن أو سماعه، رقة في قلوبهم وخشوعًا وخضوعًا عند كلام الله عزَّ وجلَّ مع ما يكون من الوجل والخوف والبكاء، والرجاء والمحبة، والفهم والعلم، يحكي حالهم علي بن أبي طالب ﷺ بقوله: (لقد رأيت أثرًا من أصحاب رسول الله ﷺ فما أرى أحدًا يشبههم، والله إن كانوا ليصبحون شعثًا غبرًا صفرًا، بين أعينهم مثل ركب المعزى، قد باتوا يتلون كتاب الله، يراوحون بين أقدامهم وجباههم، إذا ذُكر الله مادوا كما تميد الشجرة في يوم ريح، فانهملت أعينهم حتى تبل ثيابهم، والله لكأن القوم باتوا غافلين)[٢].

وعن عبد الله بن عروة بن الزبير ﷺ قال: قلت لجدتي أسماء - يريد بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنها-: (كيف كان أصحاب رسول الله ﷺ إذا سمعوا القرآن؟ قالت: تدمع أعينهم وتقشعر جلودهم كما نعتهم الله)[٣].

والأمثلة على هذا في سيرهم العطرة كثيرة جدًّا، فقد كان عمر ﷺ: (يمر بالآية فتخنقه، فيبقى في بيته أيامًا يُعاد، يحسبونه مريضًا)[٤].

---

(١) رواه البخاري: كتاب فضائل أصحاب النبي ﷺ، باب هجرة النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة (٧/ ٢٣١)برقم (٣٩٠٥).

(٢) حلية الأولياء (١/ ٧٦).

(٣) شعب الإيمان (٢/ ٣٦٥)، التذكار (٢١١ - ٢١٢).

(٤) فضائل القرآن لأبي عبيد (٦٤، الزهد لأحمد (١٧٦).

وعن عبيد بن عمير قال: "صلى بنا عمر بن الخطاب صلاة الفجر فافتتح سورة يوسف فقرأها حتى إذا بلغ قوله: ﴿ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ [الآية: ٨٤]، بكى حتى انقطع فركع)، وفي رواية: (أنه لما انتهى إلى قوله تعالى ﴿ إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ [الآية: ٨٦]، بكى حتى سمع نشيجه من وراء الصفوف) وكان في وجهه خطان أسودان من كثرة البكاء[1]، وعن نافع قال: (كان ابن عمر رضي الله تعالى عنه يصلي بالليل فيمر بالآية فيها ذكر الجنة فيقف فيسأل الله الجنة ويدعو، وربما بكى، ويمر بالآية فيها ذكر النار فيقف ويتعوذ بالله من النار ويدعو، وربما بكى، وكان إذا أتى على هذه الآية ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾ [الحديد: ١٦]، بكى حتى يغلبه البكاء، وقال: بلى يا رب بلى يا رب)[2].

وكان إذا افتتح سورة المطففين وبلغ قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ [الآية: ٦] بكى وأكثر البكاء حتى يمتنع من قراءة ما بعدها[3]، وعن الرياحي قال: (شرب عبد الله بن عمر ماء مبردًا فبكى فاشتد بكاؤه، فقيل له: ما يبكيك؟ فقال: ذكرت آية في كتاب الله عزَّ وجلَّ ﴿ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ ﴾ [سبأ: ٥٤] فعرفت أن أهل النار لا يشتهون شيئًا، شهوتهم

---

(١) ينظر لما سبق فضائل القرآن لأبي عبيد (٦٤ – ٦٥)، شعب الإيمان (٢/ ٣٦٤)، الدر المنثور (٤/ ٥٧٣).

(٢) حلية الأولياء (١/ ٣٠٥)، مختصر قيام الليل (١٤٣)، التذكار (١٩٥).

(٣) حلية الأولياء (١/ ٣٠٥)، الزهد لأحمد (٢٨٤)، مختصر قيام الليل (١٤٣)، التذكار (٢٠٢).

الماء، وقد قال الله عزَّ وجلَّ ﴿ أَنْ أَفِيضُوا۟ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ ﴾ [الأعراف: ٥٠][١]، وقال ابن أبي مليكة: (كان ابن عباس يقوم نصف الليل فيقرأ القرآن حرفًا حرفًا، ثم حكى قراءته: ﴿ وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ ﴾ [ق: ٢١]، قال: ثم بكى حتى سُمع له نشيج[٢]، ولذلك يقول أبو رجاء: (رأيت ابن عباس وأسفل من عينيه مثل الشراك البالي، من البكاء)[٣].

وعن عروة بن الزبير قال: (لما أراد ابن رواحة الخروج إلى أرض مؤتة من الشام، أتاه المسلمون يودعونه فبكى، فقالوا له: ما يبكيك؟ قال: أما والله ما بي حب الدنيا ولا صبابة لكم، ولكني سمعت رسول الله ﷺ قرأ هذه الآية ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴾ [مريم: ٧١]، فقد علمت أني وارد النار، ولا أدري كيف الصدر بعد الورود)، وفي رواية: (فأيقنت أني واردها، ولم أدر أأنجو منها أم لا)[٤]، وقام تميم الداري ﷺ بآية يرددها حتى أصبح، وهي قوله تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ [الجاثية: ٢١][٥]، يقول القرطبي: (كانت هذه الآية تسمى مبكاة العابدين، لأنها

---

(١) شعب الإيمان (٤/ ١٤٩)، صفة الصفوة (١/ ٥٧٨)، التخويف من النار (١١٦).

(٢) شعب الإيمان (٢/ ٣٦٥)، التذكار (٢٠٢).

(٣) مختصر قيام الليل (١٤٤).

(٤) ينظر لهذه الروايات: تفسير الطبري (١٥/ ٥٩٤ – ٥٩٥)، الزهد لابن المبارك (٣١٠)، مختصر قيام الليل (١٤٤).

(٥) فضائل ا القرآن لأبي عبيد (٦٨)، الجامع لأحكام القرآن (١٦/ ١٦٦).

محكمة) وذكر عندها جملة من الآثار المروية عن السلف من البكاء عندها[١].

وكان هذا التأثر والبكاء ورقة القلب في النساء كما هو في الرجال، فعن عروة بن الزبير قال: (دخلت على أسماء وهي تصلي، فسمعتها وهي تقرأ هذه الآية ﴿ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴾ [الطور: ٢٧]، فاستعاذت، وقمت وهي تستعيذ، فلما طال علي أتيت السوق، ثم رجعت وهي في بكائها تستعيذ)[٢]، وفي رواية أن أختها عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها قرأتها فبكت وقالت: (اللهم مُنّ علي وقني عذاب السموم، إنك أنت البر الرحيم)، وكانت إذا قرأت قوله تعالى: ﴿ وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ ﴾ [الأحزاب: ٣٣]، تبكي حتى تبلّ خمارها)[٣]، ونادت أم المؤمنين صفية بنت حيي رضي الله عنها نفرًا اجتمعوا في حجرتها، ذكروا الله وتلوا القرآن وسجدوا قائلة: (هذا السجود وتلاوة القرآن فأين البكاء؟)[٤].

وهكذا كان التابعون ومن بعدهم ممن أنعم الله عليهم برقة القلوب والخوف والخشية عندما يتلون آيات القرآن أو يسمعونها من غيرهم، فمن الرزايا التي يصاب بها العبد قسوة القلب، فلا يلين لموعظة ولا يستجيب لداعي الله، ولا يتأثر بما يراه أو يسمعه من آيات الله عزَّ وجلَّ، قال مالك بن

---

(١) الجامع لأحكام القرآن (١٦/ ١٦٦).

(٢) حلية الأولياء (٢/ ٥٥)، الدر المنثور (٧/ ٦٣٥).

(٣) حلية الأولياء (٢/ ٤٩)، الزهد لأحمد (٢٤١).

(٤) حلية الأولياء (٢/ ٥٥)، مصنف ابن أبي شيبة (٧/ ٢٢٥).

دينار: (ما ضُرِب عبدٌ بعقوبة أعظم من قسوة القلب)[١].

والمروي عن التابعين ومن بعدهم من سلفنا الصالح رحمهم الله تعالى من الأمثلة الدالة على سرعة تأثرهم ورقة قلوبهم وبكائهم عند تلاوة القرآن أو سماعه من غيرهم كثير، خوفًا من الله وخشية، ورجاء فيما عنده، يجدون في ذلك النعيم والأنس والسرور، يقول الحسن البصري: (تفقدوا الحلاوة في ثلاث: في الصلاة وفي القرآن وفي الذكر، فإن وجدتموها فامضوا وأبشروا، وإن لم تجدوها فاعلم أن بابك مغلق)[٢]، وقد يمكث أحدهم قيامه بالليل يردد آية ما يجاوزها لبكائه.

فعن عبد الرحمن بن عجلان قال: (بت عند الربيع بن خثيم ذات ليلة فقام يصلي، فمر بهذه الآية ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الجاثية: ٢١] فمكث ليلته حتى أصبح، ما جاوز هذه الآية إلى غيرها ببكاءٍ شديد)[٣].

وعن عبد الله بن رباح قال: (كان صفوان بن مُحْرز المازني إذا قرأ هذه الآية: ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢٧] بكى حتى أقول اندق قصيص زوره)[٤]، وهكذا كانت مجالسه مع أصحابه تعليمًا وإرشادًا

---

(١) مختصر قيام الليل (٦٩).

(٢) حلية الأولياء (٦/ ١٧١).

(٣) حلية الأولياء (٢/ ١١٢).

(٤) حلية الأولياء (٢/ ٢١٤)، مختصر قيام الليل (١٤٥)، وقصيص الزور: ما ارتفع من الصدر إلى الكتفين أو ملتقى أطراف عظام الصدر، القاموس (زور)(٢/ ٤٢).

ووعظًا وتذكيرًا حتى ترق القلوب وتدمع العيون، يقول غيلان بن جرير: (كانوا يجتمعون فيتحدثون فلا يرون تلك الرقة، فيقولون: يا صفوان حدث أصحابك، قال فيقول: الحمد لله ثم يتحدث، قال: فيرق القوم وتسيل الدموع من أعينهم، وكأنها أفواه المزادة)(١)، ومثله ما رواه يحيى بن أيوب قال: (دخلت مع زافر بن سليمان على الفضيل بن عياض فقال: هؤلاء المحدثون يعجبهم قرب الإسناد، ألا أخبرك بإسناد لا شك فيه، رسول الله ﷺ عن جبريل عن الله تعالى قال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَـٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦]، فأنا وأنت يا أبا سليمان من الناس فجعلا يبكيان)(٢)، وروى الزهري أن عمر بن عبد العزيز كان إذا أصبح أمسك بلحيته ثم قرأ: ﴿أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَـٰهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ﴾ [الشعراء: ٢٠٥-٢٠٧] ثم يبكي وينشد:

نهـارك يـا مغرور سهو وغفـلة ... وليلك نوم والردى لك لازم
تسـر بمـا يفنـى وتفـرح بالمنى ... كما سر باللذات في الليل حالم
وتسعى إلى ما سوف تكره غبه ... كذلك في الدنيا تكون البهائم(٣)

---

(١) حلية الأولياء (٢/ ٢١٤).

(٢) سير أعلام النبلاء (٨/ ٤٣٨).

(٣) الجامع لأحكام القرآن (١٣/ ١٤١).

وقام الحسن البصري ذات ليلة يصلي، فلم يزل يردد هذه الآية حتى السحر: ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾ [إبراهيم: ٣٤]، فلما قيل له في ذلك، قال: أرى فيها معتبرًا، ما أرفع طرفًا ولا أرده إلا وقد وقع على نعمة، وما لا يُعلم من نعم الله أكثر)[١]، ويذكر رحمه الله تعالى أحوال الناس مع القرآن فيقول: (قراء هذا القرآن ثلاثة رجال: فرجل قرأه فاتخذه بضاعة ونقله من بلد إلى بلد، ورجل قرأه فأقام حروفه وضيع حدوده، يقول: إني والله لا أسقط من القرآن حرفًا، ورجل قرأه فأسهر ليله وأظمأ نهاره ومنع شهوته، فجثوا في برائنهم وركدوا في محاريبهم، بهم ينفي الله عنا العدو، وبهم يسقينا الله الغيث، وهذا الضرب من القراء أعز من الكبريت الأحمر)[٢]، ويحكي رقة قلوبهم وسرعة بكائهم مع الإخلاص في ذلك وإخفائه عن الآخرين فيقول: (إن كان الرجل ليجلس المجلس فتجيئه العبرة فيرددها، فإذا خشي أن تسبقه قام)[٣]، ومثل هذه الحال المباركة رواها محمد بن واسع عمن أدركهم من سلف هذه الأمة - رحم الله الجميع - حيث يقول: (لقد أدركت رجالاً، كان الرجل رأسه مع رأس امرأته على وسادة واحدة، قد بل ما تحت خده ولا يشعر به الذي إلى جانبه)[٤]، ومن ذلك ما جاء في سيرة أبي وائل شقيق بن سلمة، يقول عاصم بن بهدلة، (كان أبو وائل إذا

(١) مختصر قيام الليل (١٥١)، التذكار (٢٠١).

(٢) أخلاق حملة القرآن (٦٤ - ٦٥)، مختصر قيام الليل (٤٦).

(٣) الزهد لابن أبي عاصم (٢٦٢).

(٤) حلية الأولياء (٢/ ٣٤٧).

صلى في بيته ينشج نشيجًا لو جعلت له الدنيا على أن يفعله وأحد يراه ما فعله)[١]، ومثله قول حميد الرواسي: (كنت عند علي والحسن ابني صالح ورجل يقرأ: ﴿ لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ ﴾ [الأنبياء: ١٠٣]، فالتفت علي إلى الحسن وقد تغير لونه، فقال: يا حسن إنها أفزاع فوق أفزاع) وحرصًا على إخفاء البكاء وعدم إظهار التأثر أمام الحاضرين جمع الحسن ثوبه فعض عليه حتى سكن[٢].

ومن أئمة السلف علمًا وعبادة ثابت بن أسلم البناني، قرأ مرة قوله تعالى: ﴿ نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ۝٦ ٱلَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ ﴾ [الهمزة: ٦ – ٧] فقال: (تأكله إلى فؤاده وهو حي، لقد تبلغ فيهم العذاب) ثم بكى وأبكى من حوله[٣]، وقال حماد بن سلمة (قرأ ثابت: ﴿ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴾ [الكهف: ٣٧]، وهو يصلي صلاة الليل، ينتحب ويرددها)[٤]، وكانت هذه سيرته حضرًا وسفرًا، يقول هشام: (ما رأيت قط أصبر على طول القيام والسهر من ثابت البناني، صحبناه مرة إلى مكة، فكنا إن نزلنا ليلاً فهو قائم يصلي، وإلا فمتى شئت أن تراه أو تحس به مستيقظًا ونحن نسير إما باكيًا وإما تاليًا)، وكان رحمه الله تعالى يقول: (ما شيء أجده في قلبي

(١) حلية الأولياء (٤/ ١٠١).

(٢) حلية الأولياء (٧/ ٣٣٠)، سير أعلام النبلاء (٧/ ٣٧٠)، تهذيب الكمال (٢٠/ ٤٦٧).

(٣) حلية الأولياء (٢/ ٣٢٣).

(٤) شعب الإيمان (٢/ ٣٦٦).

ألذ عندي من قيام الليل)[١].

ومنهم ميمون بن مهران الجزري الرقي كان مكبًا على كتاب الله تعالى يتلوه آناء الليل وأطراف النهار مع الخشوع والتأثر ورقة القلب، يقول أبو المليح: (قرأ يومًا ميمون قوله تعالى: ﴿وَٱمْتَٰزُوا۟ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ [يس: ٥٩] فرقّ حتى بكى، ثم قال: ما سمع الخلائق بعتب أشد منه)[٢]، وممن اشتهر من السلف بهذا الإمام التابعي صالح المري، يقول ابن الأعرابي: (كان الغالب على صالح كثرة الذكر والقراءة بالتحزين)[٣]، وقال غيره (كان من أحزن أهل البصرة صوتًا)[٤].

وجاء في سيرة محمد بن المنكدر: (أنه قام ذات ليلة يصلي ويقرأ القرآن فبكى وكثر بكاؤه، حتى فزع أهله وسألوه ما الذي أبكاه، فاستعجم عليهم وتمادى في البكاء، فأرسلوا إلى أبي حازم سلمة بن دينار الأعرج، فأخبروه بأمره، فجاء أبو حازم إليه فإذا هو يبكي، فقال: يا أخي ما الذي أبكاك؟ قد رعت أهلك أفمن علة أم ما بك؟ فقال: إنه مرت بي آية من كتاب الله عزَّ وجلَّ، قال: وما هي؟ قال: قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ﴾ [الزمر: ٤٧]، فبكى أبو حازم أيضًا معه واشتد بكاؤهما، فقال

(١) ينظر لهما: صفة الصفوة (٣/ ٢٦٢).

(٢) حلية الأولياء (٤/ ٩٢).

(٣) سير أعلام النبلاء (٨/ ٤٧).

(٤) المجروحين (١/ ٣٧٢).

بعض أهله لأبي حازم: جئنا بك لتفرج عنه فزدته، قال: فأخبرهم ما الذي أبكاهما)، ولذلك قال عنه مالك بن أنس: (كان محمد بن المنكدر سيد القراء، ولا يكاد أحد يسأله عن حديث إلا كان يبكي).

وما كان هذا له ولغيره إلا بتوفيق من الله ومنة ثم بمجاهدة النفس وترويضها على طاعة الله، قال رحمه الله تعالى: (كابدت نفسي أربعين سنة حتى استقامت)[1]، ويقول ثابت البناني: (كابدت الصلاة عشرين سنة، وتنعمت بها عشرين سنة)[2].

وحكوا هذه الأحوال المباركة عمن جالسوهم، يقول إبراهيم بن الأشعث: (ما رأيت أحدًا كان الله في صدره أعظم من الفضيل، كان إذا ذكر الله أو ذُكر عنده أو سمع القرآن ظهر به من الخوف والحزن وفاضت عيناه وبكى، حتى يرحمه من يحضره)[3]، وينعت إسحاق بن إبراهيم الطبري تلاوته فيقول: (كانت قراءته حزينة شهية بطيئة مترسلة، وكان إذا مر بآية فيها ذكر الجنة يردد فيها ويسأل)[4]، ومن ذلك أنه قرأ ليلة سورة محمد باكيًا، يردد قوله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَـٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّـٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ﴾

---

(١) ينظر لما سبق: حلية الأولياء (٣/ ١٤٦ – ١٤٧)، سير أعلام النبلاء (٥/ ٣٥٤ – ٣٥٥).

(٢) حلية الأولياء (٢/ ٣٢١)، سير أعلام النبلاء (٥/ ٢٢٤)، صفة الصفوة (٣/ ٢٦٠، ٣٧٣).

(٣) حلية الأولياء (٨/ ٨٤)، سير أعلام النبلاء (٨/ ٤٢٦)، تهذيب التهذيب (٨/ ٢٦٥).

(٤) حلية الأولياء (٨/ ٨٦)، سير أعلام النبلاء (٨/ ٤٢٨)، تهذيب الكمال (٢٣/ ٢٩٢)، صفة الصفوة (٢/ ٢٣٨).

[الآية: ٣١]، ثم قال: (إن بلوت أخبارنا فضحتنا وهتكت أستارنا، إنك إن بلوت أخبارنا أهلكتنا وعذبتنا، وبكى)[1]، وقد ظهر هذا التأثر أيضًا على ابنه علي بتوفيق من الله وهداية ثم لتربيته الصالحة علي يد أبيه، يقول أبو بكر بن عياش: (صليت خلف الفضيل بن عياض المغرب وابنه علي إلى جانبي، فقرأ ﴿ أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ﴾ فلما بلغ: ﴿ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ﴾ أجهش بالبكاء)[2]، وقرأ أبوه مرة سورة الحاقة في الفجر، فلما بلغ قوله: ﴿ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴾ [الآية: ٣٠]، غلبه البكاء[3]، وهذا ما تمنى أبوه أن يتحقق له من التأثر بالقرآن قولاً وعملاً، كان إذا رآه منكسر القلب حزينًا بكى ورق له وقال: (يا ثمرة قلبي شكر الله لك ما قد علمه فيك)[4]، وقال أبو سليمان الداراني: (ما رأيت أحدًا الخوف أظهر على وجهه والخشوع من الحسن بن صالح، قام ليلة بـ ﴿ عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ﴾ فلم يختمها حتى طلع الفجر)[5].

ولبيان سبب التأثر والبكاء ورقة القلب عند تلاوة القرآن أو سماعه كما وفق له الصالحون من عباد الله يقول الغزالي: (ووجه إحضار الحزن أن يتأمل ما فيه - أي في القرآن - من التهديد والوعيد والمواثيق والعهود، ثم يتأمل تقصيره في أوامره وزواجره، فيحزن لا محالة ويبكي، فإن لم يحضره حزن وبكاء يحضر

(١) حلية الأولياء (٨/ ١١١)، الجامع لأحكام القرآن (١٦/ ٢٥٤).
(٢) تاريخ بغداد (٦/ ٥٥)، سير أعلام النبلاء (٨/ ٤٤٣)، تهذيب الكمال (٢١/ ٩٧ - ٩٨).
(٣) سير أعلام النبلاء (٨/ ٤٤٤)، تهذيب الكمال (٢١/ ٩٩).
(٤) حلية الأولياء (٨/ ٢٩٩)، تهذيب الكمال (٢١/ ١٠٠).
(٥) حلية الأولياء (٧/ ٣٢٨)، سير أعلام النبلاء (٧/ ٣٦٩)، التذكار (٢٠١).

أرباب القلوب الصافية فليبك على فقد الحزن والبكاء، فإن ذلك أعظم المصائب)[1].

المطلب الثاني: الاستجابة والطاعة له والحذر من مخالفته:

المؤمن الصادق هو الذي يسمع كلام الله عزَّ وجلَّ وينقاد له ويطيع، يأتمر بأمر الله ويحذر ما نهى عنه، يستجيب له ويقف عند حدوده، يقول تعالى: ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [النور: ٥١]، ويقول تعالى في وصفهم وبيان حالهم مع القرآن: ﴿ وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [البقرة: ٢٨٥]، وبهذا أمر الله عزَّ وجلَّ عباده فقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ [الأنفال: ٢٤]، وبهذا فسر قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ [الأنفال: ٢]، قال السدي: (إذا أراد أن يظلم مظلمة قيل له: اتق الله، كف ووجل)[2].

وحذَّر تعالى من ضد ذلك وبين أنه انحراف وضلال وموجب للعقوبة والعذاب في الدنيا والآخرة، فقال: ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ

---

(١) إحياء علوم الدين (١/ ٣٢٧).

(٢) الجامع لأحكام القرآن (٧/ ٣٦٤).

ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴾ [الأحزاب: ٣٦]، والإعراض عن العمل بالقرآن ظلم عظيم، يقول تعالى: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ﴾ [الكهف: ٥٧].

والعصيان حال اليهود وطريقتهم، الذين قال الله لهم: ﴿ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُوا۟ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا ﴾ [البقرة: ٩٣].

إن العمل بالقرآن والاستجابة له والتمسك به هو المقصد الأعظم من إنزاله، وبتحقيق ذلك تحصل الرحمة والهداية والفلاح في الدنيا والآخرة، يقول تعالى: ﴿ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [الأنعام: ١٥٥]، وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِهِۦ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴾ [النساء: ١٧٤ - ١٧٥]، وقال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴾ [الأعراف: ١٧٠]، والعمل بالقرآن والوقوف عند حدوده والسمع والطاعة له هي تلاوته حقًّا، وبهذا فسر قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ ﴾ [البقرة: ١٢١] الآية، أي: يتبعونه حق اتباعه ويعملون به حق عمله، روي هذا عن جماعة من السلف(١)، يقول عبد الله بن مسعود ﷺ: (والذي نفسي

---

(١) تفسير الطبري (٢/ ٤٨٧ - ٤٩٥).

بيده إن ﴿ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ ﴾ أن يحل حلاله ويحرم حرامه، ويقرأه كما أنزله الله)[١].

يقول ابن القيم: (وهذه المتابعة هي التلاوة التي أثنى الله على أهلها في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ ﴾ [فاطر: ٢٩]، وفي قوله ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ﴾ [البقرة: ١٢١]، والمعنى: يتبعون كتاب الله حق اتباعه... والمقصود: التلاوة الحقيقية وهي إتقان التلاوة مع تفهم المعنى واتباعه، تصديقًا بخبره وائتمارًا بأمره وانتهاء بنهيه، وائتمامًا به حيث ما قادك انقدت معه، فتلاوة القرآن تتناول تلاوة لفظه ومعناه، وتلاوة المعنى أشرف من مجرد تلاوة اللفظ، وأهلها هم أهل القرآن الذين هم الثناء في الدنيا والآخرة، فإنهم أهل تلاوة ومتابعة حقًا)[٢]، وأهل القرآن حقًا هم العاملون به، قال عمر ﷺ: (تعلموا كتاب الله تعرفوا به، واعملوا به تكونوا من أهله)[٣].

وبالعمل بالقرآن يكون الذكر الأسنى والشرف الأعلى لأهله، كما قال تعالى: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴾ [الزخرف: ٤٤]، قال الحافظ ابن كثير: (معناه: أنه شرف لهم من حيث إنه أنزل بلغتهم فهم أفهم الناس له، فينبغي أن يكونوا أقوم الناس به وأعلمهم بمقتضاه، وهكذا كان خيارهم وصفوتهم من الخلص، من المهاجرين السابقين الأولين ومن شابههم وتابعهم،

---

(١) تفسير الطبري (٢/ ٤٨٩).

(٢) مفتاح دار السعادة (١/ ٤٢).

(٣) مصنف ابن أبي شيبة (١٠/ ٤٨٤).

وتخصيصهم بالذكر لا ينفي من سواهم، كقوله تعالى: ﴿ لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [الأنبياء: ١٠]، وكقوله تبارك وتعالى: ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ [الشعراء: ٢١٤]، ﴿ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴾ أي: عن هذا القرآن وكيف كنتم في العمل به والاستجابة له)[١].

ومن الأدلة على هذا ما رواه مسلم عن النواس بن سمعان ﷺ قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: "**يؤتى بالقرآن يوم القيامة وأهله الذين كانوا يعملون به، تقدمه سورة البقرة وآل عمران**"[٢]، ولهذا قال القرطبي: (فما أحق من علم كتاب الله أن يزدجر بنواهيه، ويتذكر ما شُرح له فيه، ويخشى الله ويتقيه ويراقبه ويستحييه، فإنه قد حمل أعباء الرسل، وصار شهيدًا في القيامة على من خالف من أهل الملل)[٣].

فإن ترك العمل به والانقياد له عُد هاجرًا له وإن قرأه وآمن به، يقول ابن القيم – في معرض حديثه عن أنواع هجر القرآن –: (والثاني: هجر العمل به والوقوف عند حلاله وحرامه وإن قرأه وآمن به)[٤]، وذكر في موضع آخر أن من قرأ القرآن ولم يعمل بمقتضاه امتثالاً لأوامره وبعدًا عن نواهيه وتطبيقًا لأحكامه والتزامًا بمنهجه يكون ممن شابه اليهود الذين أبان الله لنا حالهم مع التوراة وشبّه

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٤/ ١٢٨ – ١٢٩).

(٢) رواه مسلم: كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضل قراءة القرآن وسورة البقرة (٦/ ٩٠).

(٣) الجامع لأحكام القرآن (١/ ٢).

(٤) الفوائد (٨٢).

موقفهم منها وتعاملهم معها في قوله تعالى: ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًاۢ ۚ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [الجمعة: ٥]، قال رحمه الله تعالى: (فقاس سبحانه من حمّله كتابه ليؤمن به ويتدبره ويعمل به ويدعو إليه ثم خالف ذلك، ولم يحمله إلا على ظهر قلب، فقراءته بغير تدبر ولا تفهم، ولا اتباع ولا تحكيم له وعمل بموجبه كحمار على ظهره زاملة أسفار لا يدري ما فيها، وحظه منها حملها على ظهره ليس إلا، فحظه من كتاب الله عزَّ وجلَّ كحظ هذا الحمار من الكتب التي على ظهره، فهذا المثل وإن كان قد ضرب لليهود فهو متناول من حيث المعنى لمن حمل القرآن فترك العمل به ولم يؤد حقه ولم يرعه حق رعايته)(١).

وبترك العمل به فسر قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْاْ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴾ [آل عمران: ١٨٧]، قال مالك بن مغول: (تركوا العمل به)(٢). وعن الشعبي قال: (إنهم كانوا يقرؤونه، ولكنهم نبذوا العمل به)(٣).

وقد أمر الله عزَّ وجلَّ نبيه عليه الصلاة والسلام وأمته باتباع وحيه والعمل بكتابه، قال تعالى: ﴿ ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ﴾ [الأنعام: ١٠٦].

قال الحافظ ابن كثير: (أي: اقتد به واقتف أثره واعمل به، فإن ما أوحي

---

(١) الأمثال في القرآن (٢١٣ – ٢١٤)، وانظر: الجمان في تشبهات القرآن (٢٦٦).

(٢) تفسير الطبري (٦/ ٢٩٩)، غريب الحديث لأبي عبيد (٤/ ١٧٤).

(٣) فضائل القرآن لأبي عبيد (٦٢)، تفسير الطبري (٦/ ٢٩٩).

إليك من ربك هو الحق الذي لا مرية فيه)[١]، وقال تعالى: ﴿ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [الأعراف: ٣].

قال القرطبي: (أي: اتبعوا ملة الإسلام والقرآن، وأحلوا حلاله وحرموا حرامه، وامتثلوا أمره واجتنبوا نهيه)[٢].

وقد بيَّن رسول الله ﷺ الفرق العظيم بين من يتبع القرآن فيقوده إلى الجنة، وبين من يعرض عن القرآن فيتبعه فيقذفه في النار، وذلك فيما رواه جابر ﷺ أنه عليه الصلاة والسلام قال: **"القرآن شافع مشفع، وماحل مصدق، من جعله أمامه قاده إلى الجنة، ومن جعله خلف ظهره ساقه إلى النار"**[٣].

قال القرطبي: (من أوتي علم القرآن فلم ينتفع، وزجرته نواهيه فلم يرتدع، وارتكب من الإثم قبيحًا، ومن الجرائم فضوحًا، كان القرآن حجة عليه وخصمًا لديه، قال ﷺ: **"القرآن حجة لك أو عليك"**[٤].

وإذا أمعنا النظر في قوله ﷺ: (وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة وحفتهم الملائكة وذكرهم الله فيمن عنده، ومن بطأ به عمله لم يسرع به نسبه)[٥].

(١) تفسير القرآن العظيم (٢/ ١٦٣).
(٢) الجامع لأحكام القرآن (٧/ ١٦١).
(٣) صحيح ابن حبان (١/ ٤٤٣)، سنن سعيد بن منصور (١/ ٦٥)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢/ ٨١٨) برقم(٤٤٤٣).
(٤) الجامع لأحكام القرآن (١/ ٢).
(٥) رواه مسلم: كتاب الذكر والدعاء، باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر (١٧/ ٢١).

اتضح لنا أن الحديث يُرغِّب في تلاوة القرآن الكريم والاجتماع على مدارسته وتعليمه، وفي الوقت نفسه يحث على العمل به ويحذر من الركون والاعتماد على النسب والحسب، ومثله الاعتماد على حفظ القرآن واستظهاره دون تدبر وتأمل أو تمسك وعمل به، فلابد لحاملي القرآن - على وجه الخصوص - من تدبره والعمل بمقتضاه في جميع جوانب حياتهم، وإلا كانوا كمن قال فيهم ابن عباس رضي الله عنهما: (ولو أن حملة القرآن أخذوه بحقه وما ينبغي لأحبهم الله، ولكن طلبوا به الدنيا فأبغضهم الله وهانوا على الناس)[1]، فالقرآن حينئذ لا يحقق لهم هداية ولا يدلهم على سعادة الدارين الدنيا والآخرة.

وهكذا سار سلفنا الصالح يقرنون بين تلاوة القرآن والعمل به، وحفظ حروفه ومراعاة حدوده، يقول أبو عبدالرحمن عبدالله بن حبيب السلمي (حدثنا الذين كانوا يقرئوننا القرآن كعثمان بن عفان وعبد الله بن مسعود وغيرهما رضي الله عنهم أنهم كانوا إذا تعلموا من رسول الله ﷺ عشر آيات لم يجاوزوها حتى يتعلموا ما فيها من العلم والعمل، قالوا: فتعلمنا القرآن والعلم والعمل جميعًا)[2]، وقال أبو وائل شقيق بن سلمة قال عبدالله بن مسعود ﷺ: (كان الرجل منا إذا تعلم عشر آيات لم يجاوزهن حتى يعرف معانيهن والعمل بهن)[3].

وعلى العمل به درجوا - رحمهم الله تعالى - يسمعون كلام الله ويستجيبون له ويتواصون على طاعته واتباعه والعمل بما فيه، يحكي ذلك

---

(١) الجامع لأحكام القرآن (١/ ٢٠).

(٢) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية (١٣/ ٣٣١).

(٣) تفسير الطبري (١/ ٨٠)، تفسير القرآن العظيم لابن كثير (١/ ٨).

عبدالله بن عمر رضي الله عنهما عن أصحاب النبي ﷺ فيقول: (كنا صدر هذه الآمة وكان الرجل من خيار أصحاب رسول الله ﷺ ما معه إلا السورة من القرآن أو شبه ذلك، وكان القرآن ثقيلاً عليهم ورزقوا العمل به، وإن آخر هذه الأمة يخفف عليهم القرآن حتى يقرأه الصبي والأعجمي فلا يعملون به)[١]، وقد أبان عبدالله بن مسعود ﷺ حال هذا الصنف الأخير مع القرآن الكريم، ممن لا يُرى للعمل بالقرآن والتحلي بآدابه أثر عليهم بقوله: (أنزل القرآن عليهم ليعملوا به فاتخذوا دراسته عملاً، إن أحدهم ليقرأ القرآن من فاتحته إلى خاتمته ما يسقط منه حرفًا، وقد أسقط العمل به)[٢]، وقال أيضًا: (ليس حفظ القرآن بحفظ الحروف، ولكن إقامة حدوده)[٣]، وقال أبو سعيد الخدري: (يكون خلف بعد سنين، أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غيًّا، ثم يكون خلف يقرؤون القرآن لا يعدو تراقيهم، ويقرأ القرآن ثلاثة، مؤمن ومنافق وفاجر، قيل: ما هؤلاء الثلاثة؟ فقال: المنافق كافر به، والفاجر يتأكل به، والمؤمن يعمل به)[٤].

فصاحب القرآن هو العالم به العامل بما فيه، وإن لم يحفظه عن ظهر قلب، وأما من حفظه ولم يفهمه ولم يعمل به فليس من أهله وإن أقام حروفه إقامة السهم، ومن اجتمع له حفظ القرآن وفهمه والعمل بما فيه فهو الموفق بإذن الله، يقول الحسن البصري: (إن هذا القرآن قد قرأه عبيد وصبيان لا علم لهم بتأويله،

---

(١) أخلاق حملة القرآن (٤٩).

(٢) إحياء علوم الدين (١/ ٣٢٤).

(٣) الزهد لابن المبارك (١/ ٥٧).

(٤) أخلاق حملة القرآن (٥٢)، مسند أحمد (٣/ ٣٨)، المستدرك (٤/ ٥٩٠)، مجمع الزوائد (٦/ ٢٣١).

ولم ينالوا الأمر من أوله، قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ ﴾ [ص: ٢٩]، أما تدبر آياته: اتباعه والعمل به، أما والله ما هو بحفظ حروفه وإضاعة حدوده، حتى إن أحدهم ليقول: قد قرأت القرآن كله فما أسقطت منه حرفًا، وقد والله أسقطه كله، ما يرى له القرآن في خلق ولا عمل، حتى إن أحدهم ليقول: إني لأقرأ السورة في نفس واحد، والله ما هؤلاء بالقراء ولا العلماء ولا الحكماء ولا الورعة، متى كانت القراء تقول مثل هذا؟ لا أكثر الله في الناس مثل هؤلاء)[1] .

وذكر أحوال القراء في رواية أخرى فقال: (قراء هذا القرآن ثلاثة رجال، فرجل قرأه فاتخذه بضاعة ونقله من بلد إلى بلد، ورجل قرأه فأقام على حروفه وضيع حدوده، يقول: إني والله لا أسقط من القرآن حرفًا، كثر الله بهم القبور وأخلا منهم الدور، فوالله لهم أشد كبرًا من صاحب السرير على سريره، ومن صاحب المنبر على منبره، ورجل قرأه فأسهر ليله وأظمأ نهاره ومنع شهوته، فجثوا في برانئهم وركدوا في محاريبهم، بهم ينفي الله عنا العدو، وبهم يسقينا الله الغيث، وهذا الضرب من القراء أعز من الكبريت الأحمر)[2].

وأبان لأهل زمانه حالهم مع القرآن مبينًا حال من سبقهم ممن وفقهم الله تعالى بقوله: (إنكم اتخذتم قراءة القرآن مراحل، وجعلتم الليل جملاً، فأنتم تركبونه فتقطعون به مراحله، وإن من كان قبلكم رأوه رسائل من ربهم، فكانوا

---

(١) أخلاق حملة القرآن (٥٠)، الزهد لابن المبارك (٢٧٤)، مختصر قيام الليل (٧٢)، المرشد الوجيز (٢٠٥).

(٢) أخلاق حملة القرآن (٦٤ – ٦٥)، المجروحين (١/ ١٤٨ – ١٤٩).

يتدبرونها بالليل وينفذونها بالنهار)[١].

ومن وصاياهم رحمهم الله تعالى باتباع القرآن والعمل بما فيه ما روي عن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: (إن للقرآن منارًا كمنار الطريق، فما عرفتم فتمسكوا به، وما اشتبه عليكم فذروه).

وعن أبي بن كعب ﷺ قال: (كتاب الله ما استبان منه فاعمل به، وما اشتبه عليك فآمن به وكله إلى عالمه)[٢].

وعن أبي موسى الأشعري ﷺ أنه جمع القراء فبلغوا زهاء ثلاث مائة فوعظهم وقال: (أنتم قراء أهل البلد، فلا يطولن عليكم الأمد فتقسو قلوبكم كما قست قلوب أهل الكتاب، إن هذا القرآن كائن لكم أجرًا وكائن لكم وزرًا، فاتبعوا القرآن ولا يتبعنكم القرآن، فإنه من اتبع القرآن هبط به على رياض الجنة، ومن تبعه القرآن زخ في قفاه فقذفه في النار)[٣].

وجاء رجل إلى أبي بن كعب ﷺ فقال أوصني، فقال: (اتخذ كتاب الله إمامًا، وارض به قاضيًا وحكمًا، فإنه الذي استخلف فيكم رسولكم، شفيع مطاع، وشاهد لا يتهم، فيه ذكركم وذكر من قبلكم، وحكم ما بينكم، وخبركم وخبر ما بعدكم)[٤]، وجاء رجل بابنه إلى أبي الدرداء ﷺ فقال: (يا أبا الدرداء إن

---

(١) إحياء علوم الدين (١/ ٣٢٤).

(٢) ينظر لهما: مصنف ابن أبي شيبة (٦/ ١٢٨).

(٣) حلية الأولياء (١/ ٢٥٧)، أخلاق حملة القرآن (٢٠)، سنن الدارمي (٢/ ٥٢٦)، مصنف ابن أبي شيبة (١٠/ ٤٨٤).

(٤) حلية الأولياء (١/ ٢٥٣).

ابني هذا قد جمع القرآن، فقال أبو الدرداء: اللهم غفرًا، إنما جمع القرآن من سمع له وأطاع)(١)، وقال سعيد بن جبير: (إن الخشية أن تخشى الله تعالى حتى تحول خشيتك بينك وبين معصيتك، فتلك الخشية، والذكر طاعة الله، فمن أطاع الله فقد ذكره، ومن لم يطعه فليس بذاكر، وإن أكثر التسبيح وقراءة القرآن)(٢).

وقال الحسن البصري: (اقرأ القرآن ما نهاك، فإذا لم ينهك فلست تقرؤه)، وقال أيضًا: (إن أولى الناس بهذا القرآن من اتبعه وإن لم يكن يقرؤه)(٣).

وكان ميمون بن مهران حريصًا على الوصية لأهل القرآن أن يعملوا به ويصلحوا أحوالهم على نهجه وهديه، فخير الناس من علم القرآن وعمل به، قال رحمه الله تعالى: (لو أن أهل القرآن صلحوا لصلح الناس، إن هذا القرآن قد خلق في صدر كثير من الناس، والتمسوا ما سواه من الأحاديث، وإن فيمن يبتغي هذا العلم من يتخذه بضاعة يلتمس بها الدنيا، ومنهم من يريد أن يشار إليه، ومنهم من يريد أن يماري به، وخيرهم من يتعلمه ويطيع الله عزَّ وجلَّ به)(٤).

وقد اجتهد الصحابة ومن بعدهم – رحمه الله تعالى الجميع – في امتثال أمر الله تعالى في كتابه وسنة نبيه عليه الصلاة والسلام والتطبيق الفعلي لما جاء فيهما، والسمع والطاعة لهما، والأمثلة على هذا كثيرة، وأوضح دليل على هذا ما

---

(١) فضائل القرآن لأبي عبيد (٦٢)، المرشد الوجيز (١٩٤).

(٢) الزهد لابن المبارك (١/ ٣٥)، حلية الأولياء (٤/ ٢٧٦)، صفة الصفوة (٣/ ٧٨)، سير أعلام النبلاء (٤/ ٣٢٦).

(٣) ينظر لهما: فضائل القرآن لأبي عبيد (٦٣).

(٤) حلية الأولياء (٤/ ٨٣ – ٨٤).

رواه مسلم عن أبي هريرة ﷺ قال: (لما نزلت على رسول الله ﷺ: ﴿ لِّلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَإِن تُبْدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [البقرة: ٢٨٤] قال: اشتد ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ، فأتوا رسول الله ﷺ، ثم بركوا على الركب، فقالوا: أي رسول الله كلفنا من الأعمال ما نطيق، الصلاة والصيام والجهاد والصدقة، وقد أنزلت عليك هذه الآية ولا نطيقها، قال رسول الله ﷺ: أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتابين من قبلكم سمعنا وعصينا؟ بل قولوا: ﴿ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴾، قالوا: ﴿ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴾، فلما اقترأها القوم ذلت بها ألسنتهم، فأنزل الله في إثرها: ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴾[1] الحديث.

ومن ذلك قصة أبي بكر الصديق ﷺ مع ابن أخته مسطح بن أثاثة ﷺ، فقد كان ينفق عليه لفقره وحاجته، فلما خاض في حادثة الإفك وبرأ الله ابنته أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها أوقف النفقة عليه ومنعه منها، فلما نزل قوله تعالى: ﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [النور: ٢٢]، أعاد النفقة عليه وقال: (لا جرم، والله لا أمنعه

---

(١) صحيح مسلم: كتاب الإيمان، باب بيان تجاوز الله عن حديث النفس (٢/ ١٤٥).

معروفًا كنت أوليه قبل اليوم) وفي رواية: (أن أبا بكر كان يضعف له بعد نزول الآية ضعفي ما كان يعطيه)[١].

ومن ذلك قصة عمر بن الخطاب ﷺ مع عيينة بن حصن الفزاري الذي لما أدخل عليه قال: هي يا ابن الخطاب، فوالله ما تعطينا الجزل ولا تحكم بيننا بالعدل، فغضب عمر حتى هم به، فقال الحر بن قيس: يا أمير المؤمنين إن الله تعالى قال لنبيه ﷺ: ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ [الأعراف: ١٩٩]، وإن هذا من الجاهلين، قال ابن عباس رضي الله عنهما: (والله ما جاوزها عمر حين تلاها عليه، وكان وقافًا عند كتاب الله)[٢].

ومن أمثلة سرعة استجابتهم للقرآن اغتنامًا للأعمال الفاضلة فيه ما روي من أحوال بعض الصحابة رضي الله عنهم بعد نزول قوله تعالى: ﴿ لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾ [آل عمران: ٩٢]، ففي الصحيحين عن أنس ﷺ قال: (كان أبو طلحة ﷺ أكثر الأنصار بالمدينة مالاً من نخل، وكان أحب أمواله إليه بيرحاء، وكانت مستقبلة المسجد، وكان رسول الله ﷺ يدخلها ويشرب من ماء فيها طيب، فلما أنزلت ﴿ لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾، قام أبو طلحة إلى رسول الله ﷺ، وقال: يا رسول الله إن الله تبارك وتعالى يقول: ﴿ لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾، وإن أحب أموالي إليّ بيرحاء، وإنها

---

(١) الدر المنثور (٦/ ١٦٢ – ١٦٣) وعزاه لابن المنذر وابن مردويه.

(٢) رواه البخاري: كتاب التفسير، باب تفسير قوله تعالى: ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ (٨/ ٣٠٤ – ٣٠٥) برقم(٤٦٤٢).

صدقة لله أرجو برها وذخرها عند الله، فضعها يا رسول الله حيث أراك الله، قال: فقال رسول الله ﷺ: **"بخ ذلك مال رابح، وقد سمعت ما قلت، وإني أرى أن تجعلها في الأقربين"**، فقال أبو طلحة: أفعل يا رسول الله، فقسمها أبو طلحة في أقاربه وبني عمه)(١).

وفي الصحيحين أيضًا عن ابن عمر أن عمر رضي الله عنهما أصاب بخيبر أرضًا، فأتى النبي ﷺ فقال: أصبت أرضًا لم أصب مالاً قط أنفس منه، فكيف تأمرني به؟ قال: **"إن شئت حبست أصلها وتصدقت بها"**(٢).

قال الحافظ ابن حجر: (في هذا الحديث فضيلة ظاهرة لعمر لرغبته في امتثال قوله تعالى: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾)(٣).

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: (أنه أعتق جارية له يقال لها: رميثة، لما سمع قول الله تعالى: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾، وقال: والله إني لأحبك في الدنيا، اذهبي فأنت حرة لوجه الله عزَّ وجلَّ)(٤).

---

(١) رواه البخاري في صحيحه: كتاب التفسير، باب تفسير ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ (٨/ ٢٢٣) برقم (٤٥٥٤)، ومسلم: كتاب الزكاة، باب فضل النفقة والصدقة على الأقربين (٧/ ٨٤ – ٨٥).

(٢) رواه البخاري في صحيحه: كتاب الوصايا، باب الوقف كيف يكتب، (٥/ ٣٩٩) برقم (٢٧٧٢)، ومسلم: كتاب الوصايا: باب الوقف (١١/ ٨٦).

(٣) فتح الباري (٥/ ٤٠٣).

(٤) حلية الأولياء (١/ ٢٩٥)، الدر المنثور (٣/ ٦٦٥).

ومن أمثلة امتثالهم ما أمر به القرآن وحذرهم مما نهى عنه، ما روي من أحوالهم بعد نزول قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ ﴾ [الحجرات: ٢]، فقد روى البخاري عن ابن أبي مليكة قال: (كاد الخيران أن يهلكا أبو بكر وعمر - رضي الله عنهما - رفعا أصواتهم عند النبي ﷺ حين قدم عليه ركب بني تميم، فأشار أحدهما بالأقرع بن حابس أخي بني مجاشع، وأشار الآخر برجل آخر، فقال أبو بكر لعمر: ما أردت إلا خلافي، قال: ما أردت خلافك، فارتفعت أصواتهما في ذلك، فأنزل الله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ ﴾ الآية)، وقال ابن الزبير: (فما كان عمر يسمع رسول الله ﷺ بعد هذه الآية حتى يستفهمه)(١)، وأخرج ابن مردويه من طريق طارق بن شهاب عن أبي بكر قال: (لما نزلت ﴿ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ ﴾ الآية، قلت: يا رسول الله آليت ألا أكلمك إلا كأخي السرار)(٢).

وروى البخاري ومسلم عن أنس بن مالك ﷺ أن النبي ﷺ افتقد ثابت ابن قيس فقال رجل: يا رسول الله أنا أعلم لك علمه، فأتاه فوجده جالسًا في بيته منكسًا رأسه، فقال له: ما شأنك؟ فقال: شر، كان يرفع صوته فوق صوت النبي ﷺ فقد حبط عمله فهو من أهل النار، فأتى الرجل النبي ﷺ فأخبره أنه قال:

---

(١) رواه البخاري في صحيحه: كتاب التفسير، باب (لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي) (٨/ ٥٩٠)، برقم(٤٨٤٥).

(٢) فتح الباري (٨/ ٥٩١).

كذا وكذا، فرجع إليه المرة الآخرة ببشارة عظيمة، فقال: **"اذهب إليه فقل له: إنك لست من أهل النار، ولكنك من أهل الجنة"**(١).

ولم يكن هذا الامتثال والتطبيق والسمع والطاعة للقرآن مقصورًا على رجال الصحابة بل كان موجودًا في نسائهم رضي الله عن الجميع، ومن ذلك سرعة استجابتهن لأمر الله تبارك وتعالى في قوله ﴿ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ﴾ [النور: ٣١]، حيث روى البخاري عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: (يرحم الله نساء المهاجرات الأول، لما أنزل الله ﴿ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ﴾ شققن مروطهن فاختمرن بها)(٢)، كما شهدت بذلك لنساء الأنصار أيضًا، فقد روى ابن أبي حاتم عنها أنها قالت: (والله ما رأيت أفضل من نساء الأنصار، أشد تصديقًا بكتاب ولا إيمانًا بالتنزيل، لقد أنزلت سورة النور: ﴿ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ﴾ انقلب رجالهن إليهن يتلون عليهن ما أنزل إليهن فيها، ويتلو الرجل على امرأته وابنته وأخته وعلى كل ذي قرابة، ما منهن امرأة إلا قامت إلى مرطها المرحل فاعتجرت به تصديقًا وإيمانًا بما أنزل الله في كتابه، فأصبحن يصلين وراء رسول الله ﷺ الصبح معتجرات، كأن على رؤوسهن

---

(١) رواه البخاري في صحيحه: كتاب التفسير، باب (لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي) (٨/ ٥٩٠)، برقم(٤٨٤٦)، واللفظ له، ورواه مسلم في صحيحه: كتاب الإيمان، باب مخافة المؤمن أن يحبط عمله (٢/ ١٣٤).

(٢) رواه البخاري في صحيحه: كتاب التفسير، باب (وليضربن بخمرهن على جيوبهن) (٨/ ٤٨٩)، برقم(٤٧٥٨).

الغربان)[١]، وهكذا كانت هي أيضًا في السمع والطاعة لكلام الله تعالى، ولا أدل على ذلك من أنها لما هجرت ابن أختها عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما لأمر كان بينهما، قالت: (لله علي ألا أكلم ابن الزبير حتى أفارق الدنيا، فطالت هجرتها، فاستشفع ابن الزبير بكل أحد فأبت أن تكلمه، حتى كلمها المسور بن مخرمة وعبدالرحمن بن الأسود ودخلوا عليها، معهم ابن الزبير، فاعتنقها ابن الزبير فبكى وبكت بكاء كثيرًا، وناشدها الله والرحم أن تعفو وتصفح عنه – وكانت خالته – فلما أكثروا عليها ذلك كلمته وكفرت عن نذرها)[٢] امتثالاً لأمر الله تعالى بقوله ﴿ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوٓا۟ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [النور: ٢٢].

وبالعمل بالقرآن والاستجابة له أثنوا على من التزم ذلك، قال ابن مسعود ﷺ: (إن معاذ بن جبل كان أمة قانتًا لله حنيفًا، فقيل: ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا ﴾ فقال: ما نسيت، هل تدري ما الأمة وما القانت؟ فقلت: الله أعلم، فقال: الأمة الذي يعلم الخير، والقانت المطيع لله، وكان معاذ يعلم الناس الخير، ومطيعًا لله ولرسوله ﷺ)[٣].

وكان ابن مسعود ﷺ إذا رأى الربيع بن خثيم قال له: (يا أبا يزيد لو رآك

---

(١) تفسير ابن أبي حاتم (٨/ ٢٥٧٥)، وأبوداود: كتاب اللباس،باب (يدنين عليهن من جلابيبهن) (٤/ ٦١)، برقم(٤١٠٠).

(٢) رواه البخاري في صحيحه: كتاب الأدب، باب الهجرة (١٠/ ٤٩١ – ٤٩٢) برقم(٦٠٧٥).

(٣) حلية الأولياء (١/ ٢٣٠)، الدر المنثور (٥/ ١٧٦).

رسول الله ﷺ لأحبك وما رأيتك إلا ذكرت المخبتين)[١]، وقد قال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ۝ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [الحج: ٣٤-٣٥].

ومن دقيق حرصهم على الخير واستجابتهم للقرآن وتحريهم الأفضل والأكمل ما جاء في سيرة صفوان بن سليم، فإنه لما حج ومعه سبعة دنانير اشترى بها بدنة، وقال: إني سمعت الله عزَّ وجلَّ يقول: ﴿وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ﴾ [الحج: ٣٦][٢]، ومما هو مشهور في كتب التراجم والسير قصة الفضيل بن عياض في استجابته لكلام الله تعالى وتوبته مما كان فيه، فقد اشتهر عنه أنه كان قاطعًا للطريق مخيفًا للسالكين، ومرة عشق جارية، فبينا هو يرتقي الجدران إليها، إذ سمع تاليًا يتلو: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ [الحديد: ١٦] الآية، فلما سمعها قال: بلى يا رب، قد آن، فرجع فآواه الليل إلى خربة فإذا فيها سابلة -أي: مسافرون- فقال بعضهم: نرحل، وقال بعضهم: حتى نصبح، فإن فضيلاً على الطريق يقطع علينا، قال: ففكرت وقلت: أنا أسعى بالليل في المعاصي، وقوم من المسلمين هاهنا يخافوني، وما أرى الله ساقني إليهم إلا لأرتدع، اللهم إني قد تبت إليك، وجعلت توبتي مجاورة البيت الحرام)[٣].

---

(١) حلية الأولياء (٢/ ١٠٦، الدر المنثور (٦/ ٤٩).

(٢) حلية الأولياء (٣/ ١٦٠).

(٣) شعب الإيمان (٥/ ٤٦٨)، سير أعلام النبلاء (٨/ ٤٢٣٩، تهذيب الكمال (٢٣/ ٢٨٦).

ولا ريب أن العمل بالقرآن والسمع والطاعة له والتأدب بآدابه يحتاج إلى مجاهدة ومصابرة ومحاسبة بعد هذا كله، لقوله عليه الصلاة والسلام: "**والقرآن حجة لك أو عليك**"(١)، قال الإمام الآجري - بعد أن ذكر جملة من نعوت أهل القرآن وحملته المعتنين به- (جميع ما ذكرته ينبغي لأهل القرآن أن يتأدبوا به ولا يغفلوا عنه، فإذا انصرفوا عن تلاوة القرآن اعتبروا أنفسهم بالمحاسبة لها، فإن تبينوا منها قبول ما ندبهم إليه مولاهم الكريم مما هو واجب عليهم من أداء فرائضه واجتناب محارمه حمدوه في ذلك وشكروا الله على ما وفقهم له، وإن علموا أن النفوس معرضة عما ندبهم إليه مولاهم الكريم قليلة الاكتراث به استغفروا الله من تقصيرهم، وسألوه النقلة من هذه الحال التي لا تحسن بأهل القرآن ولا يرضاها لهم مولاهم إلى حال يرضاها، فإنه لا يقطع بمن لجأ إليه، ومن كانت هذه حاله وجد منفعة تلاوة القرآن في جميع أموره، وعاد إليه من بركة القرآن كل ما يحب في الدنيا والآخرة)(٢).

وعلى هذا كان سلفنا الصالح رحمهم الله تعالى يحاسبون أنفسهم على العمل بالقرآن ويوبخونها على التقصير ويأطرونها على الخير، متذكرين موقف الحساب أمام الله عزَّ وجلَّ، كان عمر ﷺ يقول: (حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وزنوا أعمالكم قبل أن توزنوا، فإن اليوم عمل ولا حساب وغدًا حساب ولا عمل)(٣)، وكان أبو الدرداء ﷺ يقول: (أخوف ما أخاف أن يقال لي

---

(١) جزء من حديث رواه مسلم في صحيحه: كتاب الطهارة، باب فضل الوضوء (٣/ ١٠٠).

(٢) أخلاق حملة القرآن (٧٦ – ٧٧).

(٣) الزهد لأحمد (١٧٧)، حلية الأولياء (١/ ٥٢).

يوم القيامة: يا عويمر أعلمت أم جهلت؟ فإن قلت: علمت، لا تبقى آية آمرة أو زاجرة إلا أخذت بفريضتها، الآمرة هل ائتمرت؟ والزاجرة هل ازدجرت؟ وأعوذ بالله من علم لا ينفع ونفس لا تشبع ودعاء لا يسمع)[١].

وقال الحسن البصري: (رحم الله عبدًا عرض نفسه وعمله على كتاب الله، فإن وافق كتاب الله حمد الله وسأله الزيادة، وإن خالف كتاب الله أعتب نفسه ورجع من قريب)[٢]، وقال أيضًا: (من أحب أن يعلم ما هو فليعرض نفسه على القرآن)[٣].

ومن صور محاسبتهم أنفسهم عل العمل بالقرآن قول سفيان: (ليس في كتاب الله آية أشد علي من قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [المائدة: ٦٨]، وإقامتها: فهمها والعمل بها)[٤].

وقال رجل لأبي جعفر يزيد بن القعقاع: (هنيئًا لك ما آتاك الله من القرآن، قال: ذاك إذا أحللت حلاله وحرَّمت حرامه، وعملت بما فيه)[٥]، وقال سفيان الثوري: (سمعنا أن قراءة القرآن أفضل الذكر إذا عمل به)[٦].

---

(١) حلية الأولياء (١/ ٢١٤).

(٢) أخلاق حملة القرآن (٢٠).

(٣) الزهد لابن المبارك (١٣)، السنة لعبد الله بن أحمد (١٤٨).

(٤) البدع والحوادث (١٠١).

(٥) سير أعلام النبلاء (٥/ ٢٨٨).

(٦) التذكار (٥٥).

إن المؤمن الصادق المحب لكتاب ربه يعرض أعماله عليه ويحاسب نفسه وفق منهجه، يقول مطرف بن عبدالله: (إني لأستلقي من الليل على فراشي، فأتدبر القرآن وأعرض عملي على عمل أهل الجنة،فإذا أعمالهم شديدة، ﴿ كَانُواْ قَلِيلاً مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴾ [الذاريات: ١٧]، ﴿ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَـٰمًا ﴾ [الفرقان: ٦٤]، ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَـٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا ﴾ [الزمر: ٩]، فلا أراني فيهم، فأعرض نفسي على هذه الآية ﴿ مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ ﴾ [المدثر: ٤٢]، فأرى القوم مكذبين، وأمر بهذه الآية ﴿ وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُواْ عَمَلاً صَـٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا ﴾ [التوبة: ١٠٢] فأرجو أن أكون أنا وأنتم يا إخوتاه منهم)(١).

هكذا كانوا – رحمهم الله – لهم خلوات ومجالس يحاسبون فيها أنفسهم ويتأملون فيها أعمالهم لينظروا أي الطريقين يسلكون، وعلى أي عمل يقدمون، يقول الحسن البصري: (إن المؤمن قوام على نفسه، يحاسب نفسه لله، وإنما خف الحساب يوم القيامة على قوم حاسبوا أنفسهم في الدنيا، وإنما شق الحساب يوم القيامة على قوم أخذوا هذا الأمر على غير محاسبة... إن المؤمنين قوم أوثقهم القرآن، وحال بينهم وبين هلكتهم، إن المؤمن أسير في الدنيا، يسعى في فكاك رقبته، لا يأمن شيئًا حتى يلقى الله عزَّ وجلَّ، يعلم أنه مأخوذ عليه في ذلك كله)(٢).

ويقول مالك بن دينار: (يا حملة القرآن ماذا زرع القرآن في قلوكم؟ فإن القرآن ربيع المؤمن، كما أن الغيث ربيع الأرض، فإن الله ينزل الغيث من السماء

---

(١) حلية الأولياء (٢/ ١٩٨).

(٢) حلية الأولياء (٢/ ١٥٧)، الزهد لابن المبارك (١٠٣)، مصنف ابن أبي شيبة (٧/ ١٨٨).

إلى الأرض، فيصيب الحش، فتكون فيه الحبة فلا يمنعها نتن موضعها أن تهتز وتخضر وتحسن، فيا حملة القرآن ماذا زرع القرآن في قلوبكم؟ أين أصحاب السورة؟ أين أصحاب السورتين؟ ماذا عملتم فيها؟)[١]، وكان رحمه الله القدوة والأسوة لهم، فقد قرأ مرةً قوله تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ [الحشر: ٢١] ثم قال: (أقسم لكم لا يؤمن عبد بهذا القرآن إلا صدع قلبه)[٢]، ويقول الحارث بن سعيد: (كنا عند مالك بن دينار، وعندنا قارئ يقرأ: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾ فجعل مالك ينتفض وأهل المجلس يبكون، حتى انتهى إلى هذه الآية: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ قال: فجعل مالك يبكي ويكثر البكاء)[٣].

ويعظم العمل بالقرآن ويتأكد لحامله المنتسب لأهله، فلزمه أن يحافظ على ما كرمه الله به وأعلى به قدره، وأن يقوم بالحقوق الواجبة عليه تجاه ربه وتجاه المخلوقين، مع التحلي بأخلاق القرآن والحذر مما نهى عنه أو توعد بالعقوبة الواقع فيه، وهو القدوة والأسوة لغيره، ومحط الأنظار عند الناس، يلحظونه في كل أحواله وتصرفاته، وتلك – وايم الله – مسؤولية عظيمة وأمانة كبيرة، أمانة الاقتداء به والنظر إليه والسير على نهجه بما أنعم الله به عليه ووفقه له، فكان عليه أن يتقي الله في ذلك، وأن لا يؤتى الإسلام من قبله.

---

(١) حلية الأولياء (٢/ ٣٥٨)، صفة الصفوة (٣/ ٢٧٣).

(٢) حلية الأولياء (٢/ ٣٧٨)، الزهد لابن أبي عاصم (٣١٩).

(٣) صفة الصفوة (٣/ ٢٧٩).

وفي أقوال سلفنا الصالح رحمهم الله تعالى تأكيد لهذا المعنى وحث عليه وتحذير من ضده، وبيان لآثاره الحسنة والسيئة عليه وعلى غيره، فقد كان عمر ﷺ يقول: (يا معشر القراء ارفعوا رؤوسكم فقد وضح لكم الطريق، فاستبقوا الخيرات، ولا تكونوا عيالاً على الناس)(١).

وقال حذيفة بن اليمان ﷺ: (يا معشر القراء استقيموا فقد سبقتم سبقًا بعيدًا، وإن أخذتم يمينًا وشمالاً لقد ضللتم ضلالاً بعيدًا)(٢)، وقال عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: (لو أن حملة القرآن أخذوه وما ينبغي له لأحبهم الله، ولكن طلبوا به الدنيا فأبغضهم الله وهانوا على الناس)(٣).

وزاد هذا الأمر إيضاحًا معاذ بن جبل ﷺ بقوله: (إن من ورائكم فتنًا يكثر فيها المال ويفتح القرآن، حتى يقرأه المؤمن والمنافق، والصغير والكبير، والأحمر والأسود، فيوشك قائل يقول: ما لي أقرأ على الناس القرآن فلا يتبعوني عليه، فما أظنهم يتبعوني عليه حتى أبتدع لهم غيره، إياكم إياكم وما ابتدع، فإن ما ابتدع ضلالة)(٤).

وقال شميط بن عجلان: (يعمد أحدهم فيقرأ القرآن ويطلب العلم، حتى إذا علمه أخذ الدنيا فضمها إلى صدره، وحملها على رأسه، فنظر إليه ثلاثة ضعفاء، امرأة ضعيفة وأعرابي جاهل وأعجمي، فقالوا: هذا أعلم بالله منا، لو لم

---

(١) التبيان (٤٣).

(٢) جامع الأصول (٣/ ٢٤ – ٢٥).

(٣) سبق تخريجه.

(٤) حلية الأولياء (١/ ٢٣٢ – ٢٣٣).

ير في الدنيا ذخيرة ما فعل هذا، فرغبوا في الدنيا وجمعوها، فمثله كمثل الذي قال الله عزَّ وجلَّ ﴿ لِيَحْمِلُوٓاْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴾ [النحل: ٢٥])[1].

وفي المقابل فقد ذم سلفنا الصالح من قرأ القرآن ونُسب إلى أهله فلم يعمل به ولم يتحلَّ بما يجب على أهله من التمسك به والسير على نهجه والاعتياض به عن غيره من الدنيا ومتاعها الفاني، وحذروا من هذا الصنيع وأبانوا خطره على صاحبه وضرره على غيره، من ذلك قول سفيان بن عيينة: (من أعطي القرآن فمد عينيه إلى شيء مما صغر القرآن فقد خالف القرآن، ألا تسمع قوله سبحانه وتعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ ﴾ [الحجر: ٨٧ – ٨٨]، وقال أيضًا: ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ [طه: ١٣١]، وقوله أيضًا: ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾ [طه: ١٣٢])[2]، وقال سفيان الثوري: (يا معشر القراء ارفعوا رؤوسكم، لا تزيدوا التخشع على ما في القلب، فقد وضح الطريق، فاتقوا الله وأجملوا في الطلب، ولا تكونوا عيالاً على المسلمين)[3].

وبيّن الإمام العابد كرز بن وبرة الحارثي حقيقة القارئ الصادق للقرآن

---

(١) حلية الأولياء (٣/ ١٣٠).

(٢) فضائل القرآن لأبي عبيد (٥٣)، وروى الطبري نحوه في تفسيره (١٤/ ٤٢).

(٣) حلية الأولياء (٦/ ٣٨٢).

بقوله: (لا يكون العبد قارئًا حتى يكون زاهدًا في الدرهم)[1]، قال الإمام الذهبي معلقًا على قوله: (هكذا كان زهاد السلف وعبادهم، أصحاب خوف وخشوع، وتعبد وقنوع، لا يدخلون في الدنيا وشهواتها، ولا في عبارات أحدثها المتأخرون من الفناء والمحو والاصطلام والاتحاد وأشباه ذلك، مما لا يسوغه كبار العلماء، فنسأل الله التوفيق والإخلاص ولزوم الاتباع)[2]، وبهذا كان الثناء على القراء الفقهاء من أصحاب ابن مسعود ﷺ، يقول الإمام الشعبي: (ما رأيت قومًا قط أكثر علمًا ولا أعظم حلمًا ولا أكف عن الدنيا من أصحاب عبد الله، ولولا ما سبقهم به الصحابة ما قدمنا عليهم أحدًا)[3].

فقد تضمنت الأقوال السابقة الزهد في الدنيا بمعناه الصحيح، وهو ألا يكون قارئ القرآن متعلقًا بها، مقدمًا إياها على أوامر الله والحقوق الواجبة عليه، وألا يكون حبه الشديد لها موقعًا إياه في الحرام منقادًا لشهواته أسيرًا لرغباته وحظوظه منها، ولم يكن مرادهم أن يكون القارئ عالة على غيره لا يعمل ولا يتكسب، فيعف نفسه وأهله، بل أمروا بالعمل المباح والاستغناء عن الآخرين والتعفف عن مسألتهم.

ومما حذر منه سلفنا الصالح قراء القرآن المنتسبين إلى أهله تركَ العمل به والتكسب عن طريقه، وإنما يكتفي أحدهم بالانتساب إلى أهله والتصنع أمام الناس بذلك، وهو في الحقيقة ليس منهم، فباطنه يخالف ظاهره، لا يُرى عليه

(١) سير أعلام النبلاء (٦/ ٨٦).

(٢) سير أعلام النبلاء (٦/ ٨٦).

(٣) سبق تخريجه.

القرآن في خلق ولا عمل، ولا اتباع ولا سنة، قال عاصم بن بهدلة: (قال لي أبو وائل شقيق بن سلمة: (أتدري ما أشبه قراء أهل زماننا؟ قلت: ومن يشبههم؟ قال: أشبههم برجل أسمن غنمًا، فلما أراد ذبحها وجدها غثى لا تنقي، أو رجل عمد إلى دراهم فلوس، فألقاها في زئبق، ثم أخرجها فكسرها فإذا هي نحاس)، وقال أيضًا: (مثل قراء أهل هذا الزمان كمثل غنم ضوائن ذات صوف، فغبط شاة منها فإذا هي لا تنقي، ثم غبط أخرى فإذا هي كذلك، فقال: أفٍ لك سائر اليوم، وكان يقول: إن أحسن ما زين به المصحف تلاوته بالحق)[(١)].

وقد أبان علي بن أبي طالب ﷺ أحوال القراء وأصنافهم بقوله – مخاطبًا إياس بن عامر –: (إنك إن بقيت فسيقرأ القرآن على ثلاثة أصناف، صنف لله، وصنف للدنيا، وصنف للجدل، فمن طلب به أدرك)[(٢)]، وقد سبق ذكر تفصيل الحسن البصري أحوال القراء بقوله: (قراء القرآن على ثلاثة أصناف: صنف اتخذوه بضاعة يأكلون به، وصنف أقاموا حروفه وضيعوا حدوده واستطالوا به على أهل بلادهم.. كثير هذا الضرب من حملة القرآن لا كثرهم الله، وصنف عمدوا إلى دواء القرآن فوضعوه على داء قلوبهم، واستشعروا الخوف وارتدوا الحزن، فأولئك يسقي الله بهم الغيث وينصر بهم على الأعداء، والله لهذا الضرب من حملة القرآن أعز من الكبريت الأحمر)[(٣)].

---

(١) ينظر لهما: حلية الأولياء (٤/ ١٠٤ – ١٠٥).

(٢) أخلاق حملة القرآن (٤١)، سنن الدارمي: كتاب فضائل القرآن: باب فضل من قرأ القرآن (٢/ ٤٣٤).

(٣) سبق تخريجه.

المطلب الثالث: حسن الاستدلال بالقرآن واستنباط الأحكام منه:

إن الذي يستجيب لكلام الله تعالى ويعيش في رحابه ويلتزمه، يظهر تأثره به في حسن استدلاله به واستنباط الأحكام منه، فيلهم ذلك ويوفق له، وهو من مظاهر تأثره بالقرآن الكريم، وبه فسر قوله تعالى: ﴿يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُولُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [البقرة: ٢٦٩].

قال ابن عباس رضي الله عنهما: (المعرفة بالقرآن ناسخه ومنسوخه ومحكمه ومتشابهه ومقدمه ومؤخره وحلاله وحرامه وأمثاله)، وقال أيضًا: (تفسيره والفقه فيه)، وروي نحوه عن أبي الدرداء وأبي العالية ومجاهد وإبراهيم النخعي وقتادة والضحاك وغيرهم[1].

وهذا الفهم والاستنباط وحسن الاستدلال من فضل الله عزَّ وجلَّ على عبده وتوفيقه له، روى البخاري عن أبي جحيفة قال: (سألت عليًّا ﷺ هل عندكم شيء مما ليس في القرآن؟ فقال: والذي فلق الحبة وبرأ النسمة ما عندنا إلا ما في القرآن، إلا فهمًا يعطى رجل في كتابه وما في الصحيفة، قلت: وما في الصحيفة؟ قال: العقل، وفكاك الأسير، ولا يقتل مسلم بكافر)[2].

وفي رواية للإمام أحمد والترمذي: (إلا فهمًا يعطيه الله عزَّ وجلَّ رجلاً في

---

(١) ينظر لما سبق: تفسير الطبري (٥/ ٩ - ١٠)، تفسير ابن أبي حاتم (٢/ ٥٣١)، الدر المنثور (١/ ٣٤٨).

(٢) رواه البخاري في صحيحه: كتاب العلم، باب كتابة العلم (١/ ٢٠٤)، برقم(١١١).

القرآن)[1].

قال المباركفوري: (وإنما وقع التفاوت من قبل الفهم ....، فمن رزق فهمًا وإدراكًا ووفق للتأمل في آياته والتدبر في معانيه فتح عليه أبواب العلوم)[2].

فحفظ القرآن والمداومة على تلاوته والنظر فيه معين على استظهار آياته ودقة الاستنباط منها وحسن الاستدلال بها، ولهذا يقول السعدي في معرض حديثه عن الاستدلال باللوازم في كتاب الله تعالى: (وأكثر من هذا، وداوم عليه حتى يصير لك ملكة جيدة في الغوص على المعاني الدقيقة، فإن القرآن حق، ولازم الحق حق، وما يتوقف على الحق حق، وما يتفرع على الحق حق، فمن وفق لهذه الطريقة وأعطاه الله توفيقًا ونورًا، انفتحت له في القرآن العلوم النافعة، والمعارف الجلية)[3].

إن من توفيق الله تعالى لعبده أن يرزقه الحكمة والثبات وحسن الاستدلال بالكتاب والسنة والتذكير بهما في الفتن والمشتبهات، والنوازل والمعضلات، وهذا ما كان لأبي بكر الصديق ﷺ لما توفي رسول الله ﷺ، فعن ابن عباس رضي الله عنهما: (أن أبا بكر ﷺ خرج حين توفي رسول الله ﷺ، وعمر يكلم الناس، فقال: اجلس يا عمر، فأبى عمر أن يجلس، فأقبل الناس إليه وتركوا عمر، فقال أبو بكر: أما بعد، من كان منكم يعبد محمدًا ﷺ فإن محمدًا قد

(١) رواه أحمد في مسنده (١/ ٧٩)، والترمذي: كتاب الديات، باب ما جاء لا يقتل مسلم بكافر (٤/ ٢٤ – ٢٥)، برقم (١٤١٢).

(٢) تحفة الأحوذي (٤/ ٦٦٩).

(٣) القواعد الحسان (٣٢).

مات، ومن كان منكم يعبد الله فإن الله حي لا يموت، قال الله: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ ﴾ [آل عمران: ١٤٤] الآية، قال: والله لكأن الناس لم يعلموا أن الله عزَّ و جلَّ أنزل هذه الآية حتى تلاها أبو بكر، فتلقاها منه الناس كلهم، فما أسمع بشرًا من الناس إلا يتلوها، وقال عمر: والله ما هو إلا أن سمعت أبا بكر تلاها، فقعدت حتى ما تقلني رجلاي، وحتى أهويت إلى الأرض، وعرفت حين سمعته تلاها أن رسول الله ﷺ قد مات)[1]، وكان لا يغيب عنه القرآن، والحث على الاستدلال به حتى في احتضاره، (فإنه لما حضره الموت تمثلت عائشة بهذا البيت:

أعـاذل مـا يغني الحـذار عن الفتى — إذا حشرجت يومًا وضاق بها الصدر

فقال أبو بكر: ليس كذلك يا بنية، ولكن قولي: ﴿ وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴾ [ق: ١٩]، ثم قال: انظروا ثوبيَّ هذين فاغسلوهما ثم كفنوني فيهما، فإن الحي أحوج إلى الجديد من الميت)[2].

وممن أوتي دقة في الاستنباط من القرآن وقوة في الاستدلال به مكحول الشامي، قال - رحمه الله تعالى -: (اجتمعت أنا والزهري فتذاكرنا التيمم، فقال الزهري: المسح إلى الآباط، فقلت: عمن أخذت هذا؟ قال: عن كتاب الله، إن الله تعالى يقول ﴿ فَٱغْسِلُوا۟ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ ﴾ [المائدة: ٦] فهي يدٌ كلها، قلت: فإن الله تعالى يقول ﴿ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓا۟ أَيْدِيَهُمَا ﴾ [المائدة: ٣٨]، فمن

(١) رواه البخاري في صحيحه: كتاب المغازي، باب مرض النبي ﷺ ووفاته (٨/ ١٤٥)، برقم(٤٤٥).

(٢) الموطأ (١/ ٢٢٤)، مصنف عبد الرزاق (٣/ ٤٢٣)، مصنف ابن أبي شيبة (٢/ ٤٦٤).

أين تقطع اليد؟ قال: فخصمته)[1]، وقال أيضًا: (أربع من كن فيه كن له، وثلاث من كن فيه كن عليه، فأما الأربع اللاتي له، فالشكر والإيمان والدعاء والاستغفار، قال الله تعالى: ﴿ مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ﴾ [النساء: ١٤٧]، وقال: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ [الأنفال: ٣٣] وقال: ﴿ قُلْ مَا يَعْبَؤُاْ بِكُمْ رَبِّى لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ ﴾ [الفرقان: ٧٧].

وأما الثلاث اللاتي عليه فالمكر والبغي والنكث، قال الله تعالى: ﴿ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ﴾ [الفتح: ١٠]، وقال: ﴿ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ﴾ [فاطر: ٤٣]، وقال: ﴿ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم ﴾ [يونس: ٢٣])[2].

وممن روي عنه ذلك أيضًا أبو حازم سلمة بن دينار، كان مشهورًا بقوة الحفظ وسرعة الاستظهار من القرآن، قال له محمد بن المنكدر: (يا أبا حازم ما أكثر من يلقاني فيدعو لي بخير، ما أعرفهم وما صنعت إليهم خيرًا قط، فقال له أبو حازم: لا تظن أن ذلك من عملك، ولكن انظر الذي ذلك من قبله فاشكره، وقرأ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴾ [مريم: ٩٦])[3].

وقال له سليمان بن عبد الملك: (يا أبا حازم ما لنا نكره الموت؟ فقال: لأنكم عمرتم الدنيا وخربتم الآخرة، فتكرهون الخروج من العمران إلى الخراب، قال: صدقت، فقال: يا أبا حازم ليت شعري ما لنا عند الله تعالى غدًا؟

---

(١) حلية الأولياء (٥/ ١٧٩)، الجامع لأحكام القرآن (٥/ ٢٤٠).

(٢) حلية الأولياء (٥/ ١٨١، الجامع لأحكام القرآن (٥/ ٤٢٦).

(٣) حلية الأولياء (٣/ ٢٣٣).

قال: اعرض عملك على كتاب الله عزَّ وجلَّ، قال: فأين أجده؟ قال: قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ۝ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ﴾ [الانفطار: ١٣ - ١٤]، قال سليمان: فأين رحمة الله؟ قال أبو حازم: قريب من المحسنين)[1].

هكذا كانت مواعظ السلف ووصاياهم قائمة على نصوص الوحيين الكتاب والسنة، يكثرون من إيراد الأدلة ويحسنون الاستدلال بها، لعلمهم أن كلام الله عزَّ وجلَّ أعظم تأثيرًا وأبلغ موعظة ﴿لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧]، يقول تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر: ٢١].

قال الضحاك في تفسير هذه الآية: (يقول تعالى لو أنزلت هذا القرآن على جبل فأمرته بالذي أمرتكم، وخوفته بالذي خوفتكم به إذًا يصدع ويخشع من خشية الله، فأنتم أحق أن تخشوا وتذلوا وتلين قلوبكم لذكر الله)[2]، وقد أبان هذا سفيان بن عيينة فيما رواه عنه الفضيل بن عياض حين وقف على رأس سفيان وحوله جماعة فقال له: (يا أبا محمد ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٨] فقال له سفيان: يا أبا علي والله لا يفرح أبدًا حتى يأخذ دواء القرآن فيضعه على داء قلبه)[3].

---

(١) تاريخ بغداد (٦/ ٦٩)، صفة الصفوة (٢/ ١٥٨)، الجامع لأحكام القرآن (١/ ٣٣٧).

(٢) الدر المنثور (١٤/ ٣٩٦)، وعزاه لابن المنذر.

(٣) حلية الأولياء (٧/ ٢٧٩)، شعب الإيمان (٢/ ٥٣١).

ولكثرة نظره في القرآن واستحضاره وعلمه بمعانيه كان كثير الوقوف على هداياته ودلالاته دقيق الاستنباط منه، حاضر الاستدلال به، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، من ذلك قوله: (من أعطي القرآن فمد عينيه إلى شيء مما صغر القرآن فقد خالف القرآن، ألم تسمع قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴾ [طه: ١٣١] يعني: القرآن)(١).

وقال أيضًا: (أكبر الكبائر الشرك بالله والقنوط من رحمة الله واليأس من رَوْح الله والأمن من مكر الله، ثم تلا قوله تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ﴾ [المائدة: ٧٢]، وقوله ﴿ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴾ [الحجر: ٥٦]، وقوله ﴿ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ [يوسف: ٨٧]، وقوله ﴿ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ [الأعراف: ٩٩])(٢).

وبين – رحمه الله تعالى – فضل العلم على العمل وتقدمه عليه في مواضع من القرآن لما سئل عن ذلك، فقال: (ألم تسمع إلى قوله حين بدأ به فقال: ﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ [محمد: ١٩]، ثم أمره بالعمل فقال: ﴿ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ ﴾، وقال: ﴿ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ﴾ [الحديد: ٢٠] إلى قوله آمرًا بالعمل: ﴿ سَابِقُوٓا۟ إِلَىٰ

(١) فضائل القرآن لأبي عبيد (٥٣)، تفسير الطبري (١٤/ ٤٢).

(٢) حلية الأولياء (٧/ ٢٩٨).

مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [الحديد: ٢١] الآية، وقال: ﴿ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ﴾ [الأنفال: ٢٨] الآية، ثم في سورة التغابن قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ ۚ وَإِن تَعْفُواْ وَتَصْفَحُواْ وَتَغْفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التغابن: ١٤]، وقال تعالى: ﴿ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ ﴾ [الأنفال: ٤١] الآية، ثم أمر بالعمل به)[١].

ومن دقيق استنباطاته وحسن استدلالاته قوله: (ليس في الأرض صاحب بدعة إلا وهو يجد ذلة تغشاه، قال وهي في كتاب الله، قالوا: وأين هي من كتاب الله؟، قال: أما سمعتم قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ [الأعراف: ١٥٢]، قالوا: يا أبا محمد هذه لأصحاب العجل خاصة، قال: كلا، اتلوا ما بعدها: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُفْتَرِينَ ﴾ فهي لكل مفتر ومبتدع إلى يوم القيامة)[٢].

وممن روي عنه ذلك الاستنباط والوعظ بالقرآن الربيع بن خثيم، قال رحمه الله تعالى: (إذا تكلمت فاذكر سمع الله إليك، وإذا نظرت فاذكر نظره إليك، وإذا تفكرت فاذكر اطلاعه عليك، فإنه يقول تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾ [الإسراء: ٣٦])[٣].

---

(١) حلية الأولياء (٧/ ٢٨٥، ٣٠٥).

(٢) حلية الأولياء (٧/ ٢٨٠).

(٣) حلية الأولياء (١٠/ ٣٥٨)، صفة الصفوة (٣/ ٦٨، ٤/ ١٦٢).

المطلب الرابع: قيام الليل بالقرآن ودعاء الله به:

إن من توفيق الله لعبده إعانته على طاعته والتقرب إليه بعبادته، ومن أفضل الأعمال بعد الفرائض قيام الليل بالصلاة والدعاء وتلاوة القرآن والاستغفار، فهو شعار الصالحين ومن سمات عباد الله المتقين، ومن الأسباب العظيمة الموجبة لدخول الجنة بعد رحمة أرحم الراحمين، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ [الذاريات: ١٥ – ١٨].

وقال تعالى: ﴿ لَيْسُوا۟ سَوَآءً ۗ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴾ [آل عمران: ١١٣]، وأمر تعالى به نبيه ﷺ والأمر لأمته من بعده فقال عزَّ وجلَّ: ﴿ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴾ [الإسراء: ٧٩]، وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ﴿١﴾ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢﴾ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ﴿٣﴾ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ﴾ [المزمل: ١ – ٤].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ: "**وأفضل الصلاة بعد الفريضة صلاة الليل**" رواه مسلم[١].

وثبت في الصحيحين عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: "**نعم الرجل عبد الله لو كان يصلي من الليل**"، قال سالم: فكان عبد الله

---

(١) جزء من حديث رواه في كتاب الصوم: باب فضل صوم المحرم، (٨/ ٥٥).

بعد ذلك لا ينام من الليل إلا قليلاً[١].

وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: **"يا عبد الله لا تكن مثل فلان كان يقوم الليل ثم تركه"**[٢]، وقال عليه الصلاة والسلام **"يتنزل ربنا تبارك وتعالى كل ليلة إلى سماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر، فيقول من يدعوني فأستجيب له؟ من يسألني فأعطيه؟ من يستغفرني فأغفر له؟"** رواه البخاري ومسلم[٣]، وروى الطبراني وغيره عن سهل بن سعد ﷺ عن رسول الله ﷺ قال: **"شرف المؤمن قيام الليل"**[٤]، والأحاديث والآثار في هذا كثيرة.

ولتلاوة القرآن في جوف الليل قائمًا به يرتله في صلاته فضل عظيم وشأن كبير ومزية لا تكون في غيره، فعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما عن النبي

---

(١) جزء من حديث رواه البخاري في صحيحه: كتاب التهجد، باب فضل قيام الليل (٣/ ٦)، برقم(١١٢٢)، ومسلم في صحيحه: كتاب فضائل الصحابة رضي الله عنهم (١٦/ ٣٩).

(٢) رواه البخاري في صحيحه: كتاب التهجد، باب ما يكره من ترك قيام الليل لمن كان يقومه (٣/ ٣٧)، برقم(١١٥٢)، ومسلم في صحيحه: كتاب الصوم، باب النهي عن صوم الدهر (٨/ ٤٤).

(٣) رواه البخاري في صحيحه: كتاب الدعوات، باب الدعاء نصف الليل (١١/ ١٢٩)، برقم(٦٣٢١)، ورواه مسلم في صحيحه: كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب صلاة الليل (٦/ ٣٦)، كلاهما عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) رواه ا لطبراني في الكبير (٤/ ٣١٧)، والأوسط (٣/ ٣٠٦)، والبيهقي في شعب الإيمان (٣/ ١٧١)، وذكره الهيثمي في المجتمع (٢/ ٢٥٦)، وقال (رواه الطبراني في الأوسط، وفيه زافر ابن سليمان، وثقه أحمد وابن معين وأبوداود وتكلم فيه ابن عدي وابن حبان بما لا يضر) وقال عبد القادر الأرناؤوط في تخريج التبيان للنوي (٥١)، سنده حسن.

ﷺ قال: **"من قام بعشر آيات لم يكتب من الغافلين، ومن قام بمائة آية كتب من القانتين، ومن قام بألف آية كتب من المقنطرين"**[١].

وبهذا العمل تكون الغبطة والفرح، فعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: **"لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله القرآن، فهو يقوم به آناء الليل والنهار، ورجل آتاه الله مالاً فهو ينفقه في الليل والنهار"**[٢].

قال الإمام النووي: (وإنما رجحت صلاة الليل وقراءته لكونها أجمع للقلب، وأبعد عن الشاغلات والملهيات والتصرف في الحاجات، وأصون من الرياء وغيره من المحبطات، مع ما جاء الشرع به من إيجاد الخيرات في الليل، فإن الإسراء برسول الله ﷺ كان ليلاً، وحديث: **"ينزل ربكم كل ليلة إلى سماء الدنيا حين يمضي شطر الليل، فيقول: هل من داع فأستجيب له"** الحديث، وفي الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: **"في الليل ساعة يستجيب الله فيها الدعاء كل ليلة"**[٣])، [٤].

---

(١) رواه أبوداود في سننه: كتاب الصلاة، باب تحريب القرآن (٢/ ٥٧)، برقم (١٣٩٨)، وإسناده جيد، قاله الألباني في السلسة الصحيحة رقم(٦٤٢).

(٢) رواه البخاري في صحيحه: كتاب التوحيد، باب قول النبي ﷺ (رجل آتاه الله القرآن) (١٣/ ٥٠٢)، برقم(٧٥٢٩)، ومسلم في صحيحه: كتاب صلاة المسافرين وقصرها: باب فضل من يقوم القرآن ويعلمه (٦/ ٩٧).

(٣) رواه مسلم في صحيحه: كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب صلاة الليل، من حديث جابر ﷺ (٦/ ٣٦).

(٤) التبيان (٥٢ – ٥٣).

ولا غرو أن المنتفع بالقرآن المتأثر به يغتنم ما تيسر له من الليل بالصلاة وتلاوة القرآن، يطلب بذلك الأجر والمثوبة، ويتحرى ساعة الإجابة، وقت نزول الرب تبارك وتعالى إلى سماء الدنيا.

ولهذا اجتهد سلفنا الصالح رحمهم الله تعالى في إحياء ليلهم بالصلاة وتلاوة القرآن والدعاء والاستغفار، وتواصوا فيما بينهم على ذلك، فإن فاتهم شيء منه قضوه بالنهار، مع محاسبة النفس على التفريط ومجاهدتها على الخير والدوام عليه، يحكي ذلك عنهم علي بن أبي طالب ﷺ فيقول: (لقد رأيت أصحاب رسول الله ﷺ فما أرى اليوم شيئًا يشبههم، لقد كانوا يصبحون شعثًا صفرًا غبرًا، بين أعينهم أمثال ركب المعزى، قد باتوا لله سجدًا وقيامًا، يتلون كتاب الله، يراوحون بين جباههم وأقدامهم، فإذا أصبحوا فذكروا الله مادوا كما تميد الشجرة في يوم الريح، وهملت أعينهم حتى تبل ثيابهم، والله لكأن القوم باتوا غافلين)[1].

كما حكاه عنهم أبو الأحوص عوف بن مالك الجشمي بقوله: (إن كان الرجل ليطرق الخباء، فيسمع فيه كدوي النحل، فما لهؤلاء يأمنون ما كان أولئك يخافون)[2]، وبهذا كانت الوصية بينهم، يقول إبراهيم النخعي: (اقرؤوا من الليل ولو حلب شاة)[3].

---

(١) حلية الأولياء (١/ ٧٦).

(٢) فضائل القرآن لأبي عبيد (٦١)، التبيان (٥٢).

(٣) التبيان (٥٢).

وأمثلة ذلك في سيرهم العطرة كثيرة، منها ما رواه مسلم عن أبي موسى الأشعري ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ لأبي موسى: **"لو رأيتني وأنا أستمع لقراءتك البارحة، لقد أوتيت مزمارًا من مزامير آل داود"**[١].

وعن الربيع بن أنس قال: (كان أبو بكر ﷺ إذا صلى من الليل خفض صوته جدًّا، وكان عمر ﷺ إذا صلى رفع صوته جدًّا، فقال عمر: يا أبا بكر لو رفعت من صوتك شيئًا، وقال أبو بكر: يا عمر لو خفضت من صوتك شيئًا، فأتيا رسول الله ﷺ فأخبراه بأمرهما، فأنزل الله تعالى ﴿ **وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا** ﴾ [الإسراء: ١١٠] الآية، فأرسل النبي ﷺ إليهما فقال: **"يا أبا بكر ارفع من صوتك شيئًا"**، وقال لعمر: **"اخفض من صوتك شيئًا"**[٢]، وفي رواية: (فقيل لأبي بكر: لم تصنع هذا؟ قال: أناجي ربي وقد علم حاجتي، وقيل لعمر: لم تصنع هذا؟ فقال: أطرد الشيطان وأوقظ الوسنان، فلما نزلت ﴿ **وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا** ﴾ قيل لأبي بكر ﷺ: ارفع شيئًا، وقيل لعمر ﷺ: اخفض شيئًا)[٣].

---

(١) رواه مسلم في صحيحه: كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب استحباب تحسين الصوت بالقرآن (٦/ ٨٠)، ورواه البخاري مختصرًا في صحيحه: كتاب فضائل القرآن، باب حسن الصوت بالقراءة للقرآن (٩/ ٩٢)، برقم(٥٠٤٨)، قال النووي: (قال العلماء: المراد بالمزمار هنا الصوت الحسن، وأصل الزمر الغناء، وآل داود هو داود نفسه، وآل فلان قد يطلق على نفسه، وكان داود عليه السلام حسن الصوت جدًّا" شرح النووي على صحيح مسلم (٦/ ٨٠).

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٥/ ٣٥٠).

(٣) رواه ا لطبري في تفسيره (١٥/ ١٢٤)، وذكره السيوطي في الدر المنثور (٥/ ٣٥٠).

وعن أبي عثمان النهدي قال (تضيفت أبا هريرة ﷺ سبعًا، فكان هو وامرأته وخادمه يعتقبون الليل أثلاثًا، يصلي هذا ثم يوقظ هذا، ويصلي هذا ثم يوقظ هذا)(١).

وقال عقبة بن عامر الجهني ﷺ: (ما تركت حزب سورة من القرآن من ليلتها منذ قرأت القرآن)(٢)، وجاء في سيرة الربيع بن خثيم الكوفي: (أنه كان يقوم من الليل ما كتب له، فتناديه أمه: يا ربيع ألا تنام، فيقول: يا أمه من جن عليه الليل وهو يخاف البيات حق له أن لا ينام)(٣)، متذكرًا قوله تعالى: ﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ﴾ [الأعراف: ٤]، ومثل ذلك ما جاء في سيرة أبي حنيفة النعمان بن ثابت، فقد روى القاسم بن معن: (أنه قام ليلة يردد قوله تعالى: ﴿بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ﴾ [القمر: ٤٦]، يبكي ويتضرع إلى الفجر)، يقول أبو عاصم النبيل: (كان أبو حنيفة يُسمَّى الوتد لكثرة صلاته)(٤)، وقال ابن جريج: (كان عطاء بعد ما كبر وضعف يقوم إلى الصلاة فيقرأ مائتي آية من سورة البقرة، وهو قائم لا يزول منه شيء ولا يتحرك)(٥)، وقال عبدالله بن الإمام أحمد (كان أبي يقرأ كل يوم سبعًا، وكان ينام

(١) ينظر: سير أعلام النبلاء (٢/ ٦٠٩).
(٢) فضائل القرآن لأبي عبيد ص(٩٥).
(٣) ينظر: حلية الأولياء (٢/ ١١٤)، سير أعلام النبلاء (٤/ ٢٦٠).
(٤) ينظر لهما: تاريخ بغداد (١٣/ ٣٤٥، ٣٥٧)، تهذيب الأسماء واللغات (٢/ ٥٠٥)، سير أعلام النبلاء (٦/ ٤٠٠ - ٤٠١).
(٥) ينظر: حلية الأولياء (٣/ ٣١٠)، الزهد لابن أبي عاصم (١/ ٣٧٧)، شعب الإيمان (٣/ ١٤٨)، صفة الصفوة (٢/ ٢١٣)، سير أعلام النبلاء (٥/ ٨٧).

نومة خفيفة بعد العشاء، ثم يقول إلى الصباح يصلي ويدعو)[١].

بل قد بلغوا - رحمهم الله تعالى - في هذا مبلغًا عظيمًا، حين أحبوا قيام الليل للصلاة وتلاوة القرآن والدعاء، لما يجدون في ذلك من الأنس ولذة التلاوة وحلاوة المناجاة، واشتاقوا إلى قدومه حيث يجدون فيه راحتهم وسعادتهم، ويسألون الله تعالى المزيد من فضله، وألا يحرمهم هذا الخير الذي وفقوا له وأعينوا عليه، وقد حرمه آخرون.

لما حضرت معاذ بن جبل الخزرجي الأنصاري الوفاة قال: (اللهم إن كنت تعلم أني لم أكن أحب الدنيا وطول البقاء فيها لكري الأنهار ولا لغرس الشجر، ولكن لظمأ الهواجر، ومكابدة الساعات، ومزاحمة العلماء بالركب عند حلق الذكر)[٢]، وقال أبو زيد معضد العجلي: (لولا ظمأ الهواجر وطول ليل الشتاء ولذاذة التهجد بكتاب الله عزَّ وجلَّ ما باليت أن أكون يعسوبًا)[٣]، وقال عمرو بن عتبة بن فرقد السلمي الكوفي: (سألت الله ثلاثًا فأعطاني اثنتين وأنا أنتظر الثالثة، سألته أن يزهدني في الدنيا، فما أبالي ما أقبل منها وما أدبر، وسألته أن يقويني على الصلاة فرزقني منها، وسألته الشهادة فأنا أرجوها)[٤]، وكان من دعاء أبي الحلال زرارة بن ربيعة العتكي لما كبر: (اللهم لا تسلبني القرآن)[٥]،

---

(١) سير أعلام النبلاء (١١/ ٢١٤).

(٢) الزهد لأحمد ص(٢٦٥).

(٣) فضائل القرآن لأبي عبيد ص(٦٠)، الزهد والرقائق لابن المبارك ص(٩٤)، واليعسوب: ذكر النحل، القاموس (١/ ١٠٥).

(٤) حلية الأولياء (٤/ ١٥٥).

(٥) حلية الأولياء (٣/ ١٠٥).

وقد سبق قول ثابت البناني: (ما شيء أجده في قلبي ألذ عندي من قيام الليل).

ومن صور حبهم قيام الليل بالقرآن وعدم الإخلال بجزء منه محافظتهم على ذلك في السفر، مع ما ينالهم فيه من التعب والمشقة، وبخاصة في تلك الأزمان، قال همام بن يحيى العوذي: (ما رأيت قط أصبر على طول القيام والسهر من ثابت البناني، صحبناه مرة إلى مكة، فكنا إن نزلنا ليلاً فهو قائم يصلي، وإلا فمتى شئت أن تراه أو تحس به مستيقظًا ونحن نسير إما باكيا وإما تاليًا)[1]، وقال أبو الطيب موسى بن يسار (صحبت محمد بن واسع الأزدي البصري من مكة إلى البصرة، فكان يصلي الليل في المحمل جالسًا، يومئ برأسه إيماء، وكان يأمر الحادي يكون خلفه ويرفع صوته حتى لا يفطن له)[2]، ولا شك أن مجالسة هؤلاء العلماء والسفر معهم يزيد الإيمان ويعين على الطاعة، يقول بشر الحافي: (عليك بمجالسة القراء والتفقه في الدين)[3].

وكانوا يحافظون على وردهم من الليل ويداومون عليه، فإن فاتهم قضوه من النهار، امتثالاً لسنة النبي ﷺ، ففي صحيح مسلم عن عمر بن الخطاب ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **"من نام عن حزبه أو عن شيء منه فقرأه فيما بين صلاة الفجر وصلاة الظهر كتب له كأنما قرأه من الليل"**[4].

ومن أمثلة ذلك ما رواه عبد الرحمن بن عبد القارئ قال: استأذنت على

---

(١) صفة الصفوة (٣/ ٢٦٢).

(٢) حلية الأولياء (٢/ ٣٤٦).

(٣) حلية الأولياء (٨/ ٣٦٠).

(٤) رواه مسلم في صحيحه: كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب صلاة الليل (٦/ ٢٩).

عمر بالهاجرة، فحبسني طويلاً، ثم أذن لي وقال: (إني كنت في قضاء وردي)[١]، وعن خيثمة قال: دخلت على عبد الله بن عمرو وهو يقرأ في المصحف، فقلت له، فقال: (هذا جزئي الذي أقرأ به الليلة)[٢]، وممن روي عنه المحافظة على تلاوة حزبه من القرآن لا يخل بذلك، فإن يتيسر له أداؤه أو بقي بعضه أتمه بالنهار الإمام عبد الله بن عون الهلالي، يقول بكار بن محمد السيريني: (كان له – أي لعبد الله بن عون – سُبُع يقرؤه كل ليلة، فإذا لم يقرأه أتمه بالنهار)[٣]، ويحكي إبراهيم النخعي حالهم في المحافظة على حزبهم من القرآن وقضائه إن لم يتيسر لهم أداؤه في وقته فيقول: (كان أحدهم إذا بقي عليه من حزبه شيء فنشط قرأه بالنهار، أو قرأه من ليلة أخرى، قال: وربما زاد أحدهم)[٤].

وكانوا يحافظون على حزبهم منه حتى في أيام الجهاد لا يشغلهم عنه شاغل، يحكي ذلك سعد بن أبي وقاص عمن كان معه في كتابه إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنهم أجمعين يبشره فيه بنصرهم على الفرس في القادسية، ومما جاء فيه: (أما بعد فإن الله نصرنا على أهل فارس ومنحناهم سنن من كان قبلهم من أهل دينهم... وأصيب من المسلمين سعد بن عبيد القارئ وفلان وفلان، ورجال من المسلمين لا يعلمهم إلا الله، فإنه بهم عالم، كانوا يدوون بالقرآن إذا جن عليهم الليل كدوي النحل، وهم آساد في النهار لا تشبههم الأسود، ولم

(١) فضائل القرآن لأبي عبيد (٩٣).

(٢) فضائل القرآن لأبي عبيد (٩٣).

(٣) سير أعلام النبلاء (٦/ ٣٧٠).

(٤) فضائل القرآن لأبي عبيد (٩٥).

يفضل من مضى منهم من بقي إلا بفضل الشهادة إذا لم تكتب لهم)(١).

وكان من هديه عليه الصلاة والسلام سؤال الله تعالى من فضله ورحمته عند آيات الرحمة والتعوذ به عند ذكر الوعيد والعذاب، وتنزيهه وتسبيحه عند ذكره تعالى، فعن حذيفة بن اليمان ﷺ قال: (صليت مع رسول الله ﷺ ذات ليلة فافتتح البقرة، فقلت يركع عند المائة، ثم مضى فقلت يصلي بها في ركعة، فمضى فقلت يركع بها، ثم افتتح النساء فقرأها، ثم افتتح آل عمران فقرأها، يقرأ مترسلاً، إذا مر بآية فيها تسبيح سبح، وإذا مر بسؤال سأل، وإذا مر بتعوذ تعوذ)(٢).

وقد اقتدى بهذا سلفنا الصالح، يقول حسين الكرابيسي: (بت مع الشافعي ليلة، فكان يصلي نحو ثلث الليل، فما رأيته يزيد على خمسين آية، فإذا أكثر فمائة آية، وكان لا يمر بآية رحمة إلا سأل الله، ولا يمر بآية عذاب إلا تعوذ، وكأنما جمع له الرجاء والرهبة جميعًا)(٣).

ومن مظاهر التأثر بالقرآن واستحضاره في قلب القارئ الداعي دعاؤه الله به، وهذا أفضل الدعاء، أن يكون بما في القرآن الكريم، إذ لا أبلغ ولا أنجح ولا أفضل من أدعية القرآن الكريم أو ما يدل عليه، فمن تأمل الأدعية المأثورة التي جاءت في كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ وجد فيها الكمال والوفاء بتحقيق المطالب العالية والمقاصد الرفيعة، والخير الكامل في الدنيا والآخرة، مع السلامة

---

(١) البداية والنهاية (٧/ ٤٦).

(٢) رواه مسلم في صحيحه: كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب استحباب تطويل القراءة في صلاة الليل (٦/ ٦١ – ٦٢).

(٣) سير أعلام النبلاء (١٠/ ٣٥).

والأمان بها من الوقوع في الخطأ والزلل، فهي معصومة من ذلك، لأنها وحي الله وتنزيله، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: (ينبغي للخلق أن يدعوا بالأدعية الشرعية التي جاء بها الكتاب والسنة، فإن ذلك لا ريب في فضله وحسنه، وأنه الصراط المستقيم، صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقًا)(١).

ومن أمثلة ذلك ما ثبت في الصحيحين عن أنس بن مالك ﷺ قال: (كان أكثر دعاء النبي ﷺ ﴿ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي ٱلْأَخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة: ٢٠١])(٢).

وقد امتثل ذلك الصحابة وحرصوا عليه اقتداء به عليه الصلاة والسلام ورغبة في الخير، يقول قتادة الراوي عن أنس الحديث السابق: (وكان أنس إذا أراد أن يدعو بدعاء دعا بها فيه)، وعن حبيب بن صهبان الكاهلي قال: (كنت أطوف بالبيت وعمر بن الخطاب يطوف ما له إلا قول ﴿ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي ٱلْأَخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾)(٣).

وعن ابن أبي نجيح قال: (كان أكثر كلام عمر وعبد الرحمن بن عوف في

---

(١) مجموع الفتاوى (١/ ٣٤٦).

(٢) رواه البخاري في صحيحه: كتاب الدعوات، باب قول النبي ﷺ (ربنا آتنا في الدنيا حسنة)، (١١/ ١٩١)، برقم(٦٣٨٩)، ومسلم في صحيحه: كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب فضل الدعاء باللهم آتنا في الدنيا حسنة...(١٧/ ١٦).

(٣) المصنف لابن أبي شيبة (١٠/ ٢٦٢)، زوائد الزهد لعبد الله بن أحمد (١١٧)، الدر المنثور (٢/ ٤٥٠).

الطواف ﴿ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي ٱلْأَخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ (١)، فهذا الدعاء العظيم اشتمل الخير كله في الدنيا والآخرة، يقول القاضي عياض: (إنما كان يكثر الدعاء بهذه الآية لجمعها معاني الدعاء كله من أمر الدنيا والآخرة)(٢)، وقد روي عن السلف في المراد بالحسنة في الدنيا والحسنة في الآخرة أقوال كثيرة، جمعها الحافظ ابن كثير في قوله: (جمعت هذه الدعوة كل خير في الدنيا وصرفت كل شر، فإن الحسنة في الدنيا تشمل كل مطلوب دنيوي من عافية ودار رحبة وزوجة حسنة ورزق واسع وعلم نافع وعمل صالح ومركب هنيء وثناء جميل، إلى غير ذلك مما اشتملت عليه عبارات المفسرين، ولا منافاة بينها فإنها كلها مندرجة في الحسنة في الدنيا، وأما الحسنة في الآخرة فأعلى ذلك دخول الجنة وتوابعه من الأمن من الفزع الأكبر في العرصات وتيسير الحساب، وغير ذلك من أمور الآخرة الصالحة، وأما النجاة من النار فهو يقتضي تيسير أسبابه في الدنيا، من اجتناب الآثام وترك الشبهات والحرام)(٣).

وعلى هذا كان يربي السلف طلابهم ومن حولهم الارتباط بأدعية القرآن رجاء بركتها ونفعها، فقد روى ابن أبي حاتم عن عبد السلام بن شداد قال: (كنت جالسًا عند أنس بن مالك ﷺ فقال له ثابت: إن إخوانك يحبون أن تدعو لهم فقال: ﴿ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي ٱلْأَخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ وتحدثوا ساعة، حتى إذا أرادوا القيام قال أبو حمزة: إن إخوانك يريدون القيام

---

(١) الدر المنثور (٢/ ٤٥٠).

(٢) فتح الباري (١١/ ١٩٢).

(٣) تفسير القرآن العظيم (١/ ٢٤٤).

فادع الله لهم، فقال: أتريدون أن أشقق لكم الأمور، إذا آتاكم الله في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة ووقاكم عذاب النار فقد آتاكم الخير كله)(١).

ومن الأدعية التي كان يحافظ عليها النبي ﷺ قوله: **"يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك"** تقول أم سلمة رضي الله عنها: (وكان يقرأ ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴾ [آل عمران: ٨])، وفي رواية أنها قالت: (يا رسول الله ما أكثر ما تدعو بهذا الدعاء، فقال: **"ليس من قلب إلا وهو بين أصبعين من أصابع الرحمن إذا شاء أن يقيمه أقامه، وإذا شاء أن يزيغه أزاغه، أما تسمعين قوله تعالى:** ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴾)(٢).

ومن أدعية القرآن التي واظب عليها سلفنا الصالح ما دل عليه قوله تعالى: ﴿ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [الحشر: ٩، التغابن: ١٦].

فعن عبد الرحمن بن عوف ﷺ: (أنه كان يطوف بالبيت يقول: اللهم قني شح نفسي، لا يزيد على ذلك، فقيل له، فقال: إذا وقيت شح نفسي لا أسرق ولا أزني، ولم أفعل شيئًا)(٣).

---

(١) تفسير القرآن لابن أبي حاتم (٢/ ٣٥٩)، تفسير القرآن العظيم لابن كثير (١/ ٢٤٥)، الدر المنثور (٢/ ٤٤٩).

(٢) رواه أحمد في مسنده (٤١/ ١٥١)، برقم(٢٤٦٠٤)، وقال ابن كثير (غريب من هذا الوجه، ولكن أصله ثابت في الصحيحين وغيرهما من طرق كثيرة بدون زيادة ذكر هذه الآية الكريمة) (٢/ ١٠)، وقال محققو المسند (صحيح لغيره).

(٣) جامع البيان (٢٢/ ٥٣٠)، الدر المنثور (١٤/ ٣٧٢).

إن من أنواع التوسل المشروع الذي ذكره أهل العلم أن يتوسل العبد بعمل صالح يتقرب به إلى ربه(١)، ومن تلك الأعمال الفاضلة عنايته بكتاب الله عزَّ وجلَّ تلاوة وحفظًا وتدبرًا وعملاً، قال عمر ﷺ: (اقرؤوا القرآن وسلوا الله به، قبل أن يقرأه قوم يسألون الناس به)(٢).

المطلب الخامس: العلاج بالقرآن:

جاء في وصف القرآن الكريم أنه شفاء للمؤمنين، من الأمراض والأدواء الحسية والمعنوية، فهو شفاء من الكفر والشرك والنفاق، وشفاء من الجهل والبدع، وشفاء من فتن الشبهات والشهوات، شفاء من الحيرة والشك، والقلق والوسوسة، شفاء من أمراض القلوب والأبدان، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٥٧ قُلۡ بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ هُوَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ ﴾ [يونس: ٥٧ – ٥٨]، وقال تعالى: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٞ وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارٗا ﴾ [الإسراء: ٨٢]، وقال تعالى: ﴿ قُلۡ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدٗى وَشِفَآءٞ ﴾ [فصلت: ٤٤]، قال الحافظ ابن كثير: (يقول تعالى ممتنًا على خلقه بما أنزله من القرآن العظيم على رسوله الكريم: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ ﴾ [يونس: ٥٧] أي: زاجر عن الفواحش، ﴿ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ ﴾ أي: من الشبه والشكوك،

---

(١) ينظر: قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة لشيخ الإسلام ابن تيمية (٩٤ – ٩٦).

(٢) المصنف لابن أبي شيبة (٦/ ١٢٤).

وهو إزالة ما فيها من رجس ودنس، ﴿ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ ﴾ أي: يحصل به الهداية والرحمة من الله تعالى، وإنما ذلك للمؤمنين به والمصدقين الموقنين بما فيه، كقوله تعالى: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾ [الإسراء: ٨٢]، وقوله ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ﴾ [فصلت: ٤٤] الآية، وقوله تعالى: ﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ ﴾ [يونس: ٥٨] أي: بهذا الذي جاءهم من الله من الهدى ودين الحق فليفرحوا، فإنه أولى ما يفرحون به، ﴿ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ أي: من حطام الدنيا وما فيها من الزهرة الفانية الذاهبة لا محالة)[1].

وقال الإمام الشنقيطي: (يشمل كونه شفاء للقلب من أمراضه كالشك والنفاق وغير ذلك، وكونه شفاء للأجسام إذا رقي عليها به، كما تدل عليه قصة الذي رقى الرجل اللديغ بالفاتحة)[2]، وقال الرازي في بيان ذلك: (واعلم أن القرآن شفاء من الأمراض الروحانية، وشفاء أيضًا من الأمراض الجسمانية، أما كونه شفاء من الأمراض الروحانية فظاهر، وذلك لأن الأمراض الروحانية نوعان: الاعتقادات الباطلة والأخلاق المذمومة، أما الاعتقادات الباطلة فأشدها فسادًا الاعتقادات الفاسدة في الإلهيات والنبوات والمعاد والقضاء والقدر، والقرآن كتاب مشتمل على دلائل المذهب الحق في هذه المطالب، وإبطال المذاهب الباطلة فيها... وأما الأخلاق المذمومة فالقرآن مشتمل على

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٢/ ٤٢١).

(٢) أضواء البيان (٣/ ٦٢٤).

تفصيلها وتعريف ما فيها من المفاسد، والإرشاد إلى الأخلاق الفاضلة الكاملة والأعمال المحمودة، فكان القرآن شفاء من هذا النوع من المرض، فثبت أن القرآن شفاء من جميع الأمراض الروحانية، وأما كونه شفاء من الأمراض الجسمانية فلأن التبرك بقراءته يدفع كثيرًا من الأمراض، ولما اعترف الجمهور من الفلاسفة وأصحاب الطلسمات بأن لقراءة الرقى المجهولة والعزائم التي لا يفهم منها شيء آثارًا عظيمة في تحصيل المنافع ودفع المفاسد، فلأن تكون قراءة هذا القرآن العظيم المشتمل على ذكر جلال الله وكبريائه وتعظيم الملائكة المقربين وتحقير المردة والشياطين سببًا لحصول النفع في الدين والدنيا كان أولى)[1]، أما سر وصف الله تعالى القرآن الكريم بأنه شفاء ولم يصفه بأنه دواء (فلأن الشفاء هو ثمرة الدواء والهدف منه، أما الدواء فقد يفيد وقد يضر، فكان وصف القرآن بأنه شفاء تأكيدًا، وأي تأكيد لثمرة التداوي به)[2].

وجاء في السنة بيان أثر القرآن في علاج الأمراض النفسية والعضوية، والمعنوية والحسية، من حيث دعاء الله تعالى به والتوسل به إليه في طلب الشفاء، فهذا رسول الله ﷺ يصف علاجًا قرآنيًا لإذهاب الحزن والهم حيث يقول عليه الصلاة والسلام: "**ما أصاب عبدًا هم ولا حزن فقال: اللهم إني عبدك وابن عبدك وابن أمتك، ناصيتي بيدك، ماض في حكمك، عدل في قضاؤك، أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو علمته أحدًا من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك، أن تجعل القرآن**

(١) التفسير الكبير (٢١/ ٣٥ – ٣٦).

(٢) خصائص القرآن الكريم (١١١).

العظيم ربيع قلبي، ونور صدري، وجلاء حزني، وذهاب غمي. إلا أذهب الله حزنه وهمه، وأبدله مكانه فرحًا"(١)، وعن سعد بن أبي وقاص ﷺ قال: قال عليه الصلاة والسلام: **"دعوة ذي النون إذ دعا ربه وهو في بطن الحوت: ﴿ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾** [الأنبياء: ٨٧]**، لم يدع بها رجل مسلم في شيء قط إلا استجيب له)**(٢).

فكم من مسلم إذا تكالبت عليه الهموم توضأ وتطهر ثم انتحى زاوية في بيته، وأخذ المصحف يتلو ويتلو فتنزاح عنه الهموم وتنجلي، فيقوم كأنما نشط من عقال، وكم من مسلم اضطجع على جنبه الأيمن عند نومه وقرأ على نفسه آيات، يبتغي بها رضى ربه والالتجاء إليه، فينام قرير العين آمنًا بحفظ الله ورعايته، وكم من مسلم أصابته الوحشة واستولى عليه الخوف فآنس نفسه بآيات فوجدها نعم الأنيس، أزالت وحشته، وأذهبت خوفه، وكم من مسلم اضطرب وارتعد فتلا آيات فأنزل الله عليه سكينته، وآمن روعته، وكم من مسلم التمس الشيطان إلى قلبه سبيلاً، وألقى إليه بالشبهات والشكوك، فما تكاد تنقدح شرارتها حتى يدعوه داعي الإيمان إلى ترتيل آيات من القرآن فتقضي على كل شبهة، وتقطع كل شك فيعود قلبه مطمئنًا، وكم من مسلم ناله

---

(١) رواه أحمد في مسنده (١/ ٣٩١، ٤٥٢)، وابن حبان في صحيحه برقم(٢٣٧٢)، من حديث عبد الله بن مسعود ﷺ، وصححه ابن القيم في بدائع الفوائد (١/ ١٨٨)، وفي شفاء العليل (٥٧٢).

(٢) رواه أحمد في مسنده (١/ ١٧٠)، والترمذي في سننه: كتاب الدعوات، باب٨٢ (٥/ ٥٢٩)، برقم(٣٥٠٥)، وصحح سنده الحاكم في المستدرك (١/ ٥٠٥)، ووافقه الذهبي، وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم(٣٣٨٣).

الفقر ومسه الجوع، فوجد في القرآن غناءه، وفي تلاوته غذاءه، وكم من مسلم كاد أن يطغيه غناه، وتذهب به بهجته، فأنقذه الله بالقرآن يتلوه، فانكشف له الستار، وتذكر نعمة ربه فابتغى ما عند الله بما عنده، فإن جرب أحد شيئًا من هذا فاستعصى عليه أو لم يجد فلينظر في حاله وليفتش عن العلة في نفسه، فإنه من قبله هو أتي[1].

فمن مظاهر التأثر بالقرآن الاستشفاء والتداوي به من جميع الأمراض، وهذا إنما يتم بالإيمان بالله والثقة به والتوكل عليه وصدق اللجوء إليه وإحسان الظن به، والاعتقاد الجازم بأنه عزَّ وجلَّ هو النافع الضار، الذي بيده الشفاء والعافية، وقد جعل من الأسباب ما يحقق هذا الغرض قال ابن القيم: (ولكن هاهنا أمر ينبغي التفطن له وهو: أن الأذكار والآيات والأدعية التي يستشفى بها ويرقى بها، هي في نفسها وإن كانت نافعة شافية، ولكن تستدعي قبول المحل، وقوة همة الفاعل وتأثيره، فمتى تخلف الشفاء كان لضعف تأثير الفاعل، أو لعدم قبول المنفعل، أو لمانع قوي فيه يمنع أن ينجع فيه الدواء، كما يكون ذلك في الأدوية والأدواء الحسية، فإن عدم تأثيرها قد يكون لعدم قبول الطبيعة لذلك الدواء، وقد يكون لمانع قوي يمنع من اقتضائه أثره)[2]، وقال الزركشي عن الاستشفاء بالقرآن: (لن ينتفع به إلا من أخلص لله قلبه ونيته، وتدبر الكتاب في عقله وسمعه، وعمر به قلبه، وأعمل به جوارحه، وجعله

---

(١) ينظر: خصائص القرآن الكريم (١١٥ - ١١٦).

(٢) الجواب الكافي (٣).

سميره في ليله ونهاره، وتمسك به وتدبره)[1]، وهذا رسول الله ﷺ جاءه رجل فقال: (إن أخي استطلق بطنه، فقال: "اسقه عسلاً"، فسقاه، فقال: إني سقيته فلم يزده إلا استطلاقًا، فقال: "صدق الله وكذب بطن أخيك"، وفي رواية أخرى، فقال: "اسقه عسلاً"، ثم أتى الثانية فقال: "اسقه عسلاً"، ثم أتى الثالثة، فقال: "اسقه عسلاً"، ثم أتاه فقال: فعلت، فقال: "صدق الله وكذب بطن أخيك، اسقه عسلاً فسقاه فبرأ"[2].

يقول صالح المري: (أصاب أهلي ريح الفالج، فقرأت عليها القرآن ففاقت، فحدثت به غالبًا القطان، فقال: وما تعجب من ذلك؟ والله لو أنك حدثتني أن ميتًا قرئ عليه القرآن فحيي ما كان ذلك عندي عجبًا)[3].

وإذا قارن المؤمن بين النصوص التي تصف القرآن بأنه شفاء والنصوص التي تصف العسل بأنه شفاء وجد أن الأول مشروط لأهل الإيمان كما مر في الآيات السابقة، أما الثاني فيعم الناس كلهم مؤمنهم وكافرهم، قال تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ﴾ [النحل: ٦٩]، فالشفاء في القرآن للمؤمنين خاصة، والشفاء في العسل للناس عامة[4].

---

(١) البرهان في علوم القرآن (١/ ٤٣٦).

(٢) رواه البخاري في صحيحه: كتاب الطب، باب الدواء بالعسل (١٠/ ١٣٩)، برقم(٥٦٨٤)، ومسلم في صحيحه: كتاب السلام، باب لكل داء دواء واستحباب التداوي (١٤/ ٢٠٣)، من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ.

(٣) حلية الأولياء (٦/ ١٧٠).

(٤) ينظر: خصائص القرآن الكريم (١١٦).

قال الحافظ ابن كثير في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾ [الإسراء: ٨٢].

(يقول تعالى مخبرًا عن كتابه الذي أنزله على رسوله محمد ﷺ، وهو القرآن الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد، إنه شفاء ورحمة للمؤمنين، أي: يذهب ما في القلوب من أمراض، من شك ونفاق وشرك وزيغ وميل، فالقرآن يشفي من ذلك كله، وهو أيضًا رحمة يحصل فيها الإيمان والحكمة وطلب الخير والرغبة فيه، وليس هذا إلا لمن آمن به وصدقه واتبعه، فإنه يكون شفاء في حقه ورحمة، وأما الكافر الظالم لنفسه بذلك فلا يزيده سماعه القرآن إلا بعدًا وكفرًا، والآفة من الكافر لا من القرآن، كقوله تعالى: ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴾ [فصلت: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴾ [التوبة: ١٢٤ - ١٢٥]، والآيات في ذلك كثيرة، قال قتادة في قوله: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ ﴾ إذا سمعه المؤمن انتفع به وحفظه ووعاه، ﴿ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾ أي: لا ينتفع به ولا يحفظه ولا يعيه، فإن الله جعل هذا القرآن شفاء ورحمة للمؤمنين) [١].

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٣/ ٥٩).

وقال ابن القيم (ومن المعلوم أن بعض الكلام له خواص ومنافع مجربة، فما الظن بكلام رب العالمين، الذي فضله على كل كلام كفضل الله على خلقه، الذي هو الشفاء التام، والعصمة النافعة، والنور الهادي، والرحمة العامة، الذي لو أنزل على جبل لتصدع من عظمته وجلالته، قال تعالى: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾، و(مِنْ) هاهنا لبيان الجنس لا للتبعيض، هذا أصح القولين، كقوله تعالى: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴾ [الفتح: ٢٩]، وكلهم من الذين آمنوا وعملوا الصالحات)، وقال أيضًا: (فالقرآن هو الشفاء التام من جميع الأدواء القلبية والبدنية، وأدواء الدنيا والآخرة، وما كل أحد يؤهل ولا يوفق للاستشفاء به، وإذا أحسن العليل التداوي به، ووضعه على دائه بصدق وإيمان، وقبول تام، واعتقاد جازم، واستيفاء شروطه، لم يقاومه الداء أبدًا.

وكيف تقاوم الأدواء كلام رب الأرض والسماء، الذي لو نزل على الجبال لصدعها، أو على الأرض لقطعها، فما من مرض من أمراض القلوب والأبدان إلا وفي القرآن سبيل الدلالة على دوائه وسببه، والحمية منه، لمن رزقه الله فهمًا في كتابه.... وأما الأدوية القلبية، فإنه يذكرها مفصلة، ويذكر أسباب أدوائها وعلاجها، قال ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ﴾ [العنكبوت: ٥١]، فمن لم يشفه القرآن فلا شفاه الله، ومن لم يكفه فلا كفاه الله)[1].

هذا الفضل يعم القرآن كله، وقد جاء في بعض سوره وآياته ما يدل

(١) زاد المعاد (٤/ ١٧٧، ٣٥٢).

على فضلها على وجه الخصوص والرقية بها، وبيان أثر ذلك، ولهذا أمثلة ووقائع في السيرة، فمن ذلك سورة الفاتحة التي من أسمائها الشافية والواقية والكافية، يدل على ذلك ما رواه أبو سعيد الخدري ﷺ قال: (انطلق نفر من أصحاب رسول الله ﷺ في سفرة سافروها حتى نزلوا على حي من أحياء العرب، فاستضافوهم فأبوا أن يضيفوهم، فلدغ سيد ذلك الحي، فسعوا له بكل شيء، لا ينفعه شيء، فقال بعضهم: لو أتيتم هؤلاء الرهط الذين نزلوا، لعلهم أن يكون عندهم بعض شيء، فأتوهم فقالوا: يا أيها الرهط إن سيدنا لدغ وسعينا بكل شيء لا ينفعه، فهل عند أحدكم من شيء؟ قال بعضهم: إني والله لأرقي، ولكن والله لقد استضفناكم فلم تضيفونا، فما أنا براق لكم حتى تجعلوا لنا جعلاً، فصالحوهم على قطيع من غنم، فانطلق يتفل عليه ويقرأ ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ فكأنما نشط من عقال فانطلق يمشي وما به قَلَبَة[1]، قال: فأوفوهم جُعلهم الذي صالحوهم عليه، فقال بعضهم: اقتسموا، فقال الذي رقى: لا تفعلوا حتى نأتي النبي ﷺ فننظر الذي يأمرنا، فقدموا على النبي ﷺ فذكروا له ذلك، فقال: **"وما يدريك أنها رقية؟"** ثم قال: **"أصبتم، اقتسموا واضربوا لي معكم سهمًا**، وضحك النبي ﷺ)[2].

قال ابن القيم: (فما الظن بفاتحة الكتاب التي لم ينزل في القرآن، ولا في

---

(١) قلبة: داء وتعب، القاموس "قلب" (١/ ١١٩).

(٢) رواه البخاري في صحيحه: كتاب الإجارة، باب ما يعطى في الرقية على أحياء العرب بفاتحة الكتاب (٤/ ٤٥٢ – ٤٥٣)، برقم (٢٢٧٦)، واللفظ له، ومسلم في صحيحه: كتاب السلام، باب جواز أخذ الأجرة على الرقية بالقرآن وتعليم الأذكار (١٤/ ١٨٧ – ١٨٩).

التوراة، ولا في الإنجيل، ولا في الزبور مثلها، المتضمنة لجميع معاني كتب الله، المشتملة على ذكر أصول أسماء الرب تعالى ومجامعها، وهي الله، والرب، والرحمن، وإثبات المعاد، وذكر التوحيدين: توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية، وذكر الافتقار إلى الرب سبحانه في طلب الإعانة وطلب الهداية، وتخصيصه سبحانه بذلك، وذكر أفضل الدعاء على الإطلاق وأنفعه وأفرضه، وما العباد أحوج شيء إليه، وهو الهداية إلى صراطه المستقيم، المتضمن كمال معرفته وتوحيده وعبادته، بفعل ما أمر به، واجتناب ما نهى عنه، والاستقامة عليه إلى المهات، ويتضمن ذكر أصناف الخلائق وانقسامهم إلى منعم عليه بمعرفة الحق والعمل له ومحبته وإيثاره، ومغضوب عليه بعدوله عن الحق بعد معرفته له، وضال بعدم معرفته له، وهؤلاء أقسام الخليقة، مع تضمنها لإثبات القدر والشرع والأسماء والصفات، والمعاد والنبوات، وتزكية النفوس وإصلاح القلوب، وذكر عدل الله وإحسانه، والرد على جميع أهل البدع والباطل.

وحقيق بسورةٍ هذا بعض شأنها، أن يستشفى بها من الأدواء، ويرقى بها اللديغ، وبالجملة فما تضمنته الفاتحة من إخلاص العبودية والثناء على الله، وتفويض الأمر كله إليه، والاستعانة به، والتوكل عليه، وسؤاله مجامع النعم كلها، وهي الهداية التي تجلب النعم، وتدفع النقم، من أعظم الأدوية الشافية الكافية.

وقد قيل: إن موضع الرقية منها: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾، ولا ريب أن هاتين الكلمتين من أقوى أجزاء هذا الدواء، فإن فيهما من عموم التفويض والتوكل، والالتجاء والاستعانة، والافتقار والطلب، والجمع بين أعلى الغايات، وهي عبادة الرب وحده، وأشرف الوسائل وهي الاستعانة به

على عبادته ما ليس في غيرها، ولقد مرَّ بي وقت بمكة سقمت فيه، وفقدت الطبيب والدواء، فكنت أتعالج بها، آخذ شربة من ماء زمزم، وأقرؤها عليها مرارًا، ثم أشربه، فوجدت بذلك البرء التام، ثم صرت أعتمد ذلك عند كثير من الأوجاع، فأنتفع بها غاية الانتفاع)(١).

ومما جاء فيه الفضل على وجه الخصوص قراءة المعوذتين، فعن عائشة رضي الله عنها: (أن النبي ﷺ كان ينفث على نفسه – في المرض الذي مات فيه- بالمعوذات، فلما ثقل كنت أنفث عليه بهن، وأمسح بيده نفسه لبركتها)(٢).

وعن أبي سعيد ﷺ قال: (كان رسول الله ﷺ يتعوذ من الجان وعين الإنسان، حتى نزلت المعوذتان فأخذ بها وترك ما سواها)(٣).

قال النووي: (وإنما رقى بالمعوذات لأنهن جامعات للاستعاذة من كل المكروهات جملة وتفصيلاً، ففيها الاستعاذة من شر ما خلق، فيدخل فيه كل شيء، ومن شر النفاثات في العقد، ومن السواحر ومن شر الحاسدين، ومن شر الوسواس الخناس، والله أعلم)(٤).

---

(١) زاد المعاد (٤/ ١٧٧ – ١٧٨).

(٢) رواه البخاري في صحيحه: كتاب الطب، باب الرقى بالقرآن والمعوذات، (١٠/ ١٩٥)، برقم(٥٧٣٥)، ومسلم في صحيحه: كتاب السلام، باب استحباب رقية المريض (١٤/ ١٨٢).

(٣) رواه النسائي في سننه: كتاب الاستعاذة، الاستعاذة من عين الجان، (٨/ ٢٧١)، والترمذي في سننه: كتاب الطب، باب ما جاء في الرقية بالمعوذتين (٤/ ٣٩٥)، برقم(٢٠٥٨)، وقال: (حسن غريب)، وابن ماجه في سننه: كتاب الطب، باب من استرقى من العين(٢/ ٢٦٦)، برقم (٣٥١١)، وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه (٢/ ٢٦٦).

(٤) شرح صحيح مسلم (١٤/ ١٨٣).

وقال الحافظ ابن حجر: (وهذا لا يدل على المنع من التعوذ بغير هاتين السورتين، بل يدل على الأولوية، ولا سيما مع ثبوت التعوذ بغيرهما، وإنما اجتزأ بهما لما اشتملتا عليه من جوامع الاستعاذة من كل مكروه جملة وتفصيلاً) وقال ابن بطال: (في المعوذات جوامع من الدعاء، نعم أكثر المكروهات من السحر والحسد وشر الشيطان ووسوسته وغير ذلك، فلهذا كان النبي ﷺ يكتفي بها)(١).

وقد ذكر ابن القيم أن هذه التعوذات لها بركتها على أهلها، إما أن تمنع الشرور والأمراض عنهم ابتداء، وإما أن تكون دواء ومزيلاً لذلك المرض، قال رحمه الله تعالى: (واعلم أن الأدوية الطبيعية الإلهية تنفع من الداء بعد حصوله، وتمنع من وقوعه، وإن وقع لم يقع وقوعًا مضرًّا وإن كان مؤذيًا، والأدوية الطبيعية إنما تنفع بعد حصول الداء، فالتعوذات والأذكار إما أن تمنع وقوع هذه الأسباب، وإما أن تحول بينها وبين كمال تأثيرها، بحسب كمال التعوذ وقوته وضعفه، فالرقى والعُوذ تستعمل لحفظ الصحة، ولإزالة المرض، أما الأول: فكما في الصحيحين من حديث عائشة رضي الله عنها: (كان رسول الله ﷺ إذا أوى إلى فراشه نفث في كفيه: ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾ والمعوذتين، ثم يمسح بهما وجهه وما بلغت يده من جسده)(٢).

وكما في الصحيحين: **"من قرأ الآيتين من آخر سورة البقرة في ليلة كفتاه"**(٣).

---

(١) ينظر لهما: فتح الباري (١٠/ ١٩٥، ١٩٧).

(٢) رواه البخاري في صحيحه: كتاب الدعوات، باب التعوذ والقراءة عند النوم (١١/ ١٢٥)، برقم(٦٣١٩)، ومسلم في صحيحه: كتاب السلام، باب رقية المريض بالمعوذات، برقم(٢١٩٢).

(٣) رواه البخاري في صحيحه: كتاب فضائل القرآن، باب فضل سورة البقرة (٩/ ٥٥)، برقم(٥٠٠٩)، ومسلم في صحيحه: كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضل الفاتحة وخواتيم سورة البقرة (٦/ ٩٢)، من حديث عبد الله بن مسعود ﷺ.

وأما الثاني: فكما تقدم من الرقية بالفاتحة، والرقية للعقرب وغيرها)[١].

ومن صور التداوي بالقرآن في الأمراض البدنية قصة الذي به مس من الجن، فقد روى أبي بن كعب ﷺ قال: (كنت عند النبي ﷺ فجاء أعرابي فقال: يا نبي الله إن لي أخًا وبه وجع، قال: "وما وجعه؟" قال: به لمم، قال: "فائتني به"، فوضعه بين يديه، فعوذه النبي ﷺ بفاتحة الكتاب وأربع آيات من أول سورة البقرة وهاتين الآيتين: ﴿ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ﴾ [البقرة: ١٦٢]، وآية الكرسي، وثلاث آيات من آخر سورة البقرة، وآية من آل عمران، ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ [رقم ١٨]، وآية من الأعراف ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ﴾ [رقم ٥٤]، وآخر سورة المؤمنون ﴿ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ﴾ [رقم: ١١٦]، وآية من سورة الجن ﴿ وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا ﴾ [رقم: ٣]، وعشر آيات من أول ﴿ وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ ﴾، وثلاث آيات من آخر سورة الحشر، و﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾ ، والمعوذتين، فقام الرجل كأنه لم يشتك قط)[٢].

وقد استشفى بهذا الشفاء واهتدى بهذا الهدي صحابة رسول الله ﷺ ورضي الله عنهم والتابعون لهم بإحسان، فوجدوا أثره وغايته، كانت لهم الدنيا عزًّا وسيادة وكانت لهم الآخرة فوزًا وسعادة، ومما روي عن الصحابة ومن بعدهم في الحث على التداوي بالقرآن والرقية به، قول عبد الله بن مسعود ﷺ

---

(١) زاد المعاد (٤/ ١٨٢ – ١٨٤).

(٢) رواه أحمد في مسنده (٥/ ١٢٨)، والحاكم في المستدرك (٤/ ٤١٢) وسنده ضعيف.

(عليكم بالشفاءين القرآن والعسل)[١].

وقال أيضًا: (إن هذا القرآن مأدبة الله تعالى، فتعلموا من مأدبته ما استطعتم، إن هذا القرآن حبل الله عزَّ وجلَّ، وهو النور المبين، والشفاء النافع، عصمة لمن تمسك به، ونجاة لمن اتبعه...)[٢]، وعن طلحة بن مصرف قال: (كان يقال: إذا قرئ القرآن عند المريض وجد لذلك خفة، قال: فدخلت على خيثمة وهو مريض، فقلت: إني أراك اليوم صالحًا، فقال: إنه قرئ عندي القرآن)[٣].

كما أن القرآن وقاية وحصن منيع لأهله من شياطين الإنس والجن، فلا يخلصون إليهم ولا يحققون مآربهم منهم، ولا ينالونهم بأي أنواع الأذى، قال تعالى: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا﴾ [الإسراء: ٤٥]، وقد جاء في سبب نزول هذه الآية عدة روايات، منها:

١ - عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما قالت: لما نزلت: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ أقبلت العوراء أم جميل، ولها ولولة، وفي يدها فهر وهي تقول:

مذممًا أبينا ودينه قلينا وأمره عصينا.

ورسول الله ﷺ جالس، وأبو بكر ﷺ إلى جنبه، فقال أبو بكر: لقد أقبلت هذه وأنا أخاف أن تراك، فقال: "إنها لن تراني" وقرأ قرآنًا اعتصم به، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ حِجَابًا

---

(١) فضائل القرآن لأبي عبيد (٢٣٣)، المصنف لابن أبي شيبة (٦/ ١٢٦).

(٢) فضائل القرآن لأبي عبيد (٢١)، المصنف لابن أبي شيبة (٦/ ١٢٦).

(٣) فضائل القرآن لأبي عبيد (٢٣٣)، الإتقان (٢/ ١٦٣).

مَّسْتُورًا ﴾ فجاءت حتى قامت على أبي بكر ﷺ، فلم تر النبي ﷺ فقالت: يا أبا بكر، بلغني أن صاحبك هجاني، فقال أبو بكر ﷺ: لا ورب هذا البيت، ما هجاك، فانصرفت وهي تقول: قد علمت قريش أني بنت سيدها.

وفي رواية فقلت: يا رسول الله، إنها لم ترك، فقال النبي ﷺ: **"حال بيني وبينها جبريل"**(١).

٢- عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن أبا سفيان والنضر بن الحارث وأبا جهل وغيرهم كانوا يجالسون النبي ﷺ ويستمعون إلى حديثه، فقال النضر يومًا: ما أدري ما يقول محمد، غير أني أرى شفتيه تتحرك بشيء، وقال أبو سفيان: إني لأرى بعض ما يقوله حقًّا، وقال أبو جهل: هو مجنون، وقال أبو لهب: هو كاهن، وقال حويطب بن عبد العزى هو شاعر، فنزلت هذه الآية، وكان رسول الله ﷺ إذا أراد تلاوة القرآن قرأ قبلها ثلاث آيات، وهي قوله في سورة الكهف: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ﴾ [الكهف: ٥٧]. وفي النحل ﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ﴾ [النحل: ١٠٨] وفي الجاثية ﴿ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ ﴾ [الجاثية: ٢٣] إلى آخر الآية، فكان الله تعالى يحجبه ببركات هذه الآيات عن عيون المشركين، وهو المراد من قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴾(٢).

---

(١) رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٣٦١)، وأبو يعلى في مسنده برقم(٥٣)، والبيهقي في الدلائل (٢/ ١٩٥، ١٩٦)، وذكره السيوطي في الدر المنثور (٩/ ٣٦٦ – ٣٦٧).

(٢) ينظر: التفسير الكبير (٢٠/ ٢٢٢).

٣- عن ابن شهاب قال: كان رسول الله ﷺ إذا تلا القرآن على مشركي قريش ودعاهم إلى الله قالوا: يهزؤون به: ﴿قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٞ وَمِنۢ بَيۡنِنَا وَبَيۡنِكَ حِجَابٞ﴾ [فصلت: ٥]، فأنزل الله في ذلك من قولهم: ﴿وَإِذَا قَرَأۡتَ ٱلۡقُرۡءَانَ﴾ الآيات[1].

وفي مقابل هذا فإن من أعرض عن القرآن لا يتلوه ولا ينتفع به احتوشته شياطين الإنس والجن، فقادته إلى المهالك وأوقعته في كل بلية ورزية، قال تعالى: ﴿وَمَن يَعۡشُ عَن ذِكۡرِ ٱلرَّحۡمَٰنِ نُقَيِّضۡ لَهُۥ شَيۡطَٰنٗا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٞ ۝٣٦ وَإِنَّهُمۡ لَيَصُدُّونَهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحۡسَبُونَ أَنَّهُم مُّهۡتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٣٦-٣٧].

قال ابن عباس رضي الله عنهما في الآية: (من جانب الحق وأنكره وهو يعلم أن الحلال حلال وأن الحرام حرام، فترك العلم بالحلال والحق لهوى نفسه وقضى حاجته، ثم أراد من الحرام قيض له شيطان)[2]، وقال وهب بن منبه: (ليس من الآدميين أحد إلا ومعه شيطان موكل به، أما الكافر فيأكل معه من طعامه ويشرب معه من شرابه وينام معه على فراشه، وأما المؤمن فهو مجانب له، ينتظره حتى يصيب منه غفلة أو غرة فيثب عليه، وأحب الآدميين إلى الشيطان الأكول النؤوم)[3].

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٩/ ٣٦٩)، وفي لباب النقول (١٣٦ - ١٣٧) وعزاه لابن إسحاق وابن المنذر.

(٢) ينظر: تفسير القرآن لابن أبي حاتم (١٠/ ٣٢٨٣)، الدر المنثور (١٣/ ٢٠٧).

(٣) حلية الأولياء (٤/ ٥٩)، الدر المنثور (١٣/ ٢٠٩).

وقال الإمام الطبري في تفسير الآية: (يقول جل وعز: ومن يعرض عن ذكر الله فلم يخف سطوته ولم يخش عقابه ﴿ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا ﴾ يقول: نجعل له شيطانًا يغويه، ﴿ فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴾ يقول: فهو للشيطان قرين، أي: يصير كذلك، وأصل العشو: النظر بغير ثبت لعلة في العين... وقوله: ﴿ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ﴾ يقول جل وعز: وإن الشياطين ليصدون هؤلاء الذين يعشون عن ذكر الله عن سبيل الحق، فيزينون لهم الضلالة ويكرهون إليهم الإيمان بالله والعمل بطاعته، ﴿ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ يقول: ويظن المشركون بالله بتحسين الشياطين لهم ما هم عليه من الضلالة أنهم على الحق والصواب)[1].

أما في الآخرة فقد ذكر تعالى أنهم يتبرؤون منهم ويلومون أنفسهم على اتباعهم واتخاذهم قرناء، فيجمعهم الله في العذاب ولات مندم، قال تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ ﴿٣٨﴾ وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴾ [الزخرف: ٣٨ – ٣٩].

ولذلك فقد جاء الحث على قراءة سور وآيات تكون بفضل الله حرزًا للعبد من الشياطين والشرور ونحوها، كالفاتحة وآية الكرسي وخواتيم سورة البقرة والمعوذتين.

المطلب السادس: الدعوة إلى العمل بالقرآن وتبليغه الناس:

من النصح لكتاب الله عزَّ وجلَّ تعليم تلاوته والعناية بتحفيظه وتعليم

---

(١) جامع البيان (٢٠/ ٥٩٥ – ٥٩٦).

أحكامه وفقه آياته والدعوة إلى العمل به واتباعه، وخير من يقوم بهذه المهمة الشريفة ويؤدي هذا الواجب العظيم أهله المتأثرون به، الذين أصبحوا بذلك قدوة لغيرهم، وقد ذكر هذا الأمر أهل العلم عند قوله عليه الصلاة والسلام "الدين النصيحة"، قلنا: لمن؟ قال: "**لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم**" رواه مسلم عن أبي رقية تميم بن أوس الداري ﷺ [1]، قال النووي: (وأما النصيحة لكتابه سبحانه وتعالى فالإيمان بأنه كلام الله تعالى وتنزيله، لا يشبهه شيء من كلام الخلق، ولا يقدر على مثله أحد من الخلق، ثم تعظيمه وتلاوته حق تلاوته وتحسينها والخشوع عندها وإقامة حروفه في التلاوة، والذب عنه تأويل المحرفين وتعرض الطاعنين، والتصديق بما فيه والوقوف مع أحكامه، وتفهم علومه وأمثاله والاعتبار بمواعظه والتفكر في عجائبه، والعمل بمحكمه والتسليم لمتشابهه، والبحث عن عمومه وخصوصه وناسخه ومنسوخه، ونشر علومه والدعاء إليه)[2].

وقد اجتهد في تبليغ الأمة كتاب ربها سلفنا الصالح من الصحابة والتابعين لهم بإحسان ومن بعدهم رحم الله الجميع، فجلسوا يقرئونه الناس ويعلمونهم تلاوته وأحكامه ويفسرونه لهم، مع إعانتهم على العلم به واتباعه، والأمثلة على هذا من سيرهم العطرة كثيرة[3].

إن رسالة القرآن عالمية وهذا من مميزاتها وخصائصها، فليست مقصورة

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووي: كتاب الإيمان، باب بيان أن الدين النصيحة (٢/ ٣٦ – ٣٧).

(٢) شرح النووي على صحيح مسلم (٢/ ٣٨).

(٣) ينظر في هذا: منهج السلف في العناية بالقرآن الكريم (٨٥ – ١١١).

على قوم أو جنس أو عصر أو مكان، قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ [سبأ: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴾ [الفرقان: ١]، وقال تعالى: ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [يس: ٦٩ - ٧٠].

فمتى بلغت العبد رسالة القرآن ودعوته إلى توحيد الله عزَّ وجلَّ وإخلاص العمل له والحذر من الشرك والقيام بفرائضه وأداء حقوقه فقد قامت عليه الحجة وزالت عنه المعذرة، قال تعالى: ﴿ وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ۚ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ ۚ قُل لَّآ أَشْهَدُ ۚ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴾ [الأنعام: ١٩]، قال ابن كثير في تفسير الآية: (هو نذير لكل من بلغه، وعن محمد بن كعب في قوله: ﴿ وَمَنۢ بَلَغَ ﴾ قال: من بلغه القرآن فكأنما رأى النبي ﷺ وكلمه، وكأنما أبلغه محمد ﷺ، وعن قتادة في قوله تعالى: ﴿ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ﴾ أن رسول الله ﷺ قال: (بلغوا عن الله، فمن بلغته آية من كتاب الله فقد بلغه أمر الله)[1]، وقال الربيع بن أنس: (حق على من اتبع رسول الله ﷺ أن يدعو كالذي دعا إليه رسول الله ﷺ وأن ينذر بالذي أنذر)[2].

ومع استمرارية رسالة القرآن وخلودها بحفظ الله تعالى لها كما قال عزَّ

---

(١) رواه عبد الرزاق في تفسيره (١/ ٢٠٥)، والطبري في تفسيره (١١/ ٢٩٠)، وابن أبي حاتم في تفسيره (٤/ ١٢٧٢)، عن قتادة مرسلاً.

(٢) تفسير القرآن العظيم (٢/ ١٢٦).

وجلّ ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ﴾ [الحجر: ٩]، فإنها تحتاج إلى جهود متواصلة لتبليغ رسالته للعالمين وبيان هداياته للناس أجمعين، والبشرية الآن أحوج ما تكون إلى نوره وهداه، لتخرج به من الظلمات بجميع صنوفها وأشكالها إلى نوره ورحمته وبركته، وأولى الناس بالقيام بذلك أهله المحبون له المعظمون إياه العاملون به.

وقد جاء في القرآن الكريم التعبير عن معنى تبليغ رسالته بكلمات كثيرة منها:

١ - (أنذر) كقوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝ قُمْ فَأَنذِرْ ﴾ [المدثر: ١ - ٢]، وقوله: ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ [الشعراء: ٢١٤]، وقوله: ﴿ وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ﴾ [الأنعام: ١٩].

٢ - (ادع) قال تعالى: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَـٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ [النحل: ١٢٥]، وقوله: ﴿ فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ ﴾ [الشورى: ١٥].

٣- (اصدع) كقوله تعالى: ﴿ فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [الحجر: ٩٤].

٤- (بيِّن) كقوله تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [النحل: ٤٤]، وقوله: ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ تِبْيَـٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ [النحل: ٨٩].

وهذه الكلمات على تفاوت معانيها الخاصة بها إلا أنها تتفق في معناها

العام، وهو وجوب تبليغ القرآن وبيان هداياته ودعوة الناس إلى العمل به واتباعه، وإن كان الخطاب فيها موجهًا للرسول ﷺ فلأنه الأصل المبلغ عن الله سبحانه القدوة لأمته، وهم شركاء معه في هذه المهمة العظيمة، وبذلك نالوا الخيرية والفضل، قال تعالى: ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُولَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [آل عمران: ١٠٤]، وقال تعالى: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ﴾ [آل عمران: ١١٠] الآية.

وحث رسول الله ﷺ المسلمين في كل زمان ومكان على تبليغ رسالة القرآن الكريم للناس كافة، فقال عليه الصلاة والسلام: **"بلغوا عني ولو آية"**(١).

وعن ابن مسعود ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **"نضر الله امرءًا سمع منا شيئًا فبلغه كما سمعه، فرب مبلغ أوعى من سامع"**(٢)، وعن أبي مسعود الأنصاري ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **"من دل على خير فله مثل أجر فاعله"**(٣)، وحذر من التكاسل في ذلك بكتم ما أوجب الله بيانه وتعليمه.

فعن أبي هريرة ﷺ قال: قال النبي ﷺ: **"من سئل عن علم فكتمه ألجم**

---

(١) رواه البخاري في صحيحه: كتاب أحاديث الأنبياء، باب ما ذكر عن بني إسرائيل (٦/ ٤٩٦)، برقم(٣٤٦١)، عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

(٢) رواه أحمد في مسنده (١/ ٤٣٧)، وابن حبان في صحيحه: (١/ ٢٧١)، برقم(٦٩)، قال محققه شعيب الأرناؤوط (إسناده حسن).

(٣) رواه مسلم في صحيحه: كتاب الإمارة، باب فضل إعانة الغازي في سبيل الله بمركوب وغيره (١٣/ ٣٨ – ٣٩).

يوم القيامة بلجام من نار"[1]، وفي رواية لابن ماجه: **"ما من رجل يحفظ علمًا فيكتمه إلا أُتي به يوم القيامة ملجمًا بلجام من نار"**[2].

إن الإسلام لا يرضى من المسلم أن يكون صالحًا مهتديًا في نفسه، بل يريد منه أن يكون مصلحًا هاديًا لغيره، فالنفع المتعدي أولى وأفضل من النفع الخاص، وإذا تخلى المسلمون عن حمل هذه الرسالة وتكاسلوا في أداء هذه الأمانة تفاقمت الشرور وظهرت الفتن واستشرى الفساد بجميع أنواعه وتكالب الأعداء على الأمة، والله تعالى يقول: ﴿ وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ [الأنفال: ٢٥]، ويقول: ﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُواْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [الروم: ٤١].

إن الداعي إلى القرآن المبلغ رسالته لابد له كي يؤدي واجبه على الوجه الأكمل أن يكون عنده إيمان صادق بأن القرآن كلام الله عزَّ وجلَّ أفضل الكلام وأتمه وأصدقه، من قال به صدق ومن حكم به عدل ومن تمسك به هدي إلى صراط مستقيم، لا خير ولا فلاح ولا هدى إلا في اتباعه والعمل به والتحاكم إليه، يدرك أن رسالة القرآن هي الحق المهيمنة على ما قبلها المصدقة

---

(١) رواه أحمد في مسنده (٢/ ٢٦٣)، وأبوداود في سننه: كتاب العلم، باب كراهية منع العلم، (٣/ ٣٢١)، برقم(٣٦٥٨)، والترمذي في سننه: كتاب العلم، باب كراهية كتمان العلم: (٥/ ٢٨)، برقم(٢٦٤٩) وحسنه.

(٢) رواه ابن ماجه في سننه – أبواب المقدمة – باب من سئل عن علم فكتمه – (١/ ٤٩)، برقم(٢٦١)، وحسنه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه (١/ ٤٩).

لها، وما عداها مما خالفها فهو باطل، مع وجوب تعظيم كتاب الله تعالى وإجلاله ومحبته بكل القلب والتفاني من أجله، فيعيش له ويموت في سبيله، يعلم علم اليقين أنه بالقرآن حاز كل شيء وبدونه فقد كل شيء، هو مصدر سعادته وقوته وطريقه الواحد لنيل رضا ربه ودخول جنته، ويحتاج مع هذا إلى الصبر الذي هو نصف الإيمان؛ وقد ذكر في القرآن في أكثر من ثمانين موضعًا، وأمرنا أن نستعين به بعد الله عزَّ وجلَّ لتحقيق الأهداف ونيل المقاصد، فقال تعالى: ﴿ وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ﴾ [البقرة: ٤٥]، ولأهله المعية الخاصة والمحبة الخالصة، يقول تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴾ [البقرة: ١٥٣]، ويقول عزَّ وجلَّ: ﴿ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴾ [آل عمران: ١٤٦]، ومن لوازم تلك المعية الخاصة النصرة والتأييد والتوفيق والتسديد، به وباليقين تنال الإمامة في الدين كما قال تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُواْ ۖ وَكَانُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ [السجدة: ٢٤].

بهذا كله وغيره يؤدي أهل القرآن المتأثرون به حقًا وصدقًا واجبهم المنوط بهم تجاه كتاب ربهم ورسالته وهداياته ومقاصده في العالمين.

المبحث السابع

ثمار التأثر بالقرآن الكريم وحسناته وآثاره

إن من توفيق الله لعبده المؤمن تأثره بآي الذكر الحكيم وانتفاعه بها، وهذا فضل من الله وإحسان وهداية وإلهام، فقد وصف الله المتأثرين الصادقين وذكر ثوابهم بقوله: ﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَـٰبًا مُّتَشَـٰبِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴾ [الزمر: ٢٣]، قال الإمام السعدي (﴿ ذَٰلِكَ ﴾ الذي ذكره الله من تأثير القرآن فيهم ﴿ هُدَى ٱللَّهِ ﴾ أي: هداية منه لعباده، وهو من جملة فضله وإحسانه عليهم ﴿ يَهْدِى بِهِۦ ﴾ أي: بسبب ذلك ﴿ مَن يَشَآءُ ۚ ﴾ من عباده.. ﴿ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴾ لأنه لا طريق يوصل إليه إلا توفيقه، والتوفيق بالإقبال على كتابه، فإذا لم يحصل هذا فلا سبيل إلى الهدى، وما هو إلا الضلال المبين والشقاء المهين)[1].

فالمتأثرون بالقرآن الكريم يجنون ثمار ما اجتهدوا في تحقيقه والعناية به بعد توفيق الله لهم وإعانتهم عليه، ومن تلك الحسنات العظيمة والآثار المباركة:

أولاً: زيادة الإيمان:

فمن فوائد الانتفاع بالقرآن والتأثر به زيادة الإيمان، كما قال تعالى: ﴿ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَـٰنًا ﴾ [الأنفال: ٢]، وكقوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٦٦٩).

ٱهْتَدَوْاْ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴾ [محمد: ١٧]، فمن أعظم أسباب زيادة الإيمان وقوته قراءة القرآن مع تدبره والتأثر به، قال قتادة: (لم يجالس هذا القرآن أحد إلا قام عنه بزيادة أو نقصان، قضاء الله عزَّ وجلَّ الذي قضى، شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خسارًا)[1].

وقال ابن القيم: (فإذا شهدت القلوب من القرآن ملكًا عظيمًا رحيمًا جوادًا جميلاً هذا شأنه، فكيف لا تحبه وتنافس في القرب منه، وتنفق أنفاسها في التودد إليه، ويكون أحب إليها من كل ما سواه، ورضاه آثر عندها من رضى كل ما سواه، وكيف لا تلهج بذكره، ويصير حبه والشوق إليه والأنس به هو غذاؤها وقوتها ودواؤها، بحيث إن فقدت ذلك فسدت وهلكت، ولم تنتفع بحياتها)[2].

ويؤكد هذا الأمر ويزيده إيضاحًا محمد رشيد رضا بقوله: (واعلم أن قوة الدين وكمال الإيمان واليقين لا يحصلان إلا بكثرة قراءة القرآن واستماعه مع التدبر بنية الاهتداء به والعمل بأمره ونهيه، فالإيمان الإذعاني الصحيح يزداد ويقوى وينمي وتترتب عليه آثاره من الأعمال الصالحة وترك المعاصي والفساد بقدر تدبر القرآن، وينقص ويضعف على هذه النسبة من ترك تدبره، وما آمن أكثر العرب إلا بسماعه وفهمه، ولا فتحوا الأقطار، ومصَّروا الأمصار، واتسع عمرانهم، وعظم سلطانهم، إلا بتأثير هدايته، وما كان الجاحدون المعاندون من زعماء مكة يجاهدون النبي ويصدونه عن تبليغ دعوة ربه إلا بمنعه

---

(١) ينظر: أخلاق حملة القرآن (٧٧)، الزهد لابن المبارك (٢٧٢)، مختصر قيام الليل (٧٣).

(٢) الفوائد (٢٩).

من قراءة القرآن على الناس، ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسْمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْاْ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴾ [فصلت: ٢٦]، وما ضعف الإسلام منذ القرون الوسطى حتى زال أكثر ملكه إلا بهجر تدبر القرآن)[1].

فزيادة الإيمان إنما تكون بتدبر القرآن وفهمه والتأثر به، لا بمجرد تلاوته وحفظه، وهو مأجور على ذلك بإذن الله عزَّ وجلَّ وإحسانه، لكنه بالتدبر والتفهم، والعمل والتطبيق أعمق أثرًا وأعظم نفعًا، قال الإمام السعدي: (وهذا من أعظم مقويات الإيمان، ويقويه من وجوه كثيرة، فالمؤمن بمجرد ما يتلو آيات الله، ويعرف ما ركب عليه من الأخبار الصادقة والأحكام الحسنة يحصل له من أمور الإيمان خير كثير، فكيف إذا أحسن تأمله وفهم مقاصده وأسراره)[2].

أما حال الكافر فعلى العكس من ذلك، جاء بيان ذلك في موقف المؤمن والكافر من القرآن في قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴾ [التوبة: ١٢٤ - ١٢٥]، والمؤمن يجل قلبه ويزداد إيمانًا، والكافر يشمئز قلبه وينفر من القرآن، فهو معرض غافل، قال تعالى: ﴿ وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَإِذَا ذُكِرَ

---

(١) تفسير المنار (٩/ ٥٥٤ - ٥٥٥).

(٢) التوضيح والبيان لشجرة الإيمان (٤٨).

ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ ﴾ [الزمر: ٤٥]، وقال أيضًا في وصفهم ﴿ وَإِذَا ذَكَرۡتَ رَبَّكَ فِي ٱلۡقُرۡءَانِ وَحۡدَهُۥ وَلَّوۡاْ عَلَىٰٓ أَدۡبَٰرِهِمۡ نُفُورٗا ﴾ [الإسراء: ٤٦]، وهذا دليل واضح على شدة بغضهم للحق الذي جاء به القرآن الكريم ونفورهم من سماعه وضيق صدورهم منه، وما أخفوه من ذلك تظهر آثاره عليهم، ضيقًا وحنقًا في نفوسهم، وكراهية وبغضًا في وجوههم، قال تعالى: ﴿ وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٖ تَعۡرِفُ فِي وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلۡمُنكَرَۖ يَكَادُونَ يَسۡطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتۡلُونَ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِنَاۗ قُلۡ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرّٖ مِّن ذَٰلِكُمُۗ ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ﴾ [الحج: ٧٢].

قال الرازي: (وللمفسرين في المنكر عبارات، أحدها: قال الكلبي: تعرف في وجوههم الكراهية للقرآن، ثانيها: قال ابن عباس ﷺ: التجبر والترفع، وثالثها: قال مقاتل: أنكروا أن يكون من الله تعالى)(١)، وقال الإمام السعدي: (﴿ وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٖ ﴾ التي هي آيات الله الجليلة المستلزمة لبيان الحق من الباطل لم يلتفتوا إليها ولم يرفعوا بها رأسًا، بل ﴿ تَعۡرِفُ فِي وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلۡمُنكَرَ ﴾ من بغضها وكراهتها، ترى وجوههم معبسة وأبشارهم مكفهرة، ﴿ يَكَادُونَ يَسۡطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتۡلُونَ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِنَا ﴾ أي: يكادون يوقعون بهم القتل والضرب البليغ، من شدة بغضهم وبغض الحق وعداوته، فهذه الحالة من الكفار وشرها بئس الشر، ولكن ثَمَّ ما هو شر منها، حالتهم التي يؤولون إليها، فلهذا قال: ﴿ قُلۡ

(١) التفسير الكبير (٢٣/ ٦٨).

أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ ۗ ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ (١).

ثانيًا: حصول الرحمة من الله عزَّ وجلَّ:

إن المستمع للقرآن المنصت له - وذلك بداية تأثره بالقرآن - موعود برحمة الله سبحانه في الدنيا والآخرة، وهو جل وعلا الذي لا يخلف الميعاد، قال تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا لَهُۥ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٤] قال الليث (يقال: ما الرحمة إلى أحد بأسرع منها إلى مستمع القرآن، لقول الله جلَّ ذكره: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا لَهُۥ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ ولعل من الله واجبة)(٢).

وقال أبو السعود في تفسير الآية: (إرشاد إلى طريق الفوز بما أشير إليه من المنافع الجليلة التي ينطوي عليها القرآن، أي: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ﴾ الذي ذكرت شؤونه العظيمة فاستمعوا له استماع تحقيق وقبول، ﴿وَأَنصِتُوا﴾ أي: واسكتوا خلال القراءة وراعوها إلى انقضائها تعظيمًا له وتكميلاً للاستماع ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ أي: تفوزون بالرحمة)(٣).

وقال السعدي: (فإن من لازم على هذين الأمرين - أي: الاستماع والإنصات - حين يتلى كتاب الله فإنه ينال خيرًا كثيرًا، وعلمًا غزيرًا، وإيمانًا مستمرًّا متجددًا، وهدى متزايدًا، وبصيرة في دينه، ولهذا رتب الله حصول

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٤٩٥).

(٢) الجامع لأحكام القرآن (١/ ٩).

(٣) إرشاد العقل السليم (٣/ ٣١٠) .

الرحمة عليها، فدل ذلك على أن من تُلي عليه الكتاب فلم يستمع له ولم ينصت أنه محروم الحظ من الرحمة، قد فاته خير كثير)[1].

وقد ذهب كثير من المفسرين منهم ابن عباس والشافعي إلى أن عسى ولعل من الله واجبة، إيجاب تفضل وإحسان، لا إيجاب إلزام، ولهم في ذلك تفصيل وبيان، قال الزركشي: (عسى ولعل من الله واجبتان، وإن كانتا رجاء وطمعًا في كلام المخلوقين، لأن الخلق هم الذين يعرض لهم الشكوك والظنون، والبارئ منزه عن ذلك، والوجه في استعمال هذه الألفاظ أن الأمور الممكنة لما كان الخلق يشكون فيها ولا يقطعون على الكائن منها، وكان الله يعلم الكائن منها على الصحة صارت لها نسبتان: نسبة إلى الله تعالى، تسمى نسبة قطع ويقين، ونسبة إلى المخلوق، وتسمى نسبة شك وظن، فصارت هذه الألفاظ لذلك ترد تارة بلفظ القطع بحسب ما هي عليه عند الله، كقوله: ﴿ فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ ﴾ [المائدة: ٥٤]، وتارة بلفظ الشك بحسب ما هي عليه عند المخلوقين، كقوله ﴿ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ ﴾ [المائدة: ٥٢]، ﴿ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴾ [الإسراء: ٧٩][2].

إذا كان هذا حال أهل الإيمان وهو الواجب عليهم فإن الله تعالى ذم المتشاغلين اللاهين عن سماع القرآن، وهو الذي لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، قال الحارث المحاسبي: (ولقد ذم مولانا عزَّ وجلَّ المتشاغلين

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٢٧٦).

(٢) ينظر: تفسير ابن أبي حاتم (٣/ ٩٠٥)، البرهان (٤/ ٢٨٨).

عند استماعهم بالمحادثة، فقال تعالى: ﴿ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ ﴾ [الإسراء: ٤٧]، فاحرص ألا يكون فيك خلق ذم الله عزَّ وجلَّ به كافرًا وإن كنت مؤمنًا، فإن من كمال الإيمان مخالفة أهل الكفر بالقول والفعل فيما نهى الله عزَّ وجلَّ عنه، ولقد وعد ربنا عزَّ وجلَّ الرحمة وأمرنا أن نطلبها منه بالاستماع والإنصات لفهم كلامه، فقال: ﴿ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ يعني: لكي ترحموا، فجعل الاستماع بترك الكلام لتفهم كلامه يوجب الرحمة قبل العمل بما يسمع)[1].

لقد جعل الله عزَّ وجلَّ كتابه القرآن الكريم رحمة في خمسة عشر موضعًا، كقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأعراف: ٥٢]، وقوله تعالى: ﴿ هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأعراف: ٢٠٣]، وقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [يونس: ٥٧]، وقوله تعالى: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾ [الإسراء: ٨٢].

قال الشيخ البليهي في بيان مظاهر هذه الرحمة وآثارها: (هو رحمة أرحم الراحمين للخلق أجمعين، فهو رحمة من الكفر والشرك والنفاق، ورحمة من الظلم والفسوق، ورحمة من الجور والطغيان، ورحمة من زيغ القلوب وأمراضها، ورحمة من كل فتنة ومحنة وشر وبلاء، ورحمة من الهم والغم، ومن عذاب السعير،

(١) فهم القرآن (٣٢١ – ٣٢٢).

ومعنى ذلك أن من آمن بالقرآن، وعمل بما جاء به القرآن، عافاه الله وسلم من كل ما تقدم)[١].

ثالثًا: حصول البركة من العناية به :

جاء وصف القرآن الكريم بأنه مبارك، عظيم نفعه عميم خيره، لمن تأثر وعمل به، وسار على نهجه واتبع طريقه، قال تعالى: ﴿ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴾ [الأعراف: ٩٢]، قال الراغب الأصفهاني في معنى البركة: (والبركة ثبوت الخير الإلهي في الشيء، قال تعالى: ﴿ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ﴾، وسمي بذلك لثبوت الخير فيه ثبوت الماء في البركة، والمبارك ما فيه ذلك الخير، على ذلك ﴿ وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ ﴾ تنبيهًا على ما يفيض عليه من الخيرات الإلهية)[٢]، وقد أبان ابن القيم بعض أوجه هذه البركة بقوله: (والمقصود: أن سماع خاصة الخاصة المقربين هو سماع القرآن بالاعتبارات الثلاثة، إدراكًا وفهمًا، وتدبرًا، وإجابة، وكل سماع في القرآن مدح الله أصحابه وأثنى عليهم، وأمر به أولياءه فهو هذا السماع.

وهو سماع الآيات، لا سماع الأبيات، وسماع القرآن لا سماع مزامير الشيطان، وسماع كلام رب الأرض والسماء لا سماع قصائد الشعراء.. وسماع الأنبياء والمرسلين، لا سماع المغنين والمطربين.

(١) الهدى والبيان (١/ ٢١٣).

(٢) المفردات (٤٤).

فهذا السماع حادٍ يحدو القلوب، إلى جوار علام الغيوب، وسائق يسوق الأرواح إلى ديار الأفراح، ومحرك يثير ساكن العزمات، إلى أعلى المقامات وأرفع الدرجات، ومنادٍ ينادي للإيمان، ودليل يسير بالركب في طريق الجنان، وداعٍ يدعو القلوب بالمساء والصباح، من قبل فالق الإصباح (حي على الفلاح، حي على الفلاح).

فلم يعدم من اختار هذا السماع إرشادًا لحجة، وتبصرة لعبرة، وتذكرة لمعرفة، وفكرة في آية، ودلالة على رشد، وردًا على ضلالة، وإرشادًا من غي، وبصيرة من عمى، وأمرًا بمصلحة، ونهيًا عن مضرة ومفسدة، وهداية إلى نور، وإخراجًا من ظلمة، وزجرًا عن هوى، وحثًا على تقى، وجلاء لبصيرة، وحياة لقلب، وغذاء ودواء وشفاء، وعصمة ونجاة، وكشف شبهة، وإيضاح برهان، وتحقيق حق، وإبطال باطل)[1].

وقال الرازي في تفسير الآية: (قال أهل المعاني: (كِتَابٌ مُبَارَكٌ) أي: كثير خيره، دائم بركته ومنفعته، يبشر بالثواب والمغفرة، ويزجر عن القبيح والمعصية.. ثم قد جرت سنة الله تعالى بأن الباحث عنه والمتمسك به يحصل له عز الدنيا وسعادة الآخرة، يقول مصنف هذا الكتاب محمد بن عمر الرازي: وأنا قد نقلت أنواعًا من العلوم النقلية والعقلية فلم يحصل لي بسبب شيء من العلوم من أنواع السعادات في الدين والدنيا مثل ما حصل بسبب خدمة هذا العلم)[2]، وقال ابن عاشور: (والقرآن مبارك لأنه يدل على الخير العظيم،

(١) مدارج السالكين (١/ ٤٨٤ – ٤٨٥).

(٢) التفسير الكبير (١٣/ ٨٥).

فالبركة كائنة به، فكأن البركة جعلت في ألفاظه، ولأن الله تعالى قد أودع فيه بركة لقارئه المشتغل به، بركة في الدنيا وفي الآخرة، ولأنه مشتمل على ما في العمل به كمال النفس وطهارتها بالمعارف النظرية ثم العملية، فكانت البركة ملازمة لقراءته وفهمه)[1].

وهذا مشروط باتباعه والعمل به والسير على نهجه، كما قال تعالى: ﴿ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [الأنعام: ١٥٥]، فهو مبارك لمن آمن به واتبعه وتمسك به، وهذا من أسباب نيل رحمة الله عزَّ وجلَّ كما ذكرت ذلك آنفًا، يقول الشيخ السعدي في تفسير الآية (أي: فيه الخير الكثير والعلم الغزير، وهو الذي تستمد منه سائر العلوم، وتستخرج منه البركات، فما من خير إلا وقد دعا إليه ورغب فيه، وذكر الحكم والمصالح التي تحث عليه، وما من شر إلا وقد نهى عنه وحذر منه، وذكر الأسباب المنفرة عن فعله وعواقبها الوخيمة، ﴿ فَٱتَّبِعُوهُ ﴾ فيما يأمر به وينهى، وابنوا أصول دينكم وفروعه عليه، ﴿ وَٱتَّقُوا۟ ﴾ الله تعالى أن تخالفوا له أمرًا، ﴿ لَعَلَّكُمْ ﴾ إن اتبعتموه ﴿ تُرْحَمُونَ ﴾ فأكبر سبب لنيل رحمة الله اتباع هذا الكتاب علمًا وعملاً)[2].

ومما جاء في وصف القرآن بأنه مبارك لمن تدبر آياته وعمل به قوله تعالى: ﴿ وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ ۚ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴾ [الأنبياء: ٥٠]، وقوله تعالى: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾

(١) تفسير التحرير والتنوير (٧/ ٣٧٠).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٢٤٣).

[ص: ٢٩]، قال الشيخ البليهي:(هو والله بحر البركات ومعينها الصافي وأصلها الأصيل، القرآن في نفسه مبارك، ومبارك على غيره، مبارك في جميع مجالات البركة، مجال التوحيد والعبودية، ومجال العقيدة الإسلامية، ومجال الأمر والنهي، والوعد والوعيد والترغيب والترهيب، القرآن الكريم مبارك في حكمه وأحكامه، ومبارك في مقاصده وأهدافه، ومبارك في أخباره وأقاصيصه وأمثاله، ومبارك في جميع ما اشتمل عليه، ولهذا سماه الله هدى، وسماه شفاء وسماه نورًا وسماه رحمة وسماه بصائر، ولا نملك وليس باستطاعة كل مخلوق أن يصف القرآن بأعظم مما وصفه الله به)[1].

وقد نبه الإمام الزرقاني على أن البركة المرجوة من القرآن ليست في تلاوته في المآتم والمقابر ونحو ذلك، فتلك بدعة محدثة في دين الإسلام، إنما تكون بركته في تدبره وتفهمه والعمل به، قال رحمه الله تعالى: (أما غالب مسلمة اليوم فقد اكتفوا من القرآن بألفاظ يرددونها وأنغام يلحنونها في المآتم والمقابر والدور، وبمصاحف يحملونها أو يودعونها تركة في البيوت، ونسوا أن بركة القرآن العظمى إنما هي في تدبره وتفهمه، وفي الجلوس إليه والاستفادة من هديه وآدابه، ثم في الوقوف عند أوامره ومراضيه، والبعد عن مساخطه ونواهيه، والله تعالى يقول: ﴿كِتَـٰبٌ أَنزَلْنَـٰهُ إِلَيْكَ مُبَـٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَـٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾ ، ويقول سبحانه ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ ، ويقول جل ذكره ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ .

---

(١) الهدى والبيان (٢/ ٢٣).

فما أشبه المسلمين اليوم بالعطشان يموت من الظمأ والماء بين يديه، والحيوان يهلك من الإعياء والنور من حوله يهديه السبيل لو فتح عينيه، ﴿ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ ﴾، ألا إن آخر هذه الأمة لا يصلح إلا بما صلح به أولها، وهو أن يعودوا إلى كتاب الله يستلهمونه الرشد ويستمنحونه الهدى، ويحكمونه في نفوسهم وفي كل ما يتصل بهم، كما كان آباؤنا الأولون يتلونه حق تلاوته بتدبر وتفكر، في مجالسهم ومساجدهم وأنديتهم وبيوتهم، وفي صلواتهم المفروضة والنافلة، وفي تهجدهم بالليل والناس نيام، حتى ظهرت آثاره الباهرة عاجلة فيهم، فرفع نفوسهم وانتشلها من حضيض الوثنية، وأعلى هممهم وهذب أخلاقهم، وأرشدهم إلى الانتفاع بقوى الكون ومنافعه، وكان من وراء ذلك أن مهروا في العلوم والفنون والصناعات، كما مهروا في الأخلاق والآداب والإصلاح والإرشاد، ووصلوا إلى غاية بزوا فيها كل أمم الدنيا)[1].

رابعًا: الهداية والتوفيق لمن اتبعه في الدنيا والآخرة:

وصف ربنا تعالى كتابه العزيز بأنه هدى في سبعة وأربعين موضعًا من القرآن، فهو هدى من الكفر والشرك إلى الإسلام والإيمان، وهو هدى من الظلم والجور والاعتداء إلى العدل والقسط والإنصاف، وهو هدى من الحيرة والشك والقلق إلى اليقين والطمأنينة، وهو هدى من العناء والشقاء إلى السعادة والراحة، وبهذا امتن الله تعالى على رسوله عليه الصلاة والسلام والأمة من بعده، فقال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ مَا كُنتَ

---

(١) مناهل العرفان (٢/ ٨ – ٩).

تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الشورى: ٥٢]، كما أن هذه الهداية متى تحققت لم يضل صاحبها في الدنيا ولم يشق في الآخرة، قال تعالى: ﴿ فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴾، قال ابن عباس رضي الله عنهما: (ضمن الله لمن قرأ القرآن وعمل بما فيه ألا يضل في الدنيا ولا يشقى في الآخرة)(١).

ولكن هذه الهداية خاصة بمن آمن به واتبعه وتمسك به، كما قال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِى كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ [النحل: ٨٩]، وقال تعالى: ﴿ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [البقرة: ٩٧]، وقال تعالى: ﴿ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [آل عمران: ١٣٨]، وقال تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [البقرة: ٢].

يقول الإمام السعدي في تفسير الآية: (الهدى ما تحصل به الهداية من الضلالة والشبهة وما به الهداية إلى سلوك الطرق النافعة، وقال سبحانه ﴿ هُدًى ﴾ وحذف المعمول فلم يقل هدى للمصلحة الفلانية ولا للشيء الفلاني، لإرادة العموم وأنه هدى لجميع مصالح الدارين، فهو مرشد للعباد في المسائل الأصولية والفروعية، ومبين للحق من الباطل والصحيح من

(١) الجامع لأحكام القرآن (١١/ ٢٥٨).

الضعيف، ومبين لهم كيف يسلكون الطرق النافعة لهم في دنياهم وأخراهم)[١].

إن هداية القرآن كما تكون لأهلها في الدنيا فهي الموصلة لهم أيضًا إلى جنات النعيم، يقول تعالى: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖۚ قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ ١٥ يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِهِۦ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [المائدة: ١٥ – ١٦]، فهداية القرآن لا تتحقق وتحصل إلا لمن اتبعه وتمسك به، يقول الحافظ ابن كثير: (ثم أخبر تعالى عن القرآن العظيم الذي أنزله على نبيه الكريم فقال: ﴿قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ ١٥ يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ﴾ أي: طرق النجاة والسلامة ومناهج الاستقامة، ﴿وَيُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِهِۦ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ أي: ينجيهم من المهالك، ويوضح لهم أبين المسالك، فيصرف عنهم المحذور ويحصل لهم أحب الأمور، وينفي عنهم الضلالة ويرشدهم إلى أقوم حالة)[٢]، ويقول الإمام السعدي: (ثم ذكر من الذي يهتدي بهذا القرآن؟ وما هو السبب الذي من العبد لحصول ذلك؟ فقال ﴿يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ﴾ أي: يهدي من اجتهد وحرص على بلوغ مرضاة الله وصار قصده حسنًا سبل السلام، التي يسلم

(١) تيسير الكريم الرحمن (٢٣).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٢/ ٣٤).

صاحبها من العذاب، وتوصله إلى دار السلام، وهو العلم بالحق والعمل به، إجمالاً وتفصيلاً: ﴿ وَيُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ ظلمات الكفر والبدعة والمعصية، والجهل والغفلة، ﴿إِلَى ٱلنُّورِ﴾ نور الإيمان والسنة والطاعة والعلوم والذكر.

وكل هذه من الهداية بإذن الله، الذي ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، ﴿ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾)[1].

إن هداية القرآن الكائنة لمن انتفع به دالة على كل خير في الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ يَهۡدِي لِلَّتِي هِيَ أَقۡوَمُ ﴾ الآية، يقول الإمام الشنقيطي: (ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة أن هذا القرآن العظيم الذي هو أعظم الكتب السماوية وأجمعها لجميع العلوم وآخرها عهدًا برب العالمين جل وعلا يهدي للتي هي أقوم، أي: الطريقة التي هي أسد وأعدل وأصوب...، وهذه الآية الكريمة أجمل الله جل وعلا فيها جميع ما في القرآن من الهدى إلى خير الطرق وأعدلها وأصوبها، فلو تتبعنا تفصيلها على وجه الكمال لأتينا على جميع القرآن العظيم، لشمولها لجميع ما فيه من الهدى إلى خيري الدنيا والآخرة)[2]، ثم أطال في تفصيل ما تضمنه القرآن من الهدايات في حوالي خمسين صفحة.

وقد ذكر الزرقاني أن هداية القرآن امتازت بأنها تامة وعامة وواضحة حيث قال (وهداية القرآن تمتاز بأنها عامة وتامة وواضحة.

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (١٨٨).

(٢) أضواء البيان (٣/ ٤٠٩).

أما عمومها: فلأنها تنتظم الإنس والجن في كل عصر ومصر، وفي كل زمان ومكان، قال سبحانه وتعالى: ﴿ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ﴾ ، وقال جلت حكمته: ﴿ وَهَـٰذَا كِتَـٰبٌ أَنزَلْنَـٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾، وقال عز اسمه: ﴿ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ .

وأما تمام هذه الهداية: فلأنها احتوت أرقى ما عرفت البشرية وعرفْ التأريخ من هدايات الله والناس، وانتظمت كل ما يحتاج إليه الخلق في العقائد والأخلاق والعبادات والمعاملات على اختلاف أنواعها، وجمعت بين مصالح البشر في العاجلة والآجلة، ونظمت علاقة الإنسان بربه وبالكون الذي يعيش فيه، ووفقت بطريقة حكيمة بين مطالب الروح والجسد.

وأما وضوح هذه الهداية: فلعرضها عرضًا رائعًا مؤثرًا، توافرت فيه كل وسائل الإيضاح وعوامل الإقناع، أسلوب فذّ معجز في بلاغته وبيانه، واستدلال بسيط عميق يستمد بساطته وعمقه من كتاب الكون الناطق، وأمثال خلابة تخرج أدق المعقولات في صورة أجلى الملموسات، وحكم بالغات تبهر الألباب بمحاسن الإسلام وجلال التشريع، وقصص حكيم مختار يقوي الإيمان واليقين ويهذب النفوس والغرائز، ويصقل الأفكار والعواطف... ويصور له مستقبل الأبرار والفجار تصويرًا يجعله كأنه حاضر تراه الأبصار في رابعة النهار)[1].

---

(١) مناهل العرفان (٢/ ١٣٤ – ١٣٥).

خامسًا: مضاعفة أجر التلاوة لمن تأثر به:

جاء الترغيب في تلاوة القرآن والحث على ذلك، وبيان أجر التلاوة، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ [فاطر: ٢٩ - ٣٠]، قال قتادة: (كان مطرف بن عبد الله يقول: هذه آية القراء)[1]، وأمر الله بها رسوله ﷺ، والخطاب له ولأمته، قال تعالى: ﴿وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ﴾ [الكهف: ٢٧]، وقال تعالى: ﴿ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [العنكبوت: ٤٥]. وقال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾ وَأَنْ أَتْلُوَاْ ٱلْقُرْءَانَ﴾ [النمل: ٩١ - ٩٢]، وقد امتثل نبينا ﷺ أمر به له بالتلاوة والترتيل بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ﴿١﴾ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢﴾ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ﴿٣﴾ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾ [المزمل: ١ - ٤].

قال علاء الدين علي بن محمد البغدادي الشهير بالخازن: (إن الله تعالى لما أمر بقيام الليل أتبعه بترتيل القرآن حتى يتمكن المصلي من حضور القلب والتأمل والفكر في حقائق الآيات ومعانيها، فعند الوصول إلى ذكر الله تعالى يستشعر بقلبه عظمة المذكور وجلاله، وعند ذكر الوعد والوعيد يحصل الرجاء والخوف، وعند ذكر القصص والأمثال يحصل الاعتبار، فيستنير القلب عند ذلك بنور المعرفة)[2].

---

(١) رواه الطبراني في تفسيره (٢١/ ٨٧)، وانظر: الدر المنثور (٧/ ٢٣).

(٢) تفسير الخازن (٧/ ١٦٥).

ومما جاء في السنة من الأمر بتلاوة القرآن والحث عليه والترغيب فيه ما رواه أبو أمامة الباهلي رضي الله عنه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: "**اقرؤوا القرآن فإنه يأتي يوم القيامة شفيعًا لأصحابه**" الحديث رواه مسلم[١].

وعن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: "**من قرأ حرفًا من كتاب الله تعالى فله به حسنة، والحسنة بعشر أمثالها، لا أقول (ألم) حرف، ولكن ألف حرف ولام حرف وميم حرف**" رواه الترمذي[٢].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: "**إن الذي ليس في جوفه شيء من القرآن كالبيت الخرب**" رواه أحمد والترمذي[٣]، وعن عبد الله بن عمرو بن العاص – رضي الله عنهما – عن النبي ﷺ قال: "**يقال لصاحب القرآن اقرأ وارتق ورتل كما كنت ترتل في الدنيا، فإن منزلتك عند آخر آية تقرؤها**" رواه أحمد وأبوداود والترمذي[٤].

من أجل هذه النصوص وغيرها اجتهد السلف رحمهم الله تعالى في الإكثار من تلاوة القرآن والعناية بحفظه، اغتنامًا للأجر وإحرازًا لهذه الفضائل، حبًّا لكلام الله عزَّ وجلَّ وأنسًا وتلذذًا بتلاوته، وكان هذا الأمر

---

(١) صحيح مسلم: كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضل قراءة القرآن وسورة البقرة (٦/ ٩٠).

(٢) رواه الترمذي في سننه: كتاب فضائل القرآن، باب ما جاء فيمن قرأ حرفًا من القرآن ما له من الأجر (٥/ ١٧٥)، برقم(٢٩١٠) وقال: (حسن صحيح) وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢/ ١١٠٤) برقم(٦٤٦٩).

(٣) ....

(٤) ....

مشهورًا بينهم، يقومون به ويؤدونه كما طلب منهم، لا يتهاونون به، يحكي ذلك عنهم الإمام عبد الرحمن بن عمرو الأوزاعي فيقول: (كان يقال: خمس كان عليها أصحاب محمد ﷺ والتابعون بإحسان، لزوم الجماعة واتباع السنة وعمارة المسجد وتلاوة القرآن والجهاد في سبيل الله)(١)، ويقول الحسن بن أبي الحسن البصري: (تفقدوا الحلاوة في ثلاث، الصلاة والقرآن والدعاء، فإن وجدتموها فاحفظوا واحمدوا الله على ذلك، وإن لم تجدوها فاعلموا أن أبواب الخير عليكم مغلقة)(٢).

وقد عد علماؤنا هذه الخاصية للقرآن الكريم، فدونوها في مؤلفاتهم وعدوها من وجوه إعجازه، قال شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري: (الوجه السابع: - أي من وجوه إعجازه - أن قارئه لا يمل قراءته، وسامعه لا تمجه مسامعه، بل الإكباب على تلاوته وترديده يزيده حلاوة ومحبة، لا يزال غضًّا طريًا، وغيره من الكلام ولو بلغ ما عساه أن يبلغ من البلاغة والفصاحة يمل من الترديد ويُسْأم إذا أعيد، وكذلك غيره من الكتب لا يوجد فيها ما فيه من ذلك)(٣).

وقال: جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي معددًا وجوه إعجازه: (أن قارئه لا يمله وسامعه لا يمجه، بل الإكباب على تلاوته يزيده حلاوة، وترديده يوجب له محبة، وغيره من الكلام يعادى إذا أعيد ويمل مع

---

(١) حلية الأولياء (٦/ ١٤٢).

(٢) رواه البيهقي في شعب الإيمان (٥/ ٤٤٧)، برقم(٧٢٢٦).

(٣) نهاية الأرب (١٨/ ٣٠٦-٣٠٧).

الترديد، ولهذا وصف ﷺ القرآن بأنه لا يخلق على كثرة الرد)[١]، [٢].

ومن أشهر من عرف عنه ذلك من الصحابة عثمان بن عفان ﷺ، وكان إذا قيل له في ذلك قال: (لو طهرت قلوبكم ما شبعتم من كلام الله عزَّ وجلَّ)[٣]، ومن الصحابة المكثرين من تلاوة القرآن المحافظين على حزبهم منه عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما ففي الصحيحين من حديثه ﷺ أنه كان يصوم الدهر ويقرأ القرآن كل ليلة، فذكر ذلك للنبيّ ﷺ، فقال لي: "**ألم أخبر أنك تصوم الدهر وتقرأ القرآن كل ليلة؟**" فقلت: بلى يا نبي الله، ولم أرد بذلك إلا الخير، قال: "**فإن بحسبك أن تصوم من كل شهر ثلاثة أيام**"، قلت يا نبي الله إني أطيق أفضل من ذلك، قال: "**فإن لزوجك عليك حقًّا ولزورك عليك حقًّا ولجسدك عليك حقًّا**"، قال: "**فصم صوم داود نبي الله عليه السلام، فإنه كان أعبد الناس**"، قال قلت: يا نبي الله وما صوم داود؟ قال: "**كان يصوم يومًا ويفطر يومًا**"، قال: "**واقرأ في القرآن في كل شهر**"، قلت: يا نبي الله إني أطيق أفضل من ذلك، قال: "**فاقرأه في كل عشرين**"، قال قلت: يا نبي الله إني أطيق أفضل من ذلك، قال: "**فاقرأه في كل عشر**"، قال قلت: يا نبي الله إني أطيق

---

(١) الاتقان (٢/ ١٠١٧).

(٢) انظر: خصائص القرآن الكريم (١٦٣- ١٦٤)، والجملة الأخيرة جزء من حديث رواه الترمذي عن علي بن أبي طالب ﷺ مرفوعًا – أبواب ثواب القرآن – باب ما جاء في فضل القرآن (٥/ ١٧٢ – ١٧٣)، برقم(٢٩٠٦)، وقال: "هذا حديث لا نعرفه إلا من هذا الوجه وإسناده مجهول، وفي الحارث – يعني الأعور – مقال" وقال الحافظ ابن حجر في التقريب ١٤٦ عنه" كذبه الشعبي في رأيه، ورمي بالرفض، وفي حديثه ضعف".

(٣) رواه أحمد في كتاب الزهد (١٨٨).

أفضل من ذلك، قال: "**فاقرأه في كل سبع ولا تزد على ذلك، فإن لزوجك عليك حقًّا ولزورك عليك حقًّا ولجسدك عليك حقًّا**" قال: فشددت فشدد علي، قال: وقال لي النبي ﷺ: "**إنك لا تدري لعلك يطول بك عمر**"، قال: فصرت إلى الذي قال لي النبي ﷺ، فلما كبرت وددت أني كنت قبلت رخصة نبي الله ﷺ)(١)، لأنه كان يداوم على ما اعتاده من الخير، ولم يرغب في تركه، وفي رواية أنه تنزل معه فقال: "**اقرأه في ثلاث**"(٢)، وفي رواية قال: "**لا يفقه من قرأ القرآن في أقل من ثلاث**"(٣).

والتلاوة على أي حال يثاب القارئ ويؤجر عليها بإذن الله عزَّ وجلَّ، وهذا من فضل الله تعالى وعموم رحمته بعباده، وسماحة هذا الدين وشمول طاعاته وقُربَه لأهله، فلا يحرم أحد الخير والعمل الصالح، والناس في هذا درجات، والفضل بيد الله يؤتيه من يشاء، إذ لا يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون، ولهذا قال ﷺ: "**الماهر بالقرآن مع السفرة الكرام البررة، والذي يقرأ**

---

(١) رواه البخاري في صحيحه: كتاب فضائل القرآن، باب في كم يقرأ القرآن (٩/ ٩٤)، برقم(٥٠٥٢)، ومسلم في صحيحه: كتاب الصوم، باب النهي عن صوم الدهر (٨/ ٤٢) واللفظ له.

(٢) رواه أبوداود في سننه: كتاب الصلاة، باب في كم يقرأ القرآن (٢/ ٥٥)، برقم(١٣٩١).

(٣)رواه أحمد في المسند (٢/ ١٦٥، ١٨٩)، وأبوداود في سننه: كتاب الصلاة، باب تحزيب القرآن (٢/ ٥٦)، برقم(١٣٩٤)، والترمذي في سننه: كتاب القراءات، باب(١٣)، برقم(٢٩٤٩)، وابن ماجه في سننه ما جاء في قيام شهر رمضان: باب في كم يستحب ختم القرآن (١/ ٢٢٥)، برقم(١٣٤٧)، وصححه الألباني.

القرآن ويتتعتع فيه وهو عليه شاق له أجران" رواه البخاري ومسلم[1]، هذا لفظ مسلم من حديث عائشة رضي الله عنها، ولفظ البخاري: "مثل الذي يقرأ القرآن وهو حافظ له مع السفرة الكرام البررة، ومثل الذي يقرأ القرآن وهو يتعاهده وهو عليه شديد فله أجران".

ويتضاعف هذا الأجر ويزداد كلما كان الفهم والتدبر، والعلم والعمل، فالآية السابقة أعني قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴾ [فاطر: ٢٩ – ٣٠] فيها إشادة بالذين يداومون على تلاوة القرآن ويعملون بمقتضاه، ووعد لهم من الله عزَّ وجلَّ بأنه سيوفيهم جزاء أعمالهم وثواب ما فعلوا من الصالحات، ويزيدهم فوق أجورهم من فضله وإنعامه وإحسانه، والآية أيضًا لم تربط التلاوة بأي درجة من درجات الفهم والعلم للآيات، ولكنها ربطت التلاوة بالصلاة والإنفاق السري والعلني، وتلك دعوة إلى تطبيق ما في القرآن الكريم.

ولن يتسنى له ذلك حتى يتفهم آي الذكر الحكيم ويعتني بفقه أحكامها، ومعرفة معانيها بالنظر في كتب أهل العلم وسؤال أهل الذكر.

وعلى هذا فالعجلة في التلاوة حتى يختم القرآن بلا تدبر ولا تفهم يعقبه العمل والاتباع منهي عنه، كما ذكر ذلك أهل العلم، وبخاصة إذا كان ختمه

---

(١) رواه البخاري في صحيحه: كتاب التفسير – باب تفسير سورة عبس (٨/ ٦٩١)، برقم (٤٩٣٧)، ومسلم في صحيحه: كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضيلة حافظ القرآن (٦/ ٨٤).

القرآن في أقل من ثلاث، لقوله عليه الصلاة والسلام **"لا يفقه من قرأ القرآن في أقل من ثلاث"**، وهذا ما فقهه سلفنا الصالح فكانوا في هذا وغيره متمسكين بالسنة مقتدين بالأسوة القدوة عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم، فلا يتجاوزون ما أرشدهم إليه ولا يخالفون ما أمرهم به وحَدّه لهم في مقدار ما يختم فيه القرآن، ويرشدون إلى ذلك ويدعون إلى الأخذ بالسنة وعدم الإثقال والتشديد على النفس، فالخير كله في اتباع هدي النبي ﷺ، يقول أبو العالية الرياحي: (كنا عبيدًا مملوكين، منا من يؤدي الضرائب، ومنا من يخدم أهله، فكنا نختم كل ليلة، فشق ذلك علينا، فجعلنا نختم كل ليلتين مرة، فشق ذلك علينا فجعلنا نختم كل ثلاث ليال مرة، فشق علينا حتى شكا بعضنا إلى بعض، فلقينا أصحاب رسول الله ﷺ، فعلمونا أن نختم كل جمعة، أو قال: كل سبع، فصلينا ونمنا ولم يشق علينا)(١).

وقد جعل الإمام النووي الضابط في قراءة القرآن والاستكثار من ختمه إمكان تدبره وتفهمه كيما يكون التأثر والانتفاع به، فقال: (ينبغي أن يحافظ على تلاوته ويكثر منها، وكان السلف رضي الله عنهم لهم عادات مختلفة في قدر ما يختمون فيه، فروى ابن أبي داود عن بعض السلف أنهم كانوا يختمون في كل شهرين ختمة واحدة، وعن بعضهم في كل شهر ختمة، وعن بعضهم في كل عشر ليال ختمة، وعن بعضهم في كل ثمان ليال ختمة، وعن الأكثرين في كل سبع ليال... وعن كثيرين في كل ثلاث ليال.. والاختيار أن ذلك يختلف باختلاف الأشخاص، فمن كان يظهر له بدقيق الفكر لطائف ومعارف

---

(١) رواه ابن سعد في الطبقات (٧/ ١١٣)، وانظر: سير أعلام النبلاء (٤/ ٢٠٩).

فليقتصر على قدر ما يحصل له كمال فهم ما يقرؤه، وكذا من كان مشغولاً بنشر العلم أو غيره من مهمات الدين ومصالح المسلمين العامة، فليقتصر على قدر لا يحصل بسببه إخلال بما هو مرصد له، وإن لم يكن من هؤلاء المذكورين فليستكثر ما أمكنه من غير خروج إلى حد الملل والهذرمة)[١].

ففضيلة ختم القرآن على تفاوتها مترتبة على فهمه وتدبره والتأثر والعمل به، سئل زيد بن ثابت ﷺ: (كيف ترى في قراءة القرآن في سبع؟ فقال: حسن، ولأن أقرأه في نصف شهر أو عشر أحب إلي، وسلني لم ذاك؟ قال: فإني أسألك، فقال زيد: لكي أتدبره وأقف عليه)[٢]، وقال سماحة الشيخ عبد العزيز ابن باز - رحمه الله تعالى - عن قراءة الإمام في صلاة التراويح: (ليس المهم أن يختم، وإنما المهم أن ينتفع الناس في صلاته وفي خشوعه وفي قراءته، حتى يستفيدوا ويطمئنوا، لأن عنايته بالناس وحرصه على خشوعهم وعلى إفادتهم أهم من كونه يختم)، وقال أيضًا: (وليس هذا موجبًا لأن يتعجل، ولا يتأنى في قراءته ولا يتحرى الخشوع والطمأنينة، بل تحري هذه الأمور أولى من مراعاة الختمة)[٣].

سادسًا: ان التأثر بالقرآن والخشوع حال تلاوته هو معيار تفضيل القراءة من المصحف على القراءة من الحفظ أو بالعكس:

اختلف السلف في أيها أفضل القراءة عن ظهر قلب أم القراءة في المصحف، والاختيار هو الجمع بين ما روي عنهم في ذلك، قال الحافظ أبو

---

(١) التبيان (٤٦ - ٤٩).

(٢) الموطأ: كتاب القرآن، باب ما جاء في تحزيب القرآن (١/ ٢٠١).

(٣) الجواب الصحيح من أحكام صلاة التراويح (١٢، ١٤).

الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير بعد أن ذكر جملة من الآثار المروية عن الصحابة الآمرة بالنظر في المصحف: (فهذه الآثار تدل على أن هذا أمر مطلوب، لئلا يعطل المصحف فلا يقرأ منه، ولعله قد يقع لبعض الحفظة نسيان فيستذكر منه، أو تحريف كلمة أو تقديم أو تأخير فالاستثبات أولى، والرجوع إلى المصحف أثبت من أفواه الرجال، فأما تلقين القرآن فمن فم الملقن أحسن، لأن الكتابة لا تدل على الأداء، وقال بعض العلماء: المدار في هذه المسألة على الخشوع، فإن كان الخشوع أكثر عند القراءة عن ظهر قلب فهو الأفضل، وإن كان عند النظر في المصحف أكثر فهو أفضل، فإن استويا فالقراءة نظرًا أولى، لأنها أثبت وتمتاز بالنظر إلى المصحف)[1]، وقال النووي (والظاهر أن كلام السلف وفعلهم محمول على هذا التفصيل)[2].

وقال القرطبي: (قال العلماء: فائدة القراءة من الحفظ قوة الحفظ، وثبات الذكر، وهي أمكن للتفكر فيه، وفائدة القراءة من المصحف الاستثبات، لا يخلط بزيادة حرف ولا إسقاط حرف، أو تقديم آية أو تأخيرها، وأيضًا فإنه يعطي عينيه حظها منه، فإن العين تؤدي للنفس، وبين النفس والصدر حجاب، والقرآن في الصدر فإذا قرأه عن ظهر قلبه فإنه يسمع أذنه فيؤدي إلى النفس، وإذا نظر في الخط كانت العين والأذن قد اشتركتا في الأداء، وذلك أوفى للأداء، وكانت العين قد أخذت حظها كالأذن، ويقضي حق المصحف، لأن المصحف لم يتخذ ليهمل، وله على الانفراد حق فلا يقرأ إلا على طهارة، ألا ترى أن المحدث

---

(١) فضائل القرآن (٨٦ – ٨٧).

(٢) التبيان (٧٨).

منهي عن مسه، فكانت القراءة في المصحف أولى وأفضل)[١].

سابعًا: حصول الأمن المطلق لمن آمن به واتبعه:

دليل هذا قوله تعالى: ﴿ يَٰعِبَادِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ ۝٦٨ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ مُسۡلِمِينَ ﴾ [الزخرف: ٦٨ - ٦٩]، وهذا ظاهر فيمن آمن بالقرآن وصدق به، وأتبع ذلك العمل به والسير على طريقه والتزام نهجه، يقول الحافظ ابن كثير: (وقوله تبارك وتعالى: ﴿ يَٰعِبَادِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ ﴾ ثم بشرهم فقال: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ مُسۡلِمِينَ ﴾ أي: آمنت قلوبهم وبواطنهم وانقادت لشرع الله جوارحهم وظواهرهم، قال المعتمر بن سليمان عن أبيه: (إذا كان يوم القيامة فإن الناس حين يبعثون لا يبقى أحد منهم إلا فزع، فينادي مناد: ﴿ يَٰعِبَادِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ ﴾ فيرجوها الناس كلهم، قال فيتبعها: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ مُسۡلِمِينَ ﴾ قال فييأس الناس منها غير المؤمنين)[٢].

ويقول الشيخ السعدي: (ذكر ثواب المتقين، وأن الله تعالى يناديهم يوم القيامة بما يسر قلوبهم ويذهب عنهم كل آفة وشر، فيقول: ﴿ يَٰعِبَادِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ ﴾ أي: لا خوف يلحقكم فيما تستقبلونه من الأمور، ولا حزن يصيبكم فيما مضى منها، وإذا انتفى المكروه من كل وجه ثبت المحبوب المطلوب، ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِـَٔايَٰتِنَا ﴾ أي: وَصْفهم الإيمانُ بآيات الله،

---

(١) التذكار في أفضل الأذكار (١٨٧).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٤/ ١٣٤).

وذلك شامل للتصديق بها، وما لا يتم التصديق إلا به، من العلم بمعناها والعمل بمقتضاها، ﴿ وَكَانُواْ مُسْلِمِينَ ﴾ لله منقادين في جميع أحوالهم، فجمعوا بين الاتصاف بعمل الظاهر والباطن)[1].

ومن الأدلة على عموم هذه الهداية من كتب الله جميعًا، وحصول الأمن والسعادة وانتفاء ضدها لمن آمن بها واتبعها قوله تعالى: ﴿ قُلْنَا ٱهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [البقرة: ٣٨]، يقول السعدي (هدى، أي: رسول وكتاب يهديكم لما يقربكم مني، ويدنيكم مني، ويدنيكم من رضائي﴿ فَمَن تَبِعَ هُدَايَ ﴾ منكم، بأن آمن برسلي وكتبي، واهتدى بهم، وذلك بتصديق جميع أخبار الرسل والكتب، والامتثال للأمر والاجتناب للنهي، ﴿ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾، وفي الآية الأخرى: ﴿ فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴾.

فرتب على اتباع هداه أربعة أشياء:

نفي الخوف والحزن، والفرق بينهما، أن المكروه إن كان قد مضى، أحدث الحزن، وإن كان منتظرًا أحدث الخوف، فنفاهما عمن اتبع الهدى، وإذا انتفيا ثبت ضدهما، وهو الهدى والسعادة، فمن اتبع هداه، حصل له الأمن والسعادة الدنيوية والأخروية والهدى، وانتفى عن كل مكروه، من الخوف والحزن والضلال والشقاء، فحصل له المرغوب، واندفع عنه المرهوب، وهذا عكس من لم يتبع هداه، فكفر وكذب آياته)[2].

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٧١٤ – ٧١٥).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٣٢).

المبحث الثامن

تأثر الجن بالقرآن

خلق الله تبارك وتعالى الجن للغاية التي من أجلها خلق الإنس، قال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الجن: ٥٦]، فهم مأمورون بتوحيد الله وعبادته، ومكلفون بالقيام بطاعته والحذر والبعد عن نواهيه، ومطالبون بالإيمان برسل الله وبما جاؤوا به عن الله عزَّ وجلَّ من الهدى والبيان، ولكن تكليفهم بحسبهم، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: (الجن مأمورون بالأصول والفروع بحسبهم، فإنهم ليسوا مماثلي الإنس في الحد والحقيقة، فلا يكون ما أمروا به ونهوا عنه مساويًا لما على الإنس في الحد، لكنهم مشاركون الإنس في جنس التكليف بالأمر والنهي، والتحليل والتحريم، وهذا ما لم أعلم فيه نزاعًا بين المسلمين)(١).

ومما يدل على أنه بلغهم شرع الله ورسالته على أيدي رسله عموم قوله تعالى: ﴿ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا۟ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا ۖ وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ ﴾ [الأنعام: ١٣٠]، فمن آمن بالله وأطاعه دخل الجنة، ومن جحد وعاند وعصى وتمرد دخل النار، والأدلة على هذا كثيرة، منها قوله تعالى: ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴾ [الرحمن: ٤٦]، والخطاب للجن والإنس، لأن الحديث في مطلع السورة عنهما، وقال تعالى:

---

(١) مجموع الفتاوى (٤/ ٢٣٣).

﴿ قَالَ ٱدْخُلُواْ فِيٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِي ٱلنَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا ﴾ [الأعراف: ٣٨]، وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ﴾ [الأعراف: ١٧٩]، وقال تعالى: ﴿ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ [السجدة: ١٣]، يقول ابن مفلح: (الجن مكلفون في الجملة إجماعًا، يدخل كافرهم النار إجماعًا، ويدخل مؤمنهم الجنة وفاقًا لمالك والشافعي، لا أنهم يصيرون ترابًا كالبهائم، وإن ثواب مؤمنهم النجاة من النار خلافًا لأبي حنيفة والليث بن سعد ومن وافقهما، وظاهر الأول أنهم في الجنة كغيرهم بقدر ثوابهم، خلافًا لمن قال لا يأكلون ولا يشربون فيها كمجاهد، أو أنهم في ربض الجنة أي: حول الجنة كعمر بن عبد العزيز)(١).

والراجح أنه ليس من الجن رسول، بل رسلهم من الإنس، بدليل قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالاً نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ ﴾ [يوسف: ١٠٩]، قال الحافظ ابن كثير: (ولا شك أن الجن لم يبعث الله تعالى منهم رسولاً)(٢)، وقال محمد بن عبد الله الشبلي الحنفي: (جمهور العلماء سلفًا وخلفًا على أنه لم يكن من الجن قط رسول ولا نبي، كذا روي عن ابن عباس ومجاهد والكلبي وأبي عبيد)(٣).

ومن رسل الله تبارك وتعالى نبينا محمد ﷺ، المبعوث إلى الخلق كافة

---

(١) الفروع (٢/ ٤٦٠).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٢/ ١٧٧).

(٣) آكام المرجان في أحكام الجان (٦٣)، وانظر: طريق الهجرتين لابن القيم (٥٠٩ – ٥١٠).

جنهم وإنسهم، المبلغ عن الله كتابه الكريم ودينه القويم، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: (وهذا أصل متفق عليه بين الصحابة والتابعين لهم بإحسان وأئمة المسلمين وسائر طوائف المسلمين، أهل السنة والجماعة وغيرهم رضي الله عنهم أجمعين)[1].

ومما يدل لذلك تحدي القرآن الجن والإنس، قال تعالى: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ [الإسراء: ٨٨].

وقد سارع فريق من الجن إلى الإيمان عندما استمعوا القرآن وتأثروا بآياته، معلنين ذلك مصر حين به عند قومهم، وقد أوحى الله إلى رسوله بذلك، قال تعالى: ﴿ قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓا۟ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ﴾ [الجن: ١ – ٢].

وهؤلاء الذين استمعوا القرآن وآمنوا هم النفر المذكورون في سورة الأحقاف، قال تعالى: ﴿ وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ۝٢٩ قَالُوا۟ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٣٠ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٣١ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى

---

(١) مجموع الفتاوى (١٩/ ٩).

ﭐلۡأَرۡضِ وَلَيۡسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءُۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ﴾ [الأحقاف: ٢٩ - ٣٢] استمعوا للقرآن، وآمنوا بالله، ورجعوا دعاة يدعون قومهم إلى التوحيد والإيمان، ويبشرونهم وينذرونهم، ويرشدونهم إلى الحق والهدى.

وقصة هؤلاء النفر الذين استمعوا إلى الرسول ﷺ رواها البخاري ومسلم عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: (انطلق رسول الله ﷺ في طائفة من أصحابه عامدين إلى سوق عكاظ، وقد حيل بين الشياطين وبين خبر السماء، وأرسلت عليهم الشهب، فرجعت الشياطين إلى قومهم، فقالوا: ما لكم؟ فقالوا: حيل بيننا وبين خبر السماء، وأرسلت علينا الشهب. قالوا: ما حال بينكم وبين خبر السماء إلا شيء حدث، فاضربوا مشارق الأرض ومغاربها، وانظروا ما هذا الذي حال بينكم وبين خبر السماء، فانطلقوا يضربون مشارق الأرض ومغاربها يبتغون ما هذا الذي حال بينهم وبين خبر السماء، فانصرف أولئك النفر الذين توجهوا نحو تهامة إلى صلاة الفجر، فلما سمعوا القرآن - قالوا: استمعوا له، فقالوا: هذا والله الذي حال بينكم وبين خبر السماء، فهنالك حين رجعوا إلى قومهم وقالوا: يا قومنا إنا سمعنا قرآنًا عجبًا يهدي إلى الرشد فآمنا به. وأنزل الله على نبيه ﴿ قُلۡ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسۡتَمَعَ نَفَرٞ مِّنَ ٱلۡجِنِّ ﴾ [الجن: ١]، وإنما أوحي إليه قول الجن)[1].

تلك كانت بداية معرفة الجن برسالة محمد ﷺ، استمعوا قراءة القرآن

(١) رواه البخاري في صحيحه: كتاب التفسير (٨/ ٦٦٩ - ٦٧٠)، برقم(٤٩٢١)، ومسلم في صحيحه: كتاب الصلاة، باب الجهر بالقراءة في الصبح والقراءة على الجن (٤/ ١٦٧ - ١٦٨).

بدون علم الرسول ﷺ، فآمن فريق منهم وانطلقوا دعاة هداة إلى قومهم.

ثم جاءت وفود الجن بعد ذلك تتلقى العلم من رسول الله ﷺ، وأعطاهم الرسول ﷺ من وقته، وعلمهم مما علمه الله، وقرأ عليهم القرآن، وبلغهم دين الإسلام، وكان ذلك في مكة قبل الهجرة؛ عن علقمة قال: قلت لعبد الله بن مسعود ﷺ: هل شهد أحد منكم مع رسول الله ﷺ ليلة الجن؟ قال: لا، ولكنا كنا مع رسول الله ﷺ ذات ليلة ففقدناه، فالتمسناه في الأودية والشعاب، فقلنا: أستطير أو اغتيل، قال: فبتنا بشر ليلة بات بها قوم، فلما أصبحنا إذا هو جاء من قبل حراء، فقلنا يا رسول الله فقدناك فطلبناك فلم نجدك، فبتنا بشر ليلة بات بها قوم، فقال: **"أتاني داعي الجن فذهبت معه فقرأت عليهم القرآن"** قال: فانطلق بنا، فأرانا آثارهم وآثار نيرانهم) الحديث[1].

ومما قرأه عليهم ﷺ سورة الرحمن، يقول ﷺ: **"لقد قرأتها** – يعني سورة الرحمن – **على الجن ليلة الجن، فكانوا أحسن ردودًا منكم، كنت كلما أتيت على قوله ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ قالوا: ولا بشيء من نعمك ربنا نكذب، فلك الحمد"**[2].

ولم تكن تلك الليلة هي الليلة الوحيدة التي التقى فيها بهم، بل تكرر

(١) رواه مسلم في صحيحه: كتاب الصلاة، باب الجهر بالقراءة في الصبح والقراءة على الجن (٤/ ١٦٩ – ١٧٠)، قال النووي (معنى أستطير: طارت به الجن، ومعنى اغتيل: قتل سرًّا).

(٢) رواه الطبري في تفسيره (٢٢/ ١٩٠)، والبزار في مسنده برقم(٢٢٦٩).

لقاؤه ﷺ بالجن بعد ذلك، وقد ساق ابن كثير في تفسير سورة الأحقاف - الأحاديث الدالة على اجتماعه ﷺ بالجن، وفي بعضها أن ابن مسعود كان قريبًا من الرسول ﷺ في إحدى تلك الليالي(١).

وقد ورد في بعض الروايات في صحيح البخاري أن بعض الجن الذين أتوه كانوا من مكان يسمى (نصيبين)، فقد روى البخاري عن أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: "**أتاني وفد نصيبين - ونعم الجن - فسألوني الزاد، فدعوت الله لهم ألا يمروا بعظم ولا روثة إلا وجدوا عليها طُعمًا**"(٢).

لقد دلت هذه النصوص من الكتاب والسنة على رغبة هؤلاء النفر من الجن في الانتفاع بالقرآن والتأثر به، عقيدة وعبادة، سمعًا وطاعة، دعوة ونصيحة لقومهم، يظهر ذلك من التأمل في الآيات الكريمة من سورتي الأحقاف والجن، وذلك من خلال الوقفات التالية:

أولاً: أمرهم بالإنصات وتواصيهم على ذلك، قال تعالى: ﴿ وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْ ﴾ [الأحقاف: ٢٩] ومعلوم أن الإنصات والاستماع سبب مبارك في الانتفاع بالقرآن وبداية التأثر به، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ

(١) تفسير القرآن العظيم (٤/ ١٦٢ - ١٧٠).

(٢) رواه البخاري في صحيحه: كتاب مناقب الأنصار، باب ذكر الجن (٧/ ١٧١)، برقم(٣٨٦٠)، و(نصيبين): مدينة في بلاد الجزيرة على الطريق من الموصل إلى الشام، معجم البلدان (٥/ ٢٨٨).

أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ [ق: ٣٧]، وقال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمْ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴾ [الزمر: ١٨]، وهو سبب مبارك في نيل رحمة الله عزَّ وجلَّ، قال تعالى: ﴿ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [الأعراف: ٢٠٤].

قال الألوسي (**قَالُوا**) أي: قال بعضهم لبعض ﴿**أَنْصِتُوا**﴾ اسكتوا لنسمعه، وفيه تأدب مع العلم وكيف يتعلم)[١]، وقال ابن عاشور (و﴿**أَنْصِتُوا**﴾ أمر بتوجيه الأسماع إلى الكلام اهتمامًا به، لئلا يفوت منه شيء)[٢].

ثانيًا: من تمام أدبهم وحرصهم على الانتفاع بالقرآن أنهم أتموا استماعه ولم يقاطعوا رسول الله ﷺ، بل انتظروه حتى فرغ وأتم قراءته فوعوه وأثر ذلك فيهم، قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْاْ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴾.

ثالثًا: من علامة إيمانهم بالقرآن وتأثرهم به وصدقهم في ذلك أنهم انصرفوا وتفرقوا يدعون قومهم إلى ما هداهم الله إليه من الحق الذي لا مرية فيه، قال قتادة: (ما أسرع ما عقل القوم)[٣]، وقال الرازي: (وذلك لا يكون إلا بعد إيمانهم، لأنهم لا يدعون غيرهم إلى استماع القرآن والتصديق به إلا وقد آمنوا)[٤]، وجاء التصريح بإيمانهم في قوله تعالى: ﴿ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ

(١) روح المعاني (٢٦/ ٣٠).
(٢) تفسير التحرير والتنوير (٢٦/ ٥٨).
(٣) البحر المحيط (٨/ ٦٧).
(٤) التفسير الكبير (٢٨/ ٣٢).

مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ﴾ [الجن: ١ - ٢].

رابعًا: أنهم بدؤوا دعوة قومهم ببيان صدق ما سمعوه وأحقيته بالإيمان والاتباع، قال تعالى: ﴿ قَالُواْ يَـٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَـٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الأحقاف: ٣٠].

قال الرازي: (وصفوه بوصفين، الأول: كونه ﴿ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ أي: مصدقًا لكتب الأنبياء، والمعنى: أن كتب سائر الأنبياء كانت مشتملة على الدعوة إلى التوحيد والنبوة والمعاد، والأمر بتطهير الأخلاق، فكذلك هذا الكتاب مشتمل على هذه المعاني، الثاني: قوله: ﴿يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ .

واعلم أن الوصف الأول يفيد أن هذا الكتاب يماثل سائر الكتاب الإلهية في الدعوة إلى هذه المطالب العالية الشريفة، والوصف الثاني يفيد أن هذه المطالب التي اشتمل القرآن عليها مطالب حقة صدق في أنفسها، يعلم كل أحد بصريح عقله كونها كذلك، سواء وردت الكتب الإلهية قبل ذلك بها أو لم ترد.

فإن قالوا: كيف قالوا:﴿ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ ﴾؟ قلنا: قد نقلنا عن الحسن أنه قال: إنهم كانوا على اليهودية، وعن ابن عباس أن الجن ما سمعت أمر عيسى فلذلك قالوا: ﴿ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ ﴾[1]، وقيل: ذكروه دون عيسى عليهما السلام

(١) التفسير الكبير (٢٨/ ٣٢).

لأنه متفق عليه عند أهل الكتابين، وإنما خص موسى عليه السلام بالذكر لأن الكتاب المنزل عليه أجل الكتب قبل القرآن، وكان عيسى عليه السلام مأمورًا بالعلم بمعظم ما فيه، فهو عمدة لبني إسرائيل في أحكام الشرع، وإنما الإنجيل متمم ومكمل لبعض أحكامه)[١].

أما ما نسب إلى ابن عباس ففيه بعد فإن اشتهار أمر عيسى عليه السلام وانتشار أمر دينه أظهر من أن يخفى، لا سيما على الجن، ولذلك قال عنه أبو حيان: (وهذا لا يصح عن ابن عباس، كيف لا تسمع بأمر عيسى وله أمة عظيمة لا تنحصر على ملته، فيبعد عن الجن كونهم لم يسمعوا به)[٢]، أما قول الحسن فيحتاج إلى نقل صحيح.

خامسًا: أنهم لما مدحوا القرآن وبينوا محله ومرتبته العلية دعوا قومهم إلى الإيمان به، فقالوا ﴿ يَـٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ ﴾ الآية، قال الألوسي: (أرادوا به ما سمعوه من الكتاب، ووصفوه بالدعوة إلى الله تعالى بعدما وصفوه بالهداية إلى الحق والطريق المستقيم لتلازمهما، وفي الجمع بينهما ترغيب لهم في الإجابة أي ترغيب، وجوز أن يكون أرادوا به الرسول ﷺ)[٣].

وقال ابن عاشور: (وإعادتهم نداء قومهم للاهتمام بما بعد النداء وهو ﴿ أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ ﴾ إلى آخره، لأنه المقصود من توجيه الخطاب إلى قومهم، وليس المقصود إعلام قومهم بما لقوا من عجيب الحوادث، وإنما كان ذلك

---

(١) روح المعاني (٢٩/ ٣٢).

(٢) البحر المحيط (٨/ ٦٨).

(٣) روح المعاني (٢٦/ ٣٢).

توطئه لهذا، ولأن اختلاف الأغراض وتجدد الغرض مما يقتضي إعادة مثل هذا النداء، كما يعيد الخطيب قوله (أيها الناس) كما وقع في خطبة حجة الوداع، واستعير ﴿ أَجِيبُواْ ﴾ لمعنى: اعملوا وتقلدوا تشبيهًا للعمل بما في كلام المتكلم بإجابة نداء المنادي، كما في الآية ﴿ إِلَّآ أَن دَعَوۡتُكُمۡ فَٱسۡتَجَبۡتُمۡ لِي ﴾ [إبراهيم: ٢٢]، أي: إلا أن أمرتكم فأطعتموني، لأن قومهم لم يدعهم داع إلى شيء، أي: أطيعوا ما طلب منكم أن تعملوه)(١).

سادسًا: أنهم جمعوا بين الترغيب والترهيب في دعوتهم، مبينين ثواب من استجاب وعقاب من أعرض، فقالوا ﴿ يَغۡفِرۡ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ وَيُجِرۡكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ﴾ ، قال الرازي: (قال بعضهم كلمة ﴿ مِنۡ﴾ هاهنا زائدة، والتقدير: يغفر لكم ذنوبكم، وقيل: بل الفائدة فيه أن كلمة ﴿ مِنۡ﴾ هاهنا لابتداء الغاية، فكأن المعنى: أن يقع ابتداء الغفران بالذنوب ثم ينتهي إلى غفران ما صدر عنكم من ترك الأولى والأكمل)(٢).

سابعًا: أنهم بالغوا في التحذير من عدم الاستجابة لداعي الله تعالى فقالوا: ﴿ وَمَن لَّا يُجِبۡ دَاعِيَ ٱللَّهِ فَلَيۡسَ بِمُعۡجِزٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَيۡسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءُۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ﴾، قال الألوسي: (إيجاب للإجابة بطريق الترهيب إثر إيجابها بطريق الترغيب، وتحقيق لكونهم منذرين، وإظهار داعي الله من غير اكتفاء بأحد الضميرين بأن يقال: يجبه أو يجب داعيه، للمبالغة في

---

(١) تفسير التحرير والتنوير (٢٦/ ٦٠).

(٢) التفسير الكبير (٢٨/ ٣٣).

الإيجاب بزيادة التقرير، وتربية المهابة وإدخال الروعة، وتقييد الإعجاز بكونه في الأرض لتوسيع الدائرة، أي: فليس بمعجز له بالهرب، وإن هرب كل مهرب من أقطارها أو دخل في أعماقها، وقوله تعالى: ﴿ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ ﴾ بيان لاستحالة نجاته بواسطة الغير إثر بيان استحالة نجاته بنفسه، وجمع الأولياء باعتبار معنى ﴿ مِنْ﴾ ، فيكون من باب مقابلة الجمع بالجمع، ... وكذا الجمع في قوله سبحانه: ﴿أُوْلئكَ﴾ بذلك الاعتبار، أي: أولئك الموصوفون بعدم إجابة داعي الله ﴿ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ أي: ظاهر كونه ضلالاً، بحيث لا يخفى على أحد، حيث أعرضوا عن إجابة من هذا شأنه)[1].

---

(١) روح المعاني (٢٦/ ٣٣).

الخاتمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فأوجز ما ظهر لي من النتائج بعد كتابة هذا البحث فيما يلي:

- أنزل الله تعالى كتابه القرآن الكريم لثلاثة مقاصد، تلاوته والتعبد به، فهم آياته وتدبره، العمل به والسمع والطاعة له.
- حثنا ربنا عزَّ وجلَّ على تدبر كتابه وتفهم آياته ورغب في ذلك، مبينًا آثاره الحميدة على أهله، وفي المقابل حذر من الإعراض عن كتابه وآثار الصدود عنه.
- المروي عن سلفنا الصالح رحمهم الله تعالى في الحث على التأثر بالقرآن والعمل به كثير، وكانوا بذلك قدوة لغيرهم، تأسيًا بالنبي ﷺ خير المتأثرين بالقرآن.
- الواجب على أهل القرآن التواصي على العمل به والتعاون على ذلك، ومحض النصيحة من أجله، ودعوة الناس إلى هذا الخير المبارك.
- الإخلاص في القول والعمل لله عزَّ وجلَّ أحد شرطي القبول، ومن ذلك التأثر بالقرآن والعمل به، ولن ينتفع قارئ القرآن وسامعه به حتى يخلص نيته لله تعالى، ولذلك علامات وأمارات بينها سلفنا الصالح رحمهم الله تعالى.
- جاء التحذير في الكتاب والسنة من الرياء والسمعة وطلب الشهرة في التأثر بالقرآن والعمل به، وبين أهل العلم صفات أولئك، وآثار أحوالهم السيئة في الدنيا والآخرة.

- أبان تعالى الصنف الذي ينتفع بالقرآن ويتأثر به، وهو المؤمن الذي استكمل شروط التأثر به، وابتعد عن الموانع والصوارف التي تحول بينه وبين ذلك، ومن فقد شرطًا من هذه الشروط أو حصل له مانع كان انتفاعه بالقرآن أقل نصيبًا وأنقص حظًّا.

- شروط التأثر بالقرآن وعوامل ذلك كثيرة، جاء بيانها في الكتاب والسنة والحث على تحقيقها واستيفائها، وفي سير سلفنا الصالح بيانها وتطبيقها قولاً وعملاً.

- من شروط التأثر بالقرآن: الإيمان بالله تعالى وتعظيمه ومحبته، وحياة القلب وطهارته وحضوره، وحسن الاستماع والإنصات له، وأن يعلم العبد أنه المقصود بكل خطاب في القرآن، وتحسين الصوت حال القراءة وترتيلها، والعلم بتفسير القرآن ومعرفة معانيه، ومراعاة الأدب مع القرآن كالوضوء واستقبال القبلة والاستعاذة قبل التلاوة، والصدق في الطلب فهمه والتأثر به.

- هناك موانع وصوارف تحول بين قارئ القرآن وسامعه وبين التأثر والانتفاع به، كالعجلة في تلاوته طلبًا لختمه، وقصر الهمة على تحقيق القراءة وتجويد التلاوة دون التدبر والعمل.

- من الموانع أيضًا ارتكاب الذنوب والمعاصي وإلفها ومحبتها، وأيضًا اتباع الهوى والاستجابة له، فلذلك أثر واضح في الحرمان من فهم القرآن والتأثر به.

- إن فضل السلف على الخلف عظيم، وبخاصة أصحاب نبينا ﷺ ورضي عنهم أجمعين، فقد كانوا أعمق هذه الأمة علمًا وأقومها هديًا وأقلها تكلفًا

وأسلمها منهجًا، على نور من كتاب الله تعالى وهدي من سنة رسول الله عليه الصلاة والسلام، محذرين من البدع وأهلها.

- من تلك البدع التي نهى عنها السلف وحذروا منها ما يكون عند تلاوة القرآن وسماعه من التكلف والتقعر في إخراج حروفه وتحقيقها وتطبيق التجويد، ومن ذلك الصعق والغشي ورفع الأصوات والصراخ عند تلاوته أو سماعه، والقيام بحركات وتصرفات منكرة لم ترد في كتاب ولا سنة ولا مروي عن أئمة السلف وعلمائهم.

- ما وقع لبعض السلف من الصعق والغشي عند تلاوة القرآن أو سماعه قليل نادر، ويحتاج إلى مراجعة إسناده إليهم والتحقق من صحته، فإن ثبت فهو محمول على ضعف القلب وعدم احتماله، والقدوة في هذا وغيره نبينا محمد ﷺ.

- للتأثر بالقرآن صفات ومظاهر مباركة، وأحوال وآثار مرضية ترى على أهله، من الخشوع ورقة القلب ودمع العين، والانقياد والاتباع والسمع والطاعة، وصلاح الظاهر والباطن وغير ذلك.

- جاء في القرآن والسنة بيان تلك المظاهر والأحوال، وفي هدي النبي ﷺ وسيرته امتثال ذلك وتطبيقه والتزامه، ثم سيرة أصحابه ﷺ ومن تبعهم بإحسان رحم الله الجميع.

- من أدلة محبة العبد القرآن الكريم وصدقه في ذلك سرعة استجابته وانقياده له، وتنفيذ أوامره والقيام بحقوقه، والحذر من مخالفته والإعراض عنه.

- بالعمل بالقرآن واتباعه يكون الشرف الأعلى والذكر المبارك لأهله في الدنيا

والآخرة، وبخلاف ذلك يعد هاجرًا له وإن آمن به وقرأه وحفظه.

- من مظاهر التأثر بالقرآن حسن الاستدلال به واستنباط الأحكام منه والتوفيق لذلك، وهو دليل على ارتباطه الوثيق به ونظره الدائم في آياته وتفهم مدلولاتها وهداياتها، والفضل بيد الله يؤتيه من يشاء.

- أفضل دعاء الله تعالى وسؤاله إنما يكون بكلامه (القرآن الكريم) أجمع الدعاء وأنفعه وأكثره بركة، وهو دليل واضح على تعلق الداعي بربه وتوسله إليه بكلامه.

- القرآن الكريم شفاء للمؤمنين من الأمراض والأدواء الحسية والمعنوية، شفاء من فتن الشبهات وفتن الشهوات، شفاء من الحيرة والشك، شفاء من أمراض القلوب والأبدان.

- القرآن بعمومه شفاء بإذن الله تعالى، لكن دلت السنة على خاصية بعض سوره وآياته بذلك، كسورة الفاتحة والمعوذتين، وآية الكرسي، وشواهد نفعه قديمًا وحديثًا كثيرة.

- من النصح لكتاب الله تعالى تعليم تلاوته والعناية بتحفيظه وتدريس أحكامه وفقه آياته والدعوة إلى العمل به واتباعه، وخير من يقوم بهذه المهمة الشريفة ويؤدي هذا الواجب العظيم أهله المتأثرون العاملون به.

- رسالة القرآن عالمية، ليست مقصورة على قوم أو زمن أو مكان، وهذا من مميزاتها وخصائصها، وهذا يوجب أداءها والقيام بها وتبليغها للعالمين، والبشرية في هذا الزمن أحوج ما تكون إلى نور القرآن وهدايته.

- من توفيق الله لعبده تأثره بالقرآن الكريم والعمل به وانتفاعه به، وهذا من فضل الله عليه وإحسانه إليه، فلولا فضل الله وهدايته ما حصل له هذا.

- يجني المتأثرون بالقرآن العاملون به ثمارًا عظيمة وحسنات كثيرة وآثارًا مباركة في الدنيا والآخرة، من ذلك: زيادة الإيمان، ونيل الرحمة من الله عزَّ وجلَّ، وحصول البركة لقارئه وسامعه، والهداية والتوفيق لمن اتبعه في الدنيا والآخرة.

- اختلف السلف في أيهما أفضل، القراءة عن ظهر قلب أم القراءة من المصحف، والأقرب أن معيار التفضيل في هذه المسألة هو التأثر والخشوع والانتفاع بالقرآن حال تلاوته.

- حصول الأمن المطلق في الدنيا والآخرة متوقف بعد فضل الله تعالى وإحسانه على أمور، منها العمل بالقرآن واتباعه والسير على نهجه والتمسك به والتحاكم إليه في صغير الأمور وكبيرها.

- خلق الله تعالى الجن للغاية التي من أجلها خلق الإنس وهي عبادته وتوحيده، وكلفهم الإيمان بكتبه ورسله، والقيام بطاعته والبعد عن معصيته والحذر من مخالفته.

- كان للجن مواقف ولقاءات مع رسول الله ﷺ، استمعوا منه القرآن فآمنوا وصدقوا ثم انطلقوا دعاة خير إلى قومهم.

ثبت المصادر والمراجع

- **الإتقان في علوم القرآن**، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، تعليق مصطفى ديب البغا، دار ابن كثير - دمشق بيروت - الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ/ ١٩٧٨م.
- **الإحسان بترتيب صحيح ابن حبان**، علاء الدين علي الفارسي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.
- **إحياء علوم الدين**، أبو حامد محمد بن محمد الغزالي، دار الفكر - بيروت، بدون.
- **أخلاق حملة القرآن**، محمد بن الحسين الآجري، تحقيق فواز أحمد زمرلي، دار الكتاب العربي، الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.
- **الأذكار المنتخبة من كلام سيد الأبرار ﷺ**، يحيى بن شرف النووي، دار الرشد، الرياض.
- **الاستقامة**، شيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم بن تيمية، تحقيق محمد رشاد سالم، إدارة الثقافة والنشر بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الطبعة الثانية، ١٤١١هـ/ ١٩٩١م.
- **استنشاق نسيم الأنس من نفحات رياض القدس**، ابن رجب الحنبلي، تحقيق أحمد الشريف، المكتب الإسلامي ودار الخاني، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ.

- **أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن**، محمد الأمين المختار الشنقيطي، طبعة صاحب السمو الملكي الأمير أحمد بن عبد العزيز، المطابع الأهلية للأوفست، الرياض، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.

- **الاعتصام**، إبراهيم بن موسى الشاطبي، عناية محمد رشيد رضا، دار المعرفة – بيروت – ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م.

- **إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان**، محمد بن أبي بكر ابن القيم، بعناية محمد حامد الفقي، دار المعرفة – بيروت – بدون.

- **آكام المرجان في أحكام الجان**، محمد بن عبد الله الشبلي الحنفي، تحقيق محمد إبراهيم الجمل، مكتبة القرآن – القاهرة – بدون.

- **الأمثال في القرآن**، محمد بن أبي بكر ابن القيم، تحقيق سعيد الخطيب، دار المعرفة – بيروت – الطبعة الثانية، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.

- **البداية والنهاية**، إسماعيل بن عمر بن كثير، تحقيق جماعة من العلماء، دار الكتب العلمية – بيروت – الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.

- **الإيمان**، شيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم بن تيمية، مكتبة أنس بن مالك، ١٤٠٠هـ.

- **البرهان في علوم القرآن**، بدر الدين محمد الزركشي، تحقيق محمد إبراهيم، دار المعرفة – بيروت – الطبعة الثانية.

- **تاريخ بغداد**، أبو بكر أحمد بن علي الخطيب البغدادي، دار الكتاب العربي – بيروت –.

- التاريخ الكبير، محمد بن إسماعيل البخاري، مؤسسة الكتب الثقافية – بيروت -

- التبيان في آداب حملة القرآن، أبو زكريا يحيى بن شرف النووي، تحقيق عبد القادر الأرناؤوط، مكتبة دار البيان، الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.

-تحفة الأحوذي شرح جامع الترمذي، محمد عبد الرحمن المباركفوري، عناية عبد الرحمن محمد عثمان، محمد عبد المحسن الكتبي، المدينة المنورة.

- التذكار في أفضل الأذكار، محمد بن أحمد القرطبي، تحقيق بشير محمد عيون، دار البيان – دمشق وبيروت – الطبعة الرابعة، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م.

- تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم، بدر الدين بن إبراهيم بن جماعة الكناني، دار الكتب العلمية – بيروت -.

- تفسير البحر المحيط، أبو حيان محمد بن يوسف الأندلسي، دار الفكر – بيروت – الطبعة الثانية، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.

- تفسير التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور، مطبعة عيسى البابي الحلبي، ١٩٦٤م.

- تفسير الخازن (لباب التأويل في معاني التنزيل)، علي بن محمد البغدادي الشهير بالخازن، دار الفكر – بيروت – ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م.

- تفسير أبي السعود (إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم)، محمد بن محمد العمادي، دار إحياء التراث العربي – بيروت -.

- تفسير القرآن، عبد الرزاق بن همام الصنعاني، تحقيق: مصطفى مسلم محمد،

مكتبة الرشد – الرياض – الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ/ ١٩٨٩م.

- **تفسير القرآن الحكيم**، محمد رشيد رضا، دار المعرفة – بيروت – الطبعة الثانية.

- **تفسير القرآن العظيم**، عبد الرحمن بن محمد بن أبي حاتم، تحقيق أسعد محمد الطيب، مكتبة الباز، مكة المكرمة – الرياض – الطبعة الثانية، ١٤١٩هـ / ١٩٩٩م.

- **تفسير القرآن العظيم**، أبو الفداء إسماعيل بن كثير، دار المعرفة – بيروت –.

- **التفسير القيم لابن القيم**، جمعه محمد بن إدريس الندوي، تحقيق: محمد حامد الفقي، دار الكتب العلمية – بيروت –.

- **التفسير الكبير**، فخر الدين عمر الرازي، دار الفكر – بيروت – ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م.

- **تقريب التهذيب**، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، تحقيق: محمد عوّامة، دار الرشيد – حلب – الطبعة الأولى، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م.

- **تلبيس إبليس**، جمال الدين أبو الفرج ابن الجوزي البغدادي، تحقيق السيد الجميلي، دار الكتاب العربي، الطبعة الثانية ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.

- **التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد**، يوسف بن عبد الله النمري القرطبي، مطبعة العربي، الطبعة الثانية، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٩م.

- **تهذيب الأسماء واللغات**، يحيى بن شرف النووي، دار الكتب العلمية – بيروت –.

- **تهذيب التهذيب**، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، دار صادر – بيروت – الطبعة الأولى ١٣٢٥هـ.

- **تهذيب الكمال**، يوسف بن عبد الرحمن المزي، تحقيق بشار عواد معروف، مؤسسة الرسالة – بيروت – الطبعة الأولى، ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م.

- **التوضيح والبيان لشجرة الإيمان**، عبد الرحمن بن ناصر السعدي، عناية أشرف عبد المقصود، مكتبة أضواء السلف – الرياض – الطبعة الأولى ١٤١٧هـ/ ١٩٩٨م.

- **تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان**، عبد الرحمن بن ناصر السعدي، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م.

- **جامع الأصول من أحاديث الرسول**، مبارك بن محمد بن الأثير، دار إحياء التراث العربي – بيروت – الطبعة الثانية ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م.

- **جامع البيان عن تأويل آي القرآن**، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، دار المعرفة – بيروت – الطبعة الرابعة ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م.

- **الجامع لأحكام القرآن**، محمد بن أحمد القرطبي، تحقيق: أحمد البردوني، دار الفكر – بيروت –.

- **الجمان في تشبيهات القرآن**، عبد الله بن الحسين بن ناقيا، تحقيق: محمود الشيباني، الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.

- **الجواب الصحيح من أحكام صلاة التراويح**، الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز، دار القاسم – الرياض – الطبعة الأولى ١٤١٩هـ.

- **حلية الأولياء وطبقات الأصفياء**، أبو نعيم أحمد بن عبد الله الأصفهاني، دار

الكتاب العربي - القاهرة - الطبعة الرابعة ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.

- **الحوادث والبدع**، أبو بكر محمد بن الوليد الطرطوشي، تحقيق: محمد الطالبي، دار الأصفهاني وشركاه - جدة.

- **خصائص القرآن الكريم**، فهد بن عبد الرحمن الرومي، الطبعة الرابعة، ١٤٠٩هـ.

- **الداء والدواء** (الجواب الكافي فيمن سأل عن الدواء الشافي) محمد ابن أبي بكر ابن القيم، تحقيق: يوسف علي بدوي، دار ابن كثير - دمشق وبيروت - الطبعة الأولى، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م.

- **الدر المنثور في التفسير بالمأثور**، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، دار الفكر - بيروت - الطبعة الثانية، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٨م.

- **دلائل النبوة**، أحمد بن الحسين البيهقي، تحقيق: عبد الرحمن محمد عثمان، دار النصر - القاهرة - الطبعة الأولى، ١٣٨٩هـ.

- **الرسالة**، محمد بن إدريس الشافعي، تحقيق: أحمد محمد شاكر، ١٣٥٨هـ/ ١٩٣٩م.

- **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني**، أبو الفضل محمود الألوسي، دار إحياء التراث العربي - بيروت -.

- **زاد المعاد في هدي خير العباد**، محمد بن أبي بكر ابن القيم، تحقيق: شعيب وعبد القادر الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة - بيروت - الطبعة الثالثة، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م.

- **زغل العلم**، أبو عبد الرحمن محمد بن أحمد الذهبي، تحقيق: محمد ناصر العجمي، مكتبة الصحوة الإسلامية بالكويت.

- **الزهد**، أحمد بن محمد بن حنبل، تحقيق: محمد بسيوني زغلول، دار الكتاب العربي – بيروت – الطبعة الأولى، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م.

- **الزهد**، أحمد بن عمرو بن أبي عاصم، تحقيق: عبد العلي عبد الحميد حامد، دار الريان – القاهرة – الطبعة الثانية، ١٤٠٨هـ.

- **الزهد والرقائق**، عبد الله بن المبارك، تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي، دار الكتب العلمية – بيروت –.

- **سلسلة الأحاديث الصحيحة**، محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، الطبعة الرابعة ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.

- **سنن الدارمي**، عبد الله بن بهرام الدارمي، دار الفكر – بيروت –.

- **سنن سعيد بن منصور**، تحقيق: سعد بن عبد الله آل حميد، دار الصميعي، الطبعة الأولى ١٤١٤هـ/ ١٩٩٣م.

- **سنن ابن ماجه**، محمد بن يزيد بن ماجه، تحقيق: محمد الأعظمي، شركة الطباعة العربية السعودية، الطبعة الثانية، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م.

- **سنن أبي داود**، أبوداود سليمان بن الأشعث السجستاني، عناية محيي الدين عبد الحميد، دار إحياء التراث العربي – بيروت –.

- **سنن الترمذي (الجامع الصحيح)** تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، مطبعة مصطفى البابي الحلبي – القاهرة – الطبعة الثانية ١٣٨٨هـ/ ١٩٦٨م.

- **سنن النسائي**، أحمد بن شعيب النسائي،دار الكتاب العربي – بيروت –.

- **سنن القراء ومنهاج المجودين**، عبد العزيز بن عبد الفتاح القارئ، مكتبة الدار، المدينة المنورة، الطبعة الأولى ١٤١٤هـ.

- **سير أعلام النبلاء**، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة –بيروت –الطبعة الثانية ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م.

- **شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة**، هبة الله بن الحسن الطبري اللالكائي، تحقيق: أحمد سعد حمدان، دار طيبة – الرياض –.

- **شرح النووي على صحيح مسلم**، أبو زكريا يحيى بن شرف النووي، دار الفكر – بيروت –.

- **الشرح والإبانة على أصول السنة والديانة**، عبيد الله بن بطة العكبري، تحقيق: رضا نعسان معطي، مكتبة العلوم والحكم – المدينة المنورة – الطبعة الأولى ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م.

- **شعب الإيمان**، أحمد بن الحسين البيهقي، تحقيق: محمد بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية –بيروت –الطبعة الأولى ١٤١٠هـ.

- **شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل**، محمد بن أبي بكر بن القيم، تحقيق: محمد بدر الدين النعساني، دار الفكر – بيروت – ١٣٩٨هـ/ ١٩٨٧م.

- **صحيح الجامع الصغير وزيادته**، محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي –بيروت ودمشق –الطبعة الثانية، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م.

- **صحيح ابن خزيمة**، محمد بن إسحاق بن خزيمة، تحقيق: محمد مصطفى الأعظمي، المكتب الإسلامي.

- **صحيح سنن ابن ماجه**، محمد ناصر الدين الألباني، إشراف زهير الشاويش، مكتب التربية العربي لدول الخليج، الطبعة الثالثة ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م.

- **صفة الصفوة**، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي ابن الجوزي، تحقيق: محمود فاخوري، دار المعرفة - بيروت - الطبعة الرابعة ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م.

- **طريق الهجرتين وباب السعادتين**، ابن قيم الجوزية، عناية عبد المنعم العاني، دار مكتبة الحياة - بيروت - ١٩٨٠م.

- **العبودية**، شيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم بن تيمية، تحقيق: بشير محمد عيون، مكتبة دار الوعي الإسلامي.

- **غاية النهاية في طبقات القراءة**، محمد بن محمد بن الجزري، بعناية ج برجستر أسر، دار الكتب العلمية - بيروت - الطبعة الثالثة ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م.

- **غريب الحديث**، أبو عبيد القاسم بن سلام، دار الكتاب العربي - بيروت - ١٣٩٦هـ/ ١٩٧٦م.

- **فتح الباري شرح صحيح البخاري**، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، ترقيم: محمد فؤاد عبد الباقي، إشراف: الشيخ عبد العزيز بن باز، دار الفكر - بيروت -.

- **الفروع**، أبو عبد الله محمد بن مفلح، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى ١٤٢٤هـ.

- **فضائل القرآن**، أبو عبيد القاسم بن سلام، تحقيق: وهبي غاوجي، دار الكتب العلمية – بيروت – الطبعة الأولى ١٤١١هـ.

- **فضائل القرآن**، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير، تحقيق: زهير شفيق الكبي، دار الفكر العربي – بيروت – الطبعة الأولى ١٩٩٠م.

- **فهم القرآن**، الحارث المحاسبي، تحقيق: حسين القوتلي، دار الفكر – بيروت – الطبعة الثانية ١٣٩٨هـ.

- **الفوائد**، محمد بن أبي بكر ابن القيم الجوزية، دار الفكر – بيروت –.

- **فيض القدير شرح الجامع الصغير**، محمد عبد الرؤوف المناوي، المكتبة التجارية الكبرى – القاهرة – ١٩٨٣م.

- **قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة**، شيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم بن تيمية، بإشراف: رئاسة إدارة البحوث العلمية والإفتاء – الرياض – الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م.

- **القاموس المحيط**، مجد الدين الفيروزآبادي، دار الفكر – بيروت ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م.

- **القواعد الحسان لتفسير القرآن**، عبد الرحمن بن ناصر السعدي، دار ابن الجوزي، الطبعة الأولى ١٤١٣هـ.

- **الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل ووجوه التأويل**، جار الله محمود ابن عمر الزمخشري، دار المعرفة – بيروت –.

- **كشف الأستار عن زوائد مسند البزار**، علي بن أبي بكر الهيثمي، تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي، مؤسسة الرسالة - بيروت - الطبعة الثانية، ١٤٠٤هـ.

- **لباب النقول في أسباب النزول**، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، دار إحياء العلوم - بيروت - الطبعة الثانية ١٩٧٩م.

- **المجروحين من المحدثين والضعفاء والمتروكين**، محمد بن حبان بن أبي حاتم، تحقيق: محمود إبراهيم زايد، دار الوعي - حلب - الطبعة الثانية ١٤٠٢هـ.

- **مجمع الزوائد ومنبع الفوائد**، علي بن أبي بكر الهيثمي، مؤسسة المعارف - بيروت - ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م.

- **مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية**، جمع وترتيب: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، مكتبة ابن تيمية.

- **المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز**، عبد الحق بن غالب بن عطية، تحقيق: المجلس العلمي بفاس، توزيع مكتبة ابن تيمية - القاهرة -.

- **مختصر قيام الليل**، محمد بن نصر المروزي، عناية عبد الحميد حبيب الله نشاطي، الناشر حديث أكادمي - باكستان -.

- **مختصر منهاج القاصدين**، أحمد بن عبد الرحمن المقدسي، تعليق: شعيب الأرناؤوط وعبد القادر الأرناؤوط، مكتبة دار الإيمان ومؤسسة علوم القرآن - دمشق وبيروت - ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م.

- **مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين**، محمد بن أبي بكر بن القيم،

دار الفكر العربي – بيروت –.

- **المرشد الوجيز إلى علوم تتعلق بالكتاب العزيز**، عبد الرحمن بن إسماعيل المعروف بأبي شامة، تحقيق: طيار آلتي حولاج، دار صادر – بيروت- ١٣٩٥هـ/ ١٩٧٥م.

- **المستدرك على الصحيحين وحاشيته تلخيص المستدرك للذهبي**، أبو عبد الله الحاكم، دار الكتاب العربي – بيروت –.

- **المسند**، أحمد بن حنبل، المكتب الإسلامي – بيروت – الطبعة الخامسة ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.

- **المسند**، أحمد بن حنبل، تحقيق: أحمد شاكر، دار المعارف – مصر- ١٣٩٢هـ/ ١٩٧٢م.

- **مسند ابن الجعد**، علي بن الجعد الجوهري، تحقيق: عامر أحمد حيدر، مؤسسة نادر – بيروت – الطبعة الأولى ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م.

- **مسند أبي يعلي**، أحمد بن علي الموصلي، تحقيق: حسين سليم أسد، دار المأمون للتراث – دمشق – الطبعة الأولى ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م.

- **مصباح الزجاجة في زوائد ابن ماجه**، أحمد بن أبي بكر البوصري، تحقيق: كمال يوسف الحوت، مؤسسة الكتب الثقافية ، دار الجنان – بيروت – الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م.

- **المصنف**، عبد الرزاق بن همام الصنعاني، تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي،

المكتب الإسلامي، دمشق - بيروت - الطبعة الثانية ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.

- **المصنف في الأحاديث والآثار**، عبد الله بن محمد بن أبي شيبة، بعناية كمال يوسف الحوت، دار التاج - بيروت - الطبعة الثانية ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٩م.

- **معاني القرآن وإعرابه**، إبراهيم بن السري الزجاج، تحقيق: عبد الجليل عبده شلبي، عالم الكتب، الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م.

- **المعجم الأوسط**، سليمان بن أحمد الطبراني، تحقيق: محمود الطحان، مكتبة المعارف - الرياض - الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.

- **معجم البلدان**، ياقوت بن عبد الله الحموي، دار إحياء التراث العربي - بيروت - ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م.

- **المعجم الكبير**، سليمان بن أحمد الطبراني، تحقيق: حمدي عبد المجيد السلفي، مطبعة الوطن العربي - العراق - الطبعة الأولى، ١٤٠٠هـ.

- **معرفة القراء الكبار على الطبقات والأعصار**، شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي، تحقيق: شعيب الأرناؤوط وصالح عباس، مؤسسة الرسالة - بيروت - الطبعة الأولى ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م.

- **مفاتيح للتعامل مع القرآن**، صلاح عبد الفتاح الخالدي، دار القلم - دمشق - الطبعة الثانية ١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م.

- **مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة**، محمد بن أبي بكر ابن القيم الدمشقي، دار الباز - مكة المكرمة -.

- **المفردات في غريب القرآن**، الحسين بن محمد الشهير بالراغب الأصفهاني، تحقيق: محمد سيد كيلاني، مطبعة مصطفى البابي الحلبي - القاهرة ١٣٨١هـ/ ١٩٦١م.

- **مناهل العرفان في علوم القرآن**، محمد بن عبد العظيم الزرقاني، دار الفكر ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م.

- **المنتظم**، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي ابن الجوزي، دار صادر - بيروت ١٣٥٨هـ.

- **منهج السلف في العناية بالقرآن الكريم**، بدر بن ناصر البدر، دار الفضيلة - الرياض - الطبعة الأولى ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م.

- **الموطأ**، مالك بن أنس، بعناية محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي - بيروت - ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م.

- **نهاية الأرب في فنون الأدب**، شهاب الدين أحمد النويري، مصور عن دار الكتب، وزارة الثقافة والإرشاد القومي.

- **الهدى والبيان في أسماء القرآن**، صالح بن إبراهيم البليهي، دار المسلم - الرياض - الطبعة الثالثة ١٤١٨هـ.

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة